

المغاربة والأندلسيون

فى

مصر الإسلامية

من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمى

(١١٧١.٦٤٢ هـ / ١١٧١.٦٤٢ م)

د. أحمد عبد اللطيف حنفى

الجزء الأول

الدراسة السياسية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

تاريخ المصريين

(٢٤٤)

● تاريخ البصريين

رئيس مجلس الإدارة :

د. وحيد عبد المجيد

رئيس التحرير :

د. عبد العظيم رمضان

مديرا التحرير :

محمود الجزار

أمانى إسماعيل

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



المغاربية والأندلسيون في عصر الإسلاميت

من عصر الولاية حتى نهاية العصر الفاطمي
(٢١-٥٦٧ هـ / ٦٤٢-١١٧١ م)

الجزء الأول
الدراسة السياسية

د. أحمد عبد اللطيف حنفي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٥

الإشراف الفني :

محمود الجزار

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب المهم عن « المغاربة والاندلسيون في مصر الاسلامية » ، للدكتور أحمد عبد اللطيف حنفي محمد ، وهو في الأصل رسالة علمية حصل بها صاحبها على درجة الماجستير من كلية الآداب جامعة طنطا .

وقد تعرض الباحث للفظ المغرب في العصر الاسلامي ، وهو اللفظ الذي كان يطلق على الجناح الغربي لدولة الاسلام بالمقابلة بالشرق ، ويشمل كل ما يلي مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي .

ويتسع مدلول لفظ المغرب عند كتاب المسلمين ليشمل كذلك الاندلس (أسبانيا والبرتغال حالياً) قبل انفصاله عن حكم الاسلام ، وقد يتسع أيضاً ليشمل صقلية (في جنوب ايطاليا) وكل بقعة حل بها المسلمون في أوروبا الغربية ، فهناك المغرب الأفريقي ، وهناك المغرب الاندلسي . ولهذا ، فإن كلمة مغرب ، أو مغاربة تعني أيضاً الاندلس وأهله .

ولطول الرسالة رأينا نشرها في جزئين ، الجزء الأول وتعرض لدراسة الدور السياسي للمغاربة والاندلسيون في مصر ، من عصر الولاة حتى نهاية الحكم الأخشيدي ، ثم طوال العصر الفاطمي . بينما عنى الجزء الثاني بمعالجة دورهم في مناحي الحضارة الأخرى

بمصر ، من نظم حكم وادارة ، وقد عالج أيضاً دورهم في الجوانب الاقتصادية ، والاجتماعية ، وفي العلوم والفنون . وقد أنهى الباحث دراسته بخاتمة أكد فيها على استمرار انفتاح المفارقة على مصر بشكل جعلها بحق « باب المغرب » الى المشرق الاسلامى .

وأمل أن ينتفع بهذه الدراسة المهمة القارئ المتخصص والقارئ المثقف .

والله ولى التوفيق

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

« المقدمة »

أهمية الموضوع مع عرض لأهم مصادر البحث ومراجعته

يتناول البحث الذى نحن بصددده ، دراسة الوجود المغربى فى مصر الاسلامية خلال خمسة قرون ونصف ، وبالتحديد منذ بداية حكم الولاة المسلمين سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) حتى نهاية الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) . وهو فى مجمله ، محاولة تصد بها القاء الضوء على الوجهة المغربية لمصر وبيان تطورات الأحداث المتعلقة بها . وذلك فى مقابل اتجاه — يكاد يكون نمطيا — عنى أصحابه بدراسة وجهتها المشرقية ، كامتداد طبيعى لاستمرار ارتباط مصر بمركز الخلافة فى المشرق .

وقد نجزت هذه الدراسة فى قسمين ، يسبقهما تمهيد ، وتليهما خاتمة ثم قائمة بالمصادر والمراجع :

أما التمهيد ، فقد تم خلاله بيان المقصود بلفظ المغرب ، والمغاربة وأسباب وجودهم بمصر ، ولمحة تاريخية عن بداية انفتاحهم على مصر ، والمراحل الزمنية الواجب اتباعها عند دراسة الدور 'المغربى' فى مصر الاسلامية على وجه العموم .

وأما القسمان ، فقد اختص أولهما — ببابيه وفصوله الأربعة — بدراسة الدور السياسى للمغاربة والأندلسيين فى مصر ، من عصر الولاة حتى نهاية الحكم الاخشيدى ، ثم طوال العصر الفاطمى . بينما عنى القسم الآخر — الذى يدور فى بابين وخمسة فصول — بمعالجة دورهم فى مناحى الحضارة الأخرى بمصر ، من نظم حكم وإدارة وفى الجوانب الاقتصادية ، والاجتماعية وفى العلوم والفنون .

وقد احتوت الخاتمة ، على النتائج التى أمكن التوصل اليها ، والتى كان أبرزها التأكيد على استمرار انفتاح المغاربة على مصر بشكل جعلها بحق « باب المغرب » .

وبالنسبة للمصادر والمراجع التى أمكن الانادة منها ، فيمكن تقسيمها على النحو التالى :

أولا : المصادر الأدبية :

وتأتى فى مقدمتها كتب التاريخ ، المحلى منها بصفة خاصة ، التى اهتمت بدراسة تاريخ مصر والمغرب خلال الفترة موضع الدراسة . ثم كتب الطبقات (التراجم) التى خصصها أصحابها لدراسة سير وأخبار المبرزين من رجال هذه المرحلة الزمنية فى ضروب شتى من المعرفة السائدة آنذاك . وهناك كتب الجغرافية والرحلات ، ذات الفضل فى اعطاء صورة حية عن المكان والزمان اللذين ندرسهما .

١ — كتب التاريخ :

أول هذه المجموعة كتاب « فتوح مصر والمغرب والأندلس » لصاحبه عبد الرحمن بن عبد الحكم المصرى (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ /

٨٧١ م) ، أحد أفراد أسرة بنى عبد الحكم ذات الباع الطويل في دراسات الحديث والفتن المالكي بمصر خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين . ويعد هذا الكتاب من أقدم ما وصلنا عن تاريخ مصر الإسلامية . وقد عنى المستشرق تشارلس س . تورى بنشره وتحقيقه في سنة ١٩٢٠ م (بمطبعة بريل بمدينة ليدن) ، وصدر بعنوان « فتوح مصر وأخبارها » . ثم أعاد الأستاذ عبد المنعم عامر (في سنة ١٩٦١ م) تحقيق ودراسة الجزء التاريخي من هذا الكتاب ، تحت عنوان « فتوح مصر والمغرب » . وترجع أهمية هذا الكتاب ، بجانب كونه من أقدم ما وصلنا في هذا المجال ، الى أنه كان يمثل مرحلة هامة من مراحل تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين نحو الإقليمية . وبالنسبة لموضوع البحث ، فتبرز أهمية هذا الكتاب في أنه أمدنا ببعض المعلومات عن المغاربة المنتشرين في صحراء مصر الغربية وبخاصة بربر لواتة سكان إقليم برقة وموقفهم من حركة الفتح الإسلامي . كما أنه حوى إشارة سريعة الى أول تأريخ رسمى لقدم جماعة من البربر الى مدينة القسطنطينية على أحد علماء مصر ، وذلك عقب الفتح مباشرة (١) .

ويلى ذلك ، كتاب « فتوح البلدان » لأحمد بن يحيى المعروف بالبلاذرى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) . وقد نشر هذا الكتاب عدة مرات أهمها نشرة دى غويه الذى نشره كاملا في ثلاثة أقسام (من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٦٦ م) . ومنها نشرة الدكتور صلاح الدين المنجد في ثلاثة أقسام (سنة ١٩٥٦ م) . وهذه الأخيرة كان المعول على قسمها الأول في ذكر أحداث فتح مصر ، وبخاصة فتح النوبة وعلاقة ذلك بفتح الواحات والتعامل مع القوى اللواتية الموجودة هناك .

ثم كتاب « ولاية مصر وقضاتها » لأبى عمر محمد بن يوسف ابن يعقوب الكندى (ت حوالى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) . وقد قام

على نشر هذا الكتاب — بقسميه — المستشرق رغن جست (ببيروت
سنة ١٩٠٨ م) ، وضم اليه كتاب « رفع الاصر عن قضاة مصر »
لابن حجر العسقلانى (المتوفى سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) . وأعاد
الدكتور حسين نصار تحقيق القسم الخاص بولاية مصر من الكتاب
(فى سنة ١٩٥٩ م) . ورغم أن هذا الكتاب يعد من كتب الطبقات
من حيث اختصاصه بالترجمة لولاية مصر وقضااتها ، إلا أنه
— وبخاصة القسم الخاص بالولاية — قد احتوى على معلومات على
جانب كبير من الأهمية بالنسبة لموضوع البحث ، سواء فيما يتعلق
بالمغاربة المنتشرين فى صحراء مصر الغربية أو الوافدين . مثال ذلك ؛
أنه انفرد بذكر الدور الذى لعبه بربر الواحات أثناء ثورة دحية بن
مصعب الأموى على الحكم العباسى بمصر (٢) . كما
أن الكندى أرخ بدقة لظهور غزاة البحر الاندلسيين أمام
ساحل مدينة الاسكندرية على نحو نفى به اللبس الذى علق بهم
من كونهم أهل قرطبة الذين شاركوا فى ثورة الرضى الشهيرة
بالاندلس (٣) .

وتعد مؤلفات أبى محمد الحسن بن ابراهيم بن زولاق المصرى
(ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) على جانب كبير من الأهمية ، مثل الجزء
الخاص بسيرة خلفاء الإخشيد حتى الفتح الفاطمى لمصر ، والذى
جعل ابن زولاق تنبئة لكتاب ولاية مصر للكندى الذى كان قد توقف
فى تأليفه عند نهاية سيرة محمد بن طفج الإخشيد . وكذلك المؤلف
الخاص بأحوال مصر تحت حكم الدولة الإخشيدية ؛ والذى جعله
تحت عنوان « العيون الدعج فى حل دولة بنى طفج » . وهذا البيان
الآخر ضمه ابن سعيد الاندلسى (المتوفى سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م)
فى القسم الخاص بمصر بعنوان الأكليل فى حلى النيل من مؤلفه
« التكميل » المغرب فى حلى المغرب » الذى قام على نشر الجزء الأول

منه الدكتور زكى محمد حسن وسيدة اسماعيل كاشف وشوقي ضيف (فى سنة ١٩٥٣ م) . كما أعاد الدكتور حسين نصار نشر الجزء الخاص بالقاهرة ضمن دراسته للقسم الثانى الخاص بمصر من كتاب ابن سعيد ، وجعله تحت عنوان «النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة» (سنة ١٩٧٠ م) . وعلى ذكر مؤلف ابن سعيد القيم « المغرب فى حلى المغرب » فقد أضاف الباحث كذلك من تحقيق الدكتور شوقي ضيف للقسم الخاص بالمغرب والاندلس من هذا الكتاب ، والذي صدر فى جزئين (طبعة القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٥٥ م) .

وهناك كتاب « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » الذى على الرغم من أنه فى عداد كتب الطبقات والتراجم من حيث اختصاصه بسير آباء الكنيسة المصرية ، إلا أنه فى مجمله عبارة عن موسوعة شاملة للأحداث المحلية التى شهدتها مصر منذ دخول المسيحية إليها وحتى العصر الحديث . وقد شارك فى تدوين هذه الموسوعة أكثر من واحد من رجال الدين المسيحى المصريين ، غير أنها نسبت لساويرس بن المقفع أسقف مدينة الاشمونين من أعمال مصر الوسطى . أما عن ساويرس فقد ولد حوالى سنة ٩١٥ م (٣٠٣ هـ) من والد لقب بالمقفع ومعناه المنكس الرأس دائما أو من كانت يده بها رعشة . وكان كاتباً ماهراً فى الدولة الاخشيدية ثم ترك مركزه ليعيش حياة الرهبنة حتى اختير أسقفاً لكنيسة الاشمونين . وقد ناصر ساويرس الفتح الفاطمى لمصر ، وكان يحضر مع بطريك النصارى فى لقاءاته مع الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ووزيره يعقوب بن كلس (٤) . وقد أشار ساويرس الى أنه جمع سير البطاركة السابقين على عصره من مؤلفات كانت موجودة ببعض أديرة مصر ، ثم أضاف إليها تراجم مستفيضة عن الآباء المعاصرين له . ويمتاز مؤلف ساويرس بأنه يبين — منذ فتح العرب لمصر — وجهة نظر المسيحيين والرهبان المصريين نحو الحكومات الاسلامية ،

ونحو أخوانهم من المصريين المسلمين (٥) . وبالنسبة لموضوع البحث ، فقد أمدنا هذا المصدر بمعلومات دقيقة عن استيلاء غزاة البحر الاندلسيين على مدينة الاسكندرية وكيفية تعاملهم مع اهالى المدينة (٦) . واسهب كذلك فى الحديث عن المغاربة المنتشرين فى صحراء مصر الغربية وتتبع عمليات الشغب التى قاموا بها ، خاصة فى أرض البحيرة ، منذ القرن الثالث الهجرى (ق ٩ م) حتى أحداث الشدة العظمى التى شهدتها مصر أثناء خلافة المستنصر بالله الفاطمى (٧) . وقد صدر هذا الكتاب فى أكثر من طبعة ، منها نشرة المستشرق ايفتس (Evetts) التى صدرت بعنوان سير الآباء البطارقة أو « تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية » ضمن مجموعة (Patrologia Orientalis) أى كتابات « آباء الكنيسة فى الشرق » ، وذلك فى الاجزاء التى نشرت من هذه المجموعة بباريس : الجزء الأول سنة ١٩٠٧ ، والجزء الخامس سنة ١٩١٠ ، والجزء العاشر سنة ١٩١٥ . ومن هذه الطباعات كذلك ، نشرة جمعية الآثار القبطية بمصر التى صدرت بإشراف الأساتذة يسى عبد المسيح وأزولد برمستر والدكتور عزيز سوريال عطية . وهذه النشرة الأخيرة كان المعول على المجلد الثانى منها بأجزائه الثلاثة (الجزء الأول فى القاهرة سنة ١٩٤٣ ، والثانى ١٩٤٨ ، والثالث ١٩٥٩ م) ، والجزء الأول من المجلد الثالث (سنة ١٩٦٨ م) . وأخيراً التحقيق الذى قام به الراهب صموئيل السريانى بعنوان « تاريخ البطارقة » فى طبعة خاصة صدرت للدارسين بمعهد الدراسات القبطية بمصر (سنة ١٩٨٤ م) ، واقتصر خلاله على استعراض سير الآباء الأول حتى البطريك يوسف أويوساب الذى يشغل العدد ٥٢ من آباء الكنيسة المصرية .

وتجدر الإشارة الى كتابين هامين ساهما فى تغطية بعض الأحداث السياسية التى شهدتها مصر أخريات العصر الفاطمى ،

أولهما كتاب « الاعتبار » أو حياة أسامة بن منقذ لصاحبه أسامة
ابن منقذ الشيرازي (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م) ثم كتاب « النكت
العصرية في أخبار الوزراء المصرية » للشاعر عمارة اليمى (المتوفى
بمصر سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) . ووجه الأهمية هنا ، في أن كلا
المؤلفين قد عايش الأحداث المدونة بكتابيه عن الأوضاع السياسية
المتشابكة خلال الفترة الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية ، كما أن
الاثنين قد قدر لهما أن يصنعا بعض أحداث هذه الفترة لاسيما فيما
يتعلق بالمغاربة الموالين للفاطميين والتمسار الآخر من المغاربة
المستقرين في نواحي غرب مصر . وقد قام على نشر كتاب
« الاعتبار » الأستاذ فيليب حتى بمطبعة جامعة برنستون بالولايات
المتحدة ، في سنة ١٩٣٠ . بينما نشر كتاب « النكت العصرية »
بواسطة المستشرق هرتويج درنبرج بمدينة شالون الفرنسية سنة
١٨٩٧ م .

وقد احتلت مؤلفات المقرئ (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م)
أهمية خاصة في هذا البحث ، لاسيما الموسوعة التي أفرد لها لتاريخ
الوجود الفاطمي بمصر تحت عنوان « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة
الفاطميين الخلفاء » . وهي الموسوعة التي قام على نشرها فون
هيوغو بونز في سنة ١٩٠٩ م (بمدينة ليبزج) ثم أعقبها نشرة
د. جمال الدين الشيال (القاهرة سنة ١٩٤٨ م) . وذلك قبل أن
تأخذ شكلها النهائي في الأجزاء الثلاثة التي أصدرتها لجنة إحياء
التراث بالقاهرة ، وقد قام د. الشيال بإعادة نشر وتحقيق الجزء
الأول منها (في سنة ١٩٦٧ م) وتابع د. محمد حلمي محمد أحمد
نشر وتحقيق الجزئين الثاني والثالث (سنتي ١٩٧١ - ١٩٧٢ م) .
وهذه الموسوعة بحق عماد ما كتب عن تاريخ مصر الفاطمية ، لأن
المقرئ أفاد في كتابتها من المؤلفات السابقة على عهده ، مثل كتاب
« أخبار مصر » لصاحبه أبي عبيد الله محمد بن عبيد الله المسبحي

(الذى عاصر كل من الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله وابنه الظاهر لاعزاز دين الله ، وكان مقربا منهما الى حين وفاته) . وهذا الكتاب الآخر كان صاحبه المسبحى قد أفرد له دراسة تاريخ مصر الفاطمية حتى عصره ، ثم فقد فى معظمه وبقي منه فقط الجزء الأربعون المختص بأحداث سنتي ٤١٤ هـ و ٤١٥ هـ . وقد نشره وليم ج ميلورد فى سنة ١٩٨٠ م . ومثل كتاب « أخبار مصر » لمحمد بن على بن يوسف المعروف بابن ميسر (المتوفى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) الذى وصلنا جزؤه الثانى فقط بتحقيق هنرى ماسنيه (مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩١٩ م) (٨) .

ومن مؤلفات المقرئى التى لا غنى عنها كذلك ، كتاب « المواظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » المعروف « بالخطط » الذى ظهر فى أكثر من طبعة ، منها الطبعة التى ظهرت بتحقيق د. محمد مصطفى زيادة فى ثلاثة أجزاء (مطبوعات دار التحرير للطبع والنشر بالقاهرة ١٩٦٧ - ١٩٦٨ م) . وهو كتاب يعنى بدراسة طبوغرافية القاهرة من حارات ودروب وازقة ، مع سرد الأحداث التاريخية الخاصة بكل موضع . ولهذا فقد تعددت جوانب الافادة من هذا المصدر بشكل يصعب حصرها .

هذا بالاضافة الى سلسلة مؤلفات المقرئى الأخرى ، مثل كتاب « اغاثة الامة بكشف الغمة » الذى القى الضوء على أمور الاقتصاد والمجتمع بمصر من خلال استعراض الازمات الاقتصادية التى ألمت بالبلاد طوال تاريخها الاسلامى حتى زمن المقرئى . وقد قام على نشره د. محمد مصطفى زيادة ود. جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٧ م) . وكتاب « البيان والاعراب عما نزل بأرض مصر من الاعراب » الذى تصدى لدراسة القبائل العربية بفروعها المختلفة التى سكنت مصر منذ الفتح الاسلامى . وقد أفرد المقرئى - فى هذا المؤلف - قسما خاصا تحدث فيه عن قبائل لواتة وهوارة

البربرية المنتشرين في نواحي غرب مصر. باعتبارهم من العرب كما كان شائعا آنذاك ، وحدد أماكن استقرارهم بدقة في عمق ديار مصر حتى الصعيد . وقد قام د. عبد المجيد عابدين على نشر هذا الكتاب (سنة ١٩٦١ م) ، وألحق به دراسة عن تاريخ العروبة في وادي النيل .

ولا شك أن المقرئ قد أفاد عند كتابة مؤلفه « البيان والإعراب » بما كتبه أبو العباس أحمد بن علي المعروف بالقلقشندي نسبة الى مدينة قلقشنده من أعمال القليوبية (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) في هذا المجال ، بعنوان « قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان » وهو الكتاب الذي قام على نشره وتحقيقه الأستاذ إبراهيم الأبياري ضمن مطبوعات دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٩٦٣ م .

ويعد كتاب « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » لصاحبه أبي المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (المتوفى سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) من المصادر الهامة في تاريخ مصر الاسلامية ، اذ هو عبارة عن دراسة حولية لتاريخ مصر الاسلامية منذ الفتح حتى عصر المؤلف . ولهذا كان عليه المعول في تأكيد بعض الأحداث الخاصة بالدور المغربي في مصر ، والتي وردت متناثرة في بعض المصادر الأخرى السابقة على زمن ابن تغري بردي . وقد تم الاعتماد على النشرة التي أصدرتها دار الكتب المصرية في ١٦ جزءا ابتداء من سنة ١٩٢٩ م . وبخاصة الأجزاء ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ .

وفي مقابل ذلك ، هناك كتاب « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » لصاحبه ابن عذاري المراكشي (كان حيا سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م) الذي يؤرخ للمغرب والأندلس منذ الفتح العربي حتى أواخر القرن السابع الهجري (ق ١٣ م) (٩) . وتبرز أهمية هذا

المصدر في احتوائه على معلومات تتعلق بالوجود المغربي في مصر خلال العصر الفاطمي وخاصة وذلك على هامش الحديث عن العلاقات فيما بين الفاطميين — بمصر — ونوابهم في حكم ولاية إفريقية ، بنى زيري الصنهاجيين . مثال ذلك ما أورده ابن عذارى عن اهتمام الخليفة العزيز بالله بإحضار بعض فرسان صنهاجة الأشداء إلى مصر كي يوازن بهم النفوذ المتزايد للفرق العسكرية المغربية الموجودة بمصر آنذاك (١٠) . وكذلك أشارته إلى بعض الممارسات الاقتصادية لاموان حاكم مدينة المهدية ، وكذا أعوان حاكم مدينة بجاية ، أثناء وجود الفريقين بمدينة الإسكندرية ، واهتمام أفراد كل فريق بالعمل لصالح أميرهم على حساب الآخر (١١) . وقد احتل هذا المصدر أهمية خاصة لدى المختصين بدراسة تاريخ المغرب والاندلس ، ولهذا ظهر في أكثر من نشرة ، كان منها النشرة التي صدرت طبعتها الثانية في أربعة أجزاء ، في سنة ١٩٨٠ م (بواسطة دار الثقافة ببيروت) . وقسم المستشرقان الفرنسيان ليفي برونفيسال وجورج كولان على نشر الأجزاء الثلاثة الأولى من تاريخ المغرب والاندلس ، كل على حدة ، منذ الفتح الإسلامي حتى قيام دولة المرابطين في المغرب وعبورهم إلى الاندلس . واختتم الدكتور احسان عباس هذه الموسوعة بجزء رابع عن تاريخ المغرب والاندلس أثناء حكم المرابطين .

وهناك كتب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » لصاحبه عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) الذي يعد أساسا لدراسة تاريخ المغرب ، وبخاصة الأجزاء ٤ ، ٦ ، ٧ التي عالجت الأوضاع الخاصة بقبائل البربر وأماكن استيطانهم ببلاد المغرب ، وذكر تاريخهم منذ الفتح العربي . وقد تم الاعتماد على نسخة الكتاب التي طبعت بالقاهرة في سبعة أجزاء (مطبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٧ م) ، وطبعة أخرى صدرت في بيروت (دار

الكتاب اللبناني للطباعة والنشر سنة ١٩٦٨ م) . أما المقدمة الشهيرة التي جعلها ابن خلدون فاتحة كتابه العبر - والتي هي بمثابة الجزء الأول من هذا المؤلف الضخم - فقد أفادت في جوانب شتى من هذا البحث لاسيما في لقاء الضوء على أنواع العسلوم والمعارف السائدة آنذاك ، بشكل جعلها مفتاحا للدراسة الثقافية التي حواها هذا البحث . وقد تم الاعتماد في دراسة هذه المقدمة على التحقيق الذي قام به الدكتور على عبد الواحد وافي ، وظهرت طبعته الثالثة في ثلاثة أجزاء (دار نهضة مصر بالقاهرة ، سنة ١٩٨١ م) .

٢ - كتب الطبقات (التراجم) :

ويأتي على رأس هذه القائمة ، تلك التي اختصت بذكر علماء وفقهاء أهل المغرب والإندلس وأبرزت مختلف الأنشطة التي قاموا بها أثناء خروجهم إلى المشرق لتأديسة فريضة الحج . وأولها كتاب « طبقات علماء إفريقية » لكل من أبى العرب التميمي (٣٣٣ هـ / ٩٤٥ م) ومعاصره الخشني (٣٦١ هـ / ٩٧٧ م) . وقد نشرهما معا الأستاذ محمد بن أبى شنب (الجزائر ١٩١٤ م) في ستة أجزاء متوالية ، ثلاثة لأبى العرب ، وثلاثة للخشني ، والحق بهما جزءا سابعاً لأبى العرب باسم « طبقات علماء تونس » . ورتب أجزاء هذه المجموعة على التوالي :

وثانيهما كتاب المالكي (توفي بعد سنة ٤٥٣ / ١٠٦١ م) المسمى « رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونسبائهم وسير من أخيارهم وفضائلهم وأوصافهم » . وهو يقع في ثلاثة أجزاء ، الجزء الأول نشره الدكتور حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥١ م) ، ويبدأ بتاريخ الفتح ثم طبقات الصحابة بالتابعين الذين دخلوا إفريقية . فطبقات

أصحاب مالك بن أنس طبقة اثر طبقة وينتهي بسنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) .
والجزء الثانى مازال مخطوطا ، وتوجد منه خمس نسخ بدار الكتب
المصرية بأرقام ٧١٦٨ ح ، ٦٣٥٠ ح ، ٩٤٤٦ ح ، ٤٨٥٢ تاريخ
١١٦ تاريخ . اما الجزء الثالث فهو مفقود (١٢) .

وثالثها كتاب « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام
مذهب الامام مالك » لصاحبه القاضى عياض (٥٤٤ هـ / ١١٥٠ م) .
وهو مرتب على مقسمة وعشر طبقات . وتوجد من هذا الكتاب
نسخة مخطوطة فى مجلدين بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٩٣
تاريخ ، وقد تم نسخها بمعرفة دار الكتب فى أربعة مجلدات تحت
رقم ٩٦٧٣ ح . وتوجد كذلك نسخة مطبوعة من هذا الكتاب (٤ اجزاء
فى مجلدين) نشرها الدكتور أحمد بكير محمود ببيروت (دار مكتبة
الحياة سنة ١٩٦٨ م) ، وهى النسخة التى أشار دكتور محمد
عبد المولى الى خلوها من تراجم عديدة لاسيما فى الجزء الثالث
من المجلد الثانى ، رغم انها موجودة بالمخطوط (١٣) .

ثم كتاب الدباغ (٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م) المسمى « معالم الايمان
فى معرفة أهل القروان » الذى ذيله وعقب على رواياته ابن ناجى
التنوخى القروانى (٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م) . وقد تم الاعتماد على
نسخة الكتاب التى صدرت مطبوعة فى ٤ اجزاء بمجلدين ، بواسطة
المطبعة العربية التونسية سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) .

وهناك كتب الطبقات التى صُنفت تحت عنوان « المكتبة
الاندلسية » ونذكر منها : كتاب « اخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر
امرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم » مؤلف مجهول ، الذى
قام على نشره المستشرق الأسباني اميليو لافونتى الكنترا فى سنة
١٨٦٧ م ، واعاد الأستاذ ابراهيم الابيارى تحقيقه فى سنة ١٩٨١ م
(دار الكتاب المصرى ، دار الكتاب اللبنانى) وجعله على رأس

سلسلة المكتبة الأندلسية ، باعتباره — وكتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » لابن القوطية — تمهيداً لهذه المجموعة . وقد أمدنا هذا الكتاب بمعلومات دقيقة عن قائمة الحج التي ضمت أبا اليسر الرياضى أول جاسوس شيعى حاول ممارسة الدعوة بمصر أثناء حكم الأمير أحمد بن طولون ، وكذلك عن رفاقه فى الرحلة الذين أضرروا بسببه (١٤) .

ثم سلسلة علماء الأندلس التى أولها كتاب « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس » لابن الفرضى (٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م) ، الذى قام السيد عزت العطار الحسينى (فى سنة ١٩٥٤ م) على نشره فى جزئين . وكتاب « الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم » التى جعله صاحبه ابن بشكوال (٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) تبة لكتاب ابن الفرضى . وقد تم الرجوع الى نسخة « كتاب الصلة » التى قام على نشرها السيد عزت العطار الحسينى فى جزئين (مكتبة المثنى ببغداد والخانجى بالقاهرة سنة ١٩٥٥ م) . وكذلك كتاب « التكملة لكتاب الصلة » لصاحبه ابن الأبار (المتوفى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) الذى أتم كتاب الصلة لابن بشكوال . وقد قام أيضاً على طبع هذا الكتاب السيد عزت العطار الحسينى فى ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٩٥٦ م) .

وعلى ذكر ابن الأبار ، فهناك كتابه المسمى « الحلة السيرة » الذى قام على نشره وتحقيقه الدكتور حسين مؤنس (القاهرة ١٩٦٣ م) . وهو كتاب من نوع التراجم العامة التى أفردت للناهبين من أهل الأندلس فى مختلف التخصصات . وقد احتوى الجزء الأول على تراجم أهل المئات الأولى والثانية والثالثة والرابعة ، وضمم الثانى تراجم أهل المئات الخامسة والسادسة والسابعة ومن لم يؤثر عنهم شعر .

والى جانب تكملة ابن الأبار ، هناك أيضا كتاب « صلة
الصلة » الذى جعله صاحبه أبو جعفر أحمد بن الزبير (المتوفى
سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م) ذيلًا للصلة البشكوالية فى تراجم أعلام
الأندلس . وقد قام المستشرق ليفى بروغنسال على نشر وتحقيق
القسم الأخير من هذا الكتاب ، والذى يبدأ بحرف العين وصدر
بواسطة معهد العلوم العليا المغربية بالرباط سنة ١٩٣٧ م .

ويعيننا كذلك كتاب الحميدى (المتوفى سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م)
« جذوة المقتبس فى ذكر ولاية الأندلس » ، وكتاب الضبى (المتوفى سنة
٥١٨ هـ / ١٢٠٢ م) بعنوان « بغية الملتبس فى تاريخ علماء
الأندلس » وكتاب ابن فرحون (٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م) المسمى
« الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب » الذى ذيله بابا
التبكي (١٠٣٦ هـ / ١٦٢٧ م) بكتابه « نيل الابتهاج بتطريز
الديباج » ، وأخيرا كتاب المقرئ القلمسانى (١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م)
المعروف باسم « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر
وؤيرها لسان الدين بن الخطيب » الذى حوى بين أجزائه تراجم
عديدة لمن رحل من أهل الأندلس الى المشرق والعكس .

ومن نماذج كتب الطبقات الأخرى التى أفادت فى جوانب شتى
من هذه الدراسة ، كتاب الزبيدى الاشبلى (المتوفى سنة ٣٧٩ هـ /
٩٨٩ م) المسمى « طبقات النحويين واللغويين » الذى اقتبس
القنطى المصرى (٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) معظمه فى كتابه « أنباء الرواة
على أنباء النحاة » . وكتاب ابن جلجل الأندلسى (مات بعد سنة
٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) المعروف باسم « طبقات الأطباء والحكماء »
الذى صار عمادا لكتاب ابن أبى أصيبعة (المتوفى سنة ٦٦٧ هـ /
١٢٧٠ م) المسمى « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » . وهناك
كتاب ابن خلكان (المتوفى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) « وفيات الأعيان

وأبناء أبناء الزمان » الذى لا غنى عنه أبدا لدراسى التاريخ
الاسلامى .

ورغم غرابة المنهج الذى سلكه شمس الدين بن الزيات
المصرى (المتوفى سنة ٨١٤ هـ / ١٤١١ م) فى تأليف كتابه « الكواكب
السيارة فى ترتيب الزيارة » ، فان له أهمية بالنسبة لهذا البحث .
اذ انه أثناء استعراضه طبوغرافية منطقة المدافن المحيطة بالفسطاط
— والمعرونة بالقرافتين الصغرى والكبرى — تعرض بأسهاب
للحديث عن ذى النون المصرى (رائد علم التصوف بمصر والمدفون
بالقرافة الصغرى سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م) وذكر نصا طويلا عن
إحدى مآثورات ذى النون فى الوعظ . ووجه الأهمية هنا فى ان هذه
الموعظة — **والتي لوحظ أنها بمثابة أصل نظرية ذى النون فى**
المقامات والأحوال والحب الالهى — قد أكد ابن الزيات أن ذا النون
قد أخذها عن أستاذه المغربى أبى على شقران (المتوفى جوالى سنة
١٨٦ هـ / ٨٠٢ م) (١٥) . وقد تعددت كذلك جوانب الامادة من هذا
المصدر فى أكثر من وجه ، ستوضح كلها على صفحات القسم
الخاص بالعلوم والفنون . وقد تم الرجوع الى نسخة هذا الكتاب
التي ظهرت مطبوعة بالأونست بواسطة مكتبة المثنى ببغداد .

وفى كتابه « غاية النهاية فى طبقات القراء » تفرد ابن الجزرى
(المتوفى سنة ٨٣٣ هـ / ٢٩ — ١٤٣٠ م) بذكر تراجم للعديد من
علماء القراءات والتفسير المغاربة والإنديسيين ، الذين تصادف أن
إقاموا بمصر بعض الوقت .

وأخيرا نماذج التى شملت أهمية خاصة فى هذا البحث
من كتب الطبقات ، مؤلفات السيوطى (٩١٠ هـ / ١٥٠٥ م) وبخاصة
كتاب « حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة » الذى احتوى
فى قسم كبير منه على تراجم عديدة للنابغين بمصر فى كافة
التخصصات . وهؤلاء كانوا اما أساتذة لأجيال الوافدين الى مصر

من الأمازيغية والاندلسيين ، وأما مشاركين لهم في التتلمذ على آخرين ممن تزعموا مدرسة مصر الإسلامية خلال تلك الفترة .
وكتاب « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » الذي تفرد بذكره مشاهير علماء اللغة في كافة الانحاء ، وبعد محصلة لكتابه « طبقات النحويين » للزبيدي « وانباء الرواة » للنفطى ، مع إضافات أخرى عظيمة القيمة بالنسبة للعصر المملوكى .

٣ - كتب الجغرافية والرحلات :

واقدم هذه المجموعة بالنسبة للبحث ، كتاب « البلدان » للياقوتى (المتوفى سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م) الذى احتوى على معلومات قيمة عن الساحل الشمالى الغربى لمصر وسكانه من العرب والبربر . وقد تم الاعتماد على نسخة الكتاب الملحقه بآخر كتاب الأعلام النفيسة لابن رسته والتي قام على نشرها المستشرق دى غويه ضمن مجموعة المكتبة الجغرافية العربية (المجلد السابع ، ليدن ١٨٩٢ م) .

وكتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة (المتوفى حوالى سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) ، ثم كتاب الاضطخري (المتوفى ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م) المسمى « مسالك الممالك » الذى طالعه الرحالة والجغرافى ابن حوقل الموصلى (المتوفى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) واعتمد عليه فى تدوين كتابه « المسالك والممالك » المعروف أكثر باسم « صورة الأرض » . وتبدو أهمية كتاب « صورة الأرض » بالنسبة لهذا البحث فى أكثر من وجه : فهو لى ابن حوقل كان مصاصراً للأحداث التى وردت فى هذا الكتاب . كما أن اشتهاره كأحد عيون الدولة الفاطمية جعل كتاباته عن مصر - وغيرها - تبدو وكأنها تحصى رسالة موجهة للحكم الفاطمى . وأخيراً ، فإن المعلومات التى انفرد ابن حوقل بذكرها فى مؤلفه عن الواحات ، آفراك ، ومن جبالها

من أفراد أسرة آل عبدون اللواتي وعلاقتهم بالسلطة المركزية في العاصمة وكيفية استقبالهم له أثناء زيارته للمنطقة (حوالى سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م) كل ذلك قد ساهم في اعطاء صورة متكاملة عن اقليم الواحات وعن سكانه سواء في الناحية السياسية أم الاقتصادية أم الاجتماعية وحتى الثقافية ونظم الحكم والإدارة المسائدة خلال هذه الفترة .

ويضارع كتاب ابن حوقل أهمية بالنسبة للجزء الخاص بارض الواحات خلال الفترة موضع الدراسة ، ويسبقه في الترتيب الزمني كتاب المسعودي (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) المسمى « مروج الذهب ومعادن الجوهر » . اذ ان المسعودي - بجانب المعلومات التي أوردها عن اقتصاديات الواحات - قد أشير الى اعتقال أحد اللواتي من غير أسرة آل عبدون ، حكم الاقليم بشكل أماد كثيرا في معالجة الأحداث السياسية التي شهدتها المنطقة آنذاك (١٦) .

وهناك كتاب « أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » للمقدسي البشاري (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) الذي زار مصر والمغرب وكان شهادته على الأحداث التي حواها مؤلفه . وقد ذكر المقدسي انه تلقى بالفسطاط قواعد القراءات على الأستاذ أبي الطيب عبد المنعم بن غلبون الحلبي نزيل مصر وعالم القراءات بها حتى وفاته في سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) (١٧) .

ثم كتاب « المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب » للبكري الأونبي (٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) ، وهو جزء من كتاب « المسالك والممالك » للمؤلف الذي قام على نشره البارون دي سـلان بالجزائر سنة ١٨٥٧ م . وهو كتاب عظيم القيمة من حيث احتوائه على دراسة وصفية دقيقة لجغرافية بلاد المغرب وأقاليمه ، مع

استعراض الأحداث التاريخية المتعلقة ببعض هذه المواضع .
وقد ضم هذا الكتاب وصفاً تحليلياً لاقليم الواحات بمصر ،
والطرق الصحراوية التي تربط بين وحداته مع معلومات غنية عن
الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة هناك . وقد اعتمد
البكري في ايرادها على روايات المعاصرين له من اهل المغرب
والاندلس الذين زاروا المنطقة مثل محمد بن سعيد الازدي الصفاقسي
الذي توغل في ناحية « بهنسة الواح » من أعمال الواحة الداخلة ،
وشاهد هناك احتفال النضاري بأحد اعيادهم (١٨) .

وكتاب « الاستبصار في عجائب الأمصار » لراكشي مجهول
الاسم (وان كان يظن أنه أبو الفضل جعفر بن محمد بن علي بن
طاهر بن تميم المعروف بابن محشرة ٥٤١ - ٥٩٨ هـ / ١١٤٦ - ١٢٠١ م) . وهو الكتاب الذي جمع مشاهدات صاحبه أثناء
مروره بمصر في طريقه لأداء فريضة الحج . وقد قام الدكتور
سعد زغلول عبد الحميد على نشر أحد أجزاء هذا الكتاب الخاص
بوصف مكة والمدينة المنورة ومصر وبلاد المغرب (مطبوعات
جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٨ م) .

ومن الكتب الجغرافية التي لا غنى عنها لدارسي تاريخ مصر
والمغرب خلال العصور الإسلامية ، كتاب الشريف الإدريسي
(المتوفى سنة ٥٦٤ هـ / ٦٨ - ١١٦٩ م) المسمى « نزهة المشتاق
في ذكر الأمصار والاقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » .
وهو عبارة عن موسوعة جغرافية في وصف الأرض اتبناها
الإدريسي في سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) بناء على طلب رجار الثاني
ملك صقلية . وقد عني المستشرق دي غويه بدراسة هذه
الموسوعة واستخرج منها الأجزاء الخاصة بالمغرب والسودان
ونظره والاندلس في كتاب سماه « صفة المغرب وأرض السودان
ومصر والاندلس » (مطبوعات مدينة ليدن سنة ١٨٦٤ م) .

ومن كتب الرحلات التي أفاد منها الباحث ، كتاب السفر
 أو « سفرنامه » للرحالة الفارسي الشهير ناصر خسرو (٤٨١ هـ /
 ١٠٠٨ م) الذي نقله إلى العربية الدكتور يحيى الخشاب (القاهرة
 ١٩٤٥ م) . ويمتاز هذا المؤلف بأن صاحبه ناصر خسرو كان
 شاهد عيان على الأحداث التي عاصرها بمصر وقت زيارته لها ،
 واقائه بها في ضيافة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (من سنة
 ٤٣٩ هـ إلى سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٤٧ - ١٠٥٠ م . غير أن تشييعه
 للمذهب الفاطمي جعله يبالغ كثيراً في رواياته عن مدى ثراء مصر
 الفاطمية وقوتها آنذاك .

وفي مقابل ذلك هناك العديد من الرحالة المغاربة والاندلسيين
 الذين زاروا مصر في طريقهم لاداء فريضة الحج ودونوا مشاهداتهم
 في مؤلفات حوت الكثير عن الوجود المغربي بمصر آنذاك . ومن
 اقدم وأشهر هؤلاء الرحالة ابن جبير الاندلسي الذي حج على أيام
 صلاح الدين الأيوبي (عن طريق البحر) لأول مرة ثم أتبع ذلك بحجتين ،
 زار خلالها مصر وأقام ببعض مدنها كالاسكندرية والقسطنطينية .
 ووصفها وصفا دقيقا يدل على دقة الملاحظة . وفي آخر مرة مات
 ابن جبير بالاسكندرية سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ودفن بها .

وبعد ابن جبير ، يأتي العيدي (رحلته سنة ٦٨٨ هـ /
 ١٢٨٩ م) ، وابن زبيد البستي الذي رحل إلى المشرق سنة
 ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) وسمى رحلته « ملء العين في ما جمع بطول
 البقية في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة » ، وابن بطوطة
 (بدء رحلته إلى المشرق في سنة ٧٢٥ هـ والعودة في سنة
 ٧٥٤ هـ / ١٣٢٥ - ١٣٤٩ م) ، ثم البلوي (رحلته في سنة
 ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م) وغيرهم ممن تعد مشاهداتهم أسببا لدراية
 الوجود المغربي بمصر خلال العصرين الأيوبي والملوكي .

ثانيا - المراجع :

يمكن تصنيف هذه القائمة الى مراجع ذات غائدة عامة ،
واخرى ذات أهمية خاصة :

١ - أما مراجع النوع الأول : فهي الدراسات والبحوث التي
تخصصت في تاريخ مصر والمغرب خلال الفترة موضع الدراسة .
وفي مقدمتها مؤلفات د. سيدة اسماعيل كاشف عن تاريخ مصر
الاسلامية في عصر الولاة وفي عصر الاخشيديين . وكتاب المستشرق
الفريد بتلر عن « فتح العرب لمصر » الذي ترجمه الى العربية الاستاذ
محمد فريد أبو حديد . والدراسة التي أعدتها د . حورية عبده
بسلام عن « علاقات مصر ببلاد المغرب منذ الفتح العربى حتى
انتقال الفاطميين الى مصر » . وكتابات د . عبد الله خورشيد
البرى عن « القبائل العربية في مصر خلال القرون الثلاثة الأولى
للهجرة » « القرآن وعلومه في مصر » خلال نفس الفترة .

وكذلك المؤلفات التي عالجت تاريخ الدولة الفاطمية بمصر ،
مثل كتابات د . حسن ابراهيم حسن عن « تاريخ الدولة الفاطمية
في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب » وعن « الخليفة الفاطمى
المعز لدين الله » . وكتاب الدكتور عطية مصطفى مشرفة عن « نظم
الحكم بمصر في عصر الفاطميين » . ثم مجموعة الدكتور عبد المنعم
ماجد عن « نظم الفاطميين ورسومهم في مصر » « والامام المستنصر
بالله » وكتاب « الحاكم بأمر الله الخليفة المقتدى عليه » الذى كتبه
د . ماجد ردا على كتاب الأستاذ محمد عبد الله عنان عن « الحاكم
بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » . وأيضا مؤلفات الدكتور جمال
الدين سرور التى منها « الدولة الفاطمية في مصر » و « سياسة
الفاطميين الخارجية » .

ثم مجموعة الكتب التي أنفردت لدراسة الأدب بمصر ،
والتي منها كتاب الدكتور محمد كامل حسين عن « أدب مصر
الفاطمية » وكتاب الدكتور عبد اللطيف حمزة عن « الحركة الفكرية
في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول » ، وكتاب « الأدب
العامي في مصر في العصر المملوكي » لأحمد صادق الجمال ودراسة
الأستاذ عبده اسماعيل الطهطاوي عن « اللغة العربية في مصر
من الفتح العربي حتى أواخر القرن السادس الهجري » ، ورسالة
الدكتوراه التي قدمتها د . سهام مصطفى أبو زيد عن « الدعوة
الاسماعيلية ومدى نجاحها في مصر » .

ومن مراجع هذا النوع ، ذات الفائدة العامة بالحسبة للبحث ،
تلك التي عالجت تاريخ المغرب الاسلامي ، مثل كتابات الدكتور
حسين مؤنس عن « فتح العرب للمغرب » و « فجر الاندلس » و « معالم
تاريخ المغرب والاندلس » والدكتور سعد زغلول عبد الحميد عن
« تاريخ المغرب العربي » والدكتور أحمد مختار العبادي : دراسات
في تاريخ المغرب والاندلس ومقاله عن « سياسة الفاطميين نحو
المغرب والاندلس » . والدكتور محمود على مكي في مقاله عن
« التشيع في الاندلس » . والدكتور السيد عبد العزيز سالم
« تاريخ المغرب في العصر الاسلامي » و « تاريخ المسلمين وآثارهم
في الاندلس » . والدراسة التي قام بها الدكتور محمد أحمد
عبد المولى في حلقتين عن القوى السنية في المغرب منذ الفتح العربي
حتى قيام الدولة الفاطمية ، ومن قيام الدولة الفاطمية الى قيام
الدولة الزيرية . وايضا : دراسات الدكتور محمود اسماعيل
عبد الرازق عن دولة الاغلبية وسياستهم الخارجية ، والاستاذ
صالح مصطفى منتاح عن برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى
انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر . والاستاذ محمد علي دبور
عن تاريخ المغرب الكبير في عصوره المختلفة ، والاستاذ أحمد
صغير عن مدنية المغرب العربي في التاريخ . وكتابات بغض

المستشرقين عن المغرب والاندلس ، مثل مؤلف الأستاذ آنخل جنثالث بالثيا عن « تاريخ الفكر الأندلسي » ، « وتاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين » للمؤرخ الألماني يوسف أشياخ ، « والإسلام في المغرب والاندلس » للأستاذ ليفي بروغنسسال ، و « الفن الإسلامي في إسبانيا » للأستاذ مانويل جومث مورينو .

٢ - أما الدراسات والأبحاث التي شكلت أهمية خاصة بالنسبة لهذا البحث ، ففي مقدمتها كتب الفنون بصفة عامة مثل مجموعة الدكتور زكي محمد حسن التي منها « فنون الإسلام » وكتابات الدكتور أحمد فكري عن فنون البناء والزخرفة ، مثل موسوعة مساجد القاهرة ومدارسها (بأجزائها الثلاثة) ومقاله عن العمارة في الاندلس . وكتاب « في مصر الإسلامية » الذي قام على إخراج د . زكي محمد حسن وآخرون . وموسوعة « القاهرة تاريخها ، فنونها ، آثارها » التي شارك في تأليفها د . حسن الباشا وآخرون . وكتابات الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق عن « الفنون الزخرفية في مصر قبل الفاطميين » وعن « الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والاندلس » ، وكتاب الدكتور فريد شافعي عن « العمارة الإسلامية ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها » .

وقد احتوت قائمة كتب الفنون على مقالات وبحوث غاية في الأهمية بالنسبة للبحث ، منها : مقال الأستاذ حسن عبد الوهاب عن « الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة » . والبحثان اللذان نشرهما الدكتور فريد شافعي باللغة الانجليزية بعنوان :

West Islamic Influences, on Architecture in Egypt. And
An early Fatimid mihrab in the mosque of Ibn Tulun.

ثم مجموعة أبحاث الدكتور السيد عبد العزيز سالم عن « المآذن المصرية » وعن « التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الإسلامية » ودراسته عن « العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها » وكذلك البحث الذي صدر له باللغة الإسبانية بعنوان :

De nuevo sobre la influencia de al-Andalus en el arte musulman de Egipto.

ووجه الأهمية بالنسبة لهذه المقالات والدراسيات ، أنها عالجت بتفصيل دقيق الجزء الخاص بالدور الذي لعبته المغاربة والأندلسيون بمصر في مجالات فنون البناء والزخرفة .

وهناك أيضا الدراسات المتعلقة بدور المغاربة والأندلسيين عامة — واليهود منهم بصفة خاصة — في تجارة الكارم العالمية فيما بين الشرق والغرب . وهي الدراسات التي ألقت الضوء على وجود بعض هؤلاء التجار في مصر . وأهم هذه الدراسات مجموعة أبحاث المستشرق جوايتين (Goitein S.D.) عن وثائق الجنيزة . وهي وثائق خطية كثيرة وجدت في منطقة مصر القديمة ، وعرفت لعلماء الغرب في القرن التاسع عشر ووزعت على مكتبات أوروبا . وكلمة جنيزة (Geniza) عبرية مشتقة من الكلمة الفارسية (جنك) بمعنى خزانة . وكانت هذه الوثائق — قبل اكتشافها — محفوظة في حجرة خصصت للأوراق المهمة التي ورد فيها اسم الله حتى لا يذنس . وذلك في المعبد اليهودي بالقسطنطينية ، ووجد بفض آخر من هذه الوثائق في جبانة البسبساتين القريبة من المعبد ، وأطلق على المجموعتين اسم وثائق جنيزة القاهرة . ويرجع تاريخ معظم هذه الوثائق — التي تتكون في غالبيتها من خطابات متبادلة بين اليهود وذويهم — إلى القرنين الرابع والسابع الهجريين ، وقليل منها يرجع إلى فترة متقدمة من القرن الرابع الهجري . ومن الصعوبة بمكان تقدير العدد الحقيقي لوثائق الجنيزة ذات الصلة

الوثائقية ، وان كان من المحتمل ان يبلغ عددها حوالى ١٠ آلاف وثيقة . منها حوالى ٧ آلاف وثيقة كاملة الى حد ما ، نستطيع ان نعتبرها وثائق تاريخية . وقد كتبت غالبية هذه الأوراق باللغة العربية ، ولكن بحروف عبرية . وهى تعكس لنا الحالة الاجتماعية والاقتصادية لبلدان البحر المتوسط والمشرق ، اذ تحوى خطابات وقوائم حسابات ، وموارد مالية . وضرائب متنوعة ، وايجارات دور وحوانيت ، وأثمان سلع ومتاجر مختلفة ، وسجلات قضائية وإيصالات وعقود وايجارات وزواج وطلاق ورهن وقرض ومقايضة ومشاركة ، ووصايا وهبات وعق ، ومناوى فقهية ، ووصفات علاجية طبية وسجـز وشـبعوذة . ولا يوجبـد اختلاف كبير بين وثيقة تجارية أو رسالة شخصية ، فنى رسائل التهنئة أو التعزية نجد فقرات كثيرة خاصة بأمور مالية أو أخبار عائلية أو نصائح وتعليمات متنوعة (١٩) . وقد قام الاستاذ جوايتين بدراسات كثيرة على هذه الوثائق ووضع لها مفتاحا فى كتابه :

(Atentative bibliography of Geniza Documents, Paris, 1964).

ومن هذه الأبحاث ، مقال

From the mediterranean to India

المنشور فى مجلة (Speculum) عدد ٢٩ أبريل ١٩٥٤ ، رقم ٢ جزء ١ . ومقال :

Letters and Documents on the India trade In the Medieval times

المنشور فى مجلة (I.C.) جزء ٣٧ رقم ٣ ، شهر يولية ١٩٦٣ . وكتابه Studies in Islamic History and Institutions المنشور فى لندن ١٩٦٨ ، وهو الكتاب الذى قام الدكتور عطية القوصى على

ترجمته بعنوان : « دراسات في التاريخ الاسلامى والنظم الاسلامية »
(الكويت ١٩٨٠) وكتاب

A mediterranean Society of the High Middle Ages

الذى صدر في أربعة أجزاء (نيويورك ١٩٦٧ م) .

وكذلك كتاب الأستاذ لين بول (Lane-Poole Stanley)
من قائمة العملات العربية الاثرية المحفوظة بالمكتبة الخديوية
بالقاهرة بعنوان :

(Catalogue of the Collection of Arabic Coins)

(لندن ١٨٩٧ م) . فقد حوى بعض الاشارات عن عملات عثر
عليها في مصر ، يرجع تاريخها الى سنوات ٢٠٠ هـ — ٢٠٥ هـ
(٨١٥ — ٨٢٠ م) ، وقد ضرب عليها عبارات « مصر —
المغرب » بما يدل على نشاط حركة التجارة فيما بين الاقليمين
آنذاك .

وأخيرا ، هناك بعض المقالات ذات الأهمية البالغة في معالجة
بعض جوانب البحث الذى نحن بصددده ، منها : الدراسة التى
قام بها الدكتور أحمد مختار العبادى عن « دور المغاربة في الحروب
الصليبية في المشرق العربى » وهو ما يخدم الدور المغربى في
مصور الأيوبيين والمماليك . ومقال الدكتور سعد زفلول
مبد الحميد من « الاثر المغربى والاندىسى في المجتمع السكندرى »
الذى أفاد في جوانب كثيرة من منهجيات البحث ، لاسيما فيما يتعلق
بالمراحل الزمنية الثلاث الواجب اتباعها عند دراسة الدور المغربى
في مصر على وجه العموم . هذا غير متفرقات أخرى عديدة أفادت
في القاء الضوء على الدور المغربى بمصر من جوانبه السياسية
والاقتصادية والاجتماعية . وهناك أيضا الدراسة التى قام بها

الدكتور محمد عيسى الحريري عن « بعض علماء الاندلس في مصر » التي صدرت ضمن ندوة التاريخ الاسلامى بكلية دار العلوم جامعة القاهرة (المجلد الثانى ١٩٨٢ م) . ودراسة الدكتور محمد بركات البيلى عن « مدرسة مصر الدينية وصلتها بالاندلس » ومقال « جمهورية اندلسية بالاسكندرية » للأستاذ صديق شيبوب الذى عند من اقدم الدراسات التى عالجت بعض مظاهر الوجود المغربى الاندلسى فى مصر .

الهوامش

(١) انظر في ذلك : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق تشارلس س . نوري ، مطبعة بريل ، لندن ١٩٢٠ م ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ وملاحظة رقم ١٨ للمحقق .

(٢) الكندي : ولاية مصر ، تحقيق د . حسين نصار ، بيروت ١٩٥٩ م ، ص ١٥٣ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٨٣ . وسيل تفصيل ذلك في موضعه .

(٤) انظر في ذلك : مقدمة تحقيق « تاريخ البطارقة » للأنبا ساويرس ، اعداد وتعليق الراهب صموئيل السرياني ، مطبوعات معهد الدراسات القبطية بمصر سنة ١٩٨٤ ، ص ٤ .

(٥) د . سيدة اسماعيل كاشف : تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية لساويرس ابن المقفع وأهميته لدراسة التاريخ القومي ، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد التاسع والعاشر ، سنة ١٩٦٠ - ١٩٦١ ، صفحة ١٠ وما بعدها .

(٦) ساويرس : تاريخ البطارقة (تحقيق صموئيل السرياني) ، ص ٢١٢ وما بعدها .

(٧) المصدر نفسه : ص ٢٥٣ . وراجع : د . سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٨) انظر في ذلك آخر كتاب اخبار مصر لابن ميسر ، حيث توقيع المقريري بما يفيد انه هو الذي نسخ الكتاب .

(٩) راجع الدراسة الببليوجرافية القيمة عن هذا الكتاب ، عند : دكتور السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ، مؤسسة شباب

الجامعة بالإسكندرية ، سنة ١٩٨٢ ، ص ١٤ - ١٧ ، ودكتور محمد أحمد عبد المولى :
القوى السننية في المغرب من قيام الدولة الفاطمية الى قيام الدولة الزييرية ، جزآن ،
ط ١ ، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية ١٩٨٥ ، ج ١ ، ص ٢٤ - ٣١ .

(١٠) انظر في ذلك : ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ تحقيق ليفي بروفنسال
وجورج كولان طبعة ٢ ، دار الثقافة بيروت ، سنة ١٩٨٠ ، صفحة ٢٣٨ .

(١١) المصدر نفسه والجزء : ص ٣١٢ - ٣١٣ .

(١٢) د . محمد عبد المولى : القوى السننية ، ج ١ ، ص ٤٧ - ٤٨ .

(١٣) المرجع نفسه والجزء ، ص ٤٥ ، وانظر هامش رقم (٣) الموجود
بصفحة ٤٥ - ٤٦ حيث نماذج لهذه التراجم التي خلا منها الكتاب المطبوع .

(١٤) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة ، تحقيق ابراهيم الأبياري ، دار الكتاب
المصري ، دار الكتاب اللبناني ، سنة ١٩٨١ ، ص ١٢٩ - ١٣١ .

(١٥) انظر في ذلك : ابن الزيات : الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة ،
مكتبة المثنى ببغداد (د . ت . د) ، ص ٢٣٨ - ٢٤٠ .

(١٦) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين
عبد الحميد ، أربعة أجزاء ، الطبعة الرابعة ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ،
سنة ١٩٦٤ ، ج ٢ ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(١٧) انظر في ذلك : المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق
دي غويه ، مطبعة بريل بليدن ، سنة ١٩٠٦ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(١٨) راجع : البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشر الباديون
دي سلان الجزائر سنة ١٨٥٧ م ، ص ١٤ - ١٥ .

(١٩) عن ذلك راجع : د . عطية القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر منذ
فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٦ ،
ص ١٤ - ١٥ هامش رقم (١) ، ود . حسنين محمد ربيع : وثائق الجليزة وأهميتها
لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى ، مقال في
موسوعة دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، إكتاب الأول « مصادر تاريخ الجزيرة
العربية » ، الجزء الثاني ، الرياض ١٩٧٩ ، ص ١٣٦ - ١٤٤ .

« المدخل »

الوجود المغربى فى مصر واسبابه

أولا : التعريف بالمغرب :

— أقسامه

— سكانه

ثانيا : ماهية الوجود المغربى فى مصر

ثالثا : أسباب الوجود المغربى فى مصر

رابعا : تاريخ الوجود المغربى فى مصر :

— قبل الفتح الإسلامى

— مراحل الزمنية

أولاً - التعريف بالمغرب :

يطلق لفظ المغرب في العصر الاسلامي على الجناح الغربي لدولة الاسلام بالمقابلة بالمشرق . ويشمل كل ما يلي مصر غربا ، حتى المحيط الاطلسي . وتنظمه اربعة اقسام سياسية ، هي برقة وطرابلس ، ثم المغرب الأدنى أو افريقية ، ثم المغرب الأوسط ، فالمغرب الأقصى . ويتمثل هذا التقسيم حاليا في دول : ليبيا ، وتونس ، والجزائر ، والمملكة المغربية ، وموريتانيا .

ويتسع مدلول لفظ المغرب عند كتاب المسلمين ليشمل كذلك الاندلس (أسبانيا والبرتغال حاليا) ، قبل انفصاله عن حكم الاسلام . وقد يتسع أيضا ليشمل صقلية (في جنوب إيطاليا) وكل بقعة حل بها المسلمون في أوروبا الغربية ، فهناك المغرب الإفريقي ، وهناك المغرب الاندلسي . ولهذا ، فإن كلمة مغرب ، أو مغاربة تعني أيضا الاندلس وأهله (١) .

وبالنسبة لاقليمي برقة وطرابلس ، فقد كان كل منهما منفصل سياسيا عن الآخر ، اذ كانت برقة تابعة لمصر ، أما طرابلس فكانت أحيانا تدخل في نطاق المغرب الأدنى وأحيانا أخرى مستقلة . وأما المغرب الأدنى (أو افريقية) ، فكانت قاعدته مدينة القيروان ، وسمى أدنى لقريه من بلاد العرب ودار الخلافة بالحجاز والشام . وكان يمتد من طرابلس شرقا حتى بجاية أو تاهرت غربا . وقاعدة المغرب الأوسط تلمسان ، ويمتد من تاهرت حتى وادي ملوية وجبال تازا غربا . وكان المغرب الأقصى يمتد من وادي ملوية

وجبال تازا شرقا الى البحر المحيط (المحيط الأطلسي) غربا ،
ومن البحر الرومي (المتوسط) شمالا الى جبال درن جنوبا .
وقاعدته مدينة فاس ثم مراكش . وقد سمي أقصى لأنه أبعد
الأقسام السياسية للمغرب الأفريقي عن دار الخلافة . أما
الاندلس ، فيضم أجزاء كبيرة من شسبه جزيرة إيبيريا والجزر
الشرقية المواجهة لها والمعروفة حاليا بجزر البليار ، وهي :
ميورقة ، ومنورقة ، ويايسة (٢) .

هذا الاتجاه في مهم مدلول لفظ المغرب ، اتجاه قديم عند
الجغرافيين المسلمين . ففي القرن الرابع الهجري (١٠ م) نجد ابن
حوقل يجعل حدود المغرب من مصر الى طنجة (٣) . والمقدسي
يجعلها من مصر الى السوس الأقصى وجزيرة صقلية والاندلس (٤) .
والغالب أن السبب في جعل مصر من المغرب ، هو أن المغرب —
إبان فترة الفتح — كان تابعا لوالى مصر . كما كانت الاندلس تابعة
لوالى مصر فى عصر الولاة . وبالمثل ، فإن سبب إضافة صقلية
الى المغرب هو فتحها أيام الأغالبة أوائل القرن الثالث الهجري
(٩ م) وتبعيتها لولايتهم ثم لولاية الفاطميين من بعدهم (٥) .

وقد استمر رأى المقدسى ، هو المعمول به حتى زمن ابن
سعيد الاندلسى فى القرن السابع الهجرى (١٣ م) الذى كان يرى
أن مصر من المغرب (٦) . وفى القرن الثامن الهجرى وأوائل تاليه
(٩ هـ / ١٥ م) سسلخ ابن خلدون مصر وبرقة والاندلس وصقلية ،
من المغرب . بعد أن سقطت صقلية فى أيدي النورمان (٤٨٣ هـ /
١٠٩٠ م) ، وأذنت لشمس الاسلام فى الاندلس بمغيب . وذكر أن
العرف الجارى — فى زمنه — بالنسبة لمفهوم المغرب « لا يدخل
فيه مصر ولا برقة وإنما يختص بطرابلس وما وراءها الى جهة
المغرب » (٧) .

وقبل قدوم العرب الى المغرب ، كان سكانه ينقسمون الى ثلاث طوائف ، هي : الروم البيزنطيون ، والآفارق أو الأفارقة (وهم أخلاط المستعمرين القدامى من أغريق وفينيقيين ورومان وبندال ، مع من دخل في خدمتهم من أهل البلاد الأصليين) ، والبربر سكان البلاد الوطنيون (٨) .

أما البربر ، فقد عرفهم العرب بهذا الاسم من خلال الروم البيزنطيين غير أنهم لم يقصدوا المعنى الجارح لهذه التسمية ، والذي يعنى الشعوب الجاهلية أو الهمجية ، على اعتبار أنهم خارجون عن نطاق الحضارة الرومانية . ولكن قصدوا المعنى الآخر الذى يمجّد مقاومة أهل المغرب للحكم الرومانى وعدم انصياعهم للحضارة الرومانية (٩) . وبعبارة عن اختلاف النسابة والمؤرخين فى تحديد أصول البربر ، يمكن القول بأنهم - « أمة عظيمة قد ملأت ما بين برقة والبحر المحيط (الأطلسى) شرقا وغربا ، وما بين بلاد السودان والبحر الرومى (المتوسط) جنوبا وشمالا » (١٠) .

ويفترق البربر - اجتماعيا - الى مجموعتين : بربر البرانس (نسبة الى برفس بن بر) وهم سكان المدر أو الحضر ، والبربر البتر (نسبة الى مادفيس الأبترا) وهم سكان الوبر أو البادية .

(١) ويضم البربر البرانس عشر قبائل ، وهى أوربسة ، وصنهاجة ، وكتامة ، ومصودة ، وعجيسة ، وأوريفة ، وازداجة ، ولطة ، وهسكورة ، وجزولة (كزولة) . وتنقسم هذه الأصول الكبيرة الى فروع صغيرة ، فمن صنهاجة : بلكانة ، ما بين المغرب الأوسط وأفريقية وهم أهل مدر ، ولتونة ، ومسوفة ، وجدالة (كدالة) بالصحراء وهم أهل وير . وإلى بلكانة ينتسب بنوزيرى ، وإلى لتونة ينتسب المثلثون (المرابطون) . ومن كتامة : التى

امتدت ديارها من حدود جبل أوراس جنوبا الى ساحل البحر ما بين
بجانة وبونة (عناية حاليا) شمالا : ملوسة ، واجانة ، وغشمان
(غشمان) ، ولطاية (اطاية او لطانة) ، ومسالتة ، ولهيصنة ،
وجميلة (جميلة) . ومن أفخاذها المشهورة : بنوسكتان ، وملوسة ،
ودنهاجة (ديهاجة) ، ومعاذ . ومن مصمودة : غمارة في منطقة
الريف ، وبرغواطية في منطقة تامسنا ، ودكالة جنوبى وادى ام
الربيع ، وجراجة على وادى تنسيفت ، واهل جبل درن اصحاب
الموحدين وهم : هنتانة ، وتينمل ، وهرغة ، وكثيصة ، وكدميوه ،
وهزوجة ، ووريكة ايلان (ويقال لها ايضا هيلانة) وهزميرة ،
وغيرهم . ومن اوريقة : هواره .

(ب) ويضم البربر البتر اربع قبائل ، هي : ضريسة
(ضرى) ، ونفوسنة ، واداسة ، وبنولوای (لواتة) . وتنقسم
هذه الأصول الكبيرة أيضا الى فروع صغيرة : فمن ضريسة :
مكناسة ، وزناتة ، وزواوة ، وتمزيت . ومن مكناسة : بنو مدرار ،
وبنو أبى العافية . ومن زناتة : جراوة ، ومغراوة ، وبنو يفرن ، وبنو
مدين . ومن بطون زناتة كذلك : بنو وطاس ، وبنو زيان ، وكومية .
ومن تمزيت : مطماطة ، ومطفرة (مدغرة ، ومضفرة أيضا) ،
وصدينة ، ومفيلة ، وملزوزة ، ومديونة . ومن لواتة : مزاتة ،
وسدراتة ، ونفزاو (نفزة) . ومن نفزاو : سماتة (تكتب سوماتة ،
وسماطة) ، وورغجومة .

وقد انتشرت هذه القبائل البترية فى السهول المرتفعة
والمنخفضة وعلى الهضاب الممتدة من طرابلس الى تازا . كما
سكنت فى أقاليم النخيل الممتدة من غدامس الى السوس الأقصى ،
وكان أفرادها يؤلفون أغلبية سكان القرى الصحراوية . وكذلك
توجد بطون بترية فى أقاليم التل قرب طرابلس ، وفى داخل سهول
افريقية ، وعلى سفوح جبل أوراس . لقبيلة نفوسه كانت تنزل

بجبل نفوسة الواقع جنوب طرابلس ، ونزلت مطماطة في اقليم الجريد
بتونس ، وزنانة في المغرب الأوسط وعلى سفوح أوراس (١١) .

وقد عاش سكان الأندلس - قبل الفتح - في شكل
طبقات ثلاثة هي : الطبقة العليا المكونة من الملك والنبلاء وهم من
القوط الغربيين الذين هاجروا الى شبه الجزيرة في القرن الخامس
الميلادي . ومن انضم اليهم من النبلاء الرومان . والطبقة الدنيا
وهي خليط من السكان القدامى لشبه الجزيرة الأيبيرية من الكلت ،
والأيبيريين ، والفينيقيين الذين كانوا يؤلفون السواد الأعظم من
الشعب الأسباني آنذاك . الى جانب طبقة رجال الدين والتجار
والزراع وصغار الملاك الذين كانوا يمثلون الطبقة الوسطى في
المجتمع الأسباني قبل الفتح الإسلامي . وقد أقام اليهود في
شكل طبقة كبيرة العدد وسيطر أفرادها على الاقتصاد الأسباني
قبل الفتح (١٢) .

ونتج عن دخول المسلمين العرب للمغرب والأندلس أن
تغيرت الخريطة الثقافية والاجتماعية للمنطقة ، بمعنى أن تلك البلاد
قد اصطفت بالصيغة الإسلامية العربية . وقد أوجز الدكتور
مؤنس في وصف تلك النقلة ، فقال : « ان الكثير من سكان
المنطقة قد أسلموا وانضموا الى جيوش الاسلام وأصبحت لهم
بذلك كل حقوق العرب المجاهدين في سبيل الاسلام . وانتقلت
الى المغرب جماعات من العرب ، واستقرت في نواحيها واختلطت
بأهلها وصاهرتها . وبذات تظهر أجيال مسلمة من المستعربين
(أو المولدين) ، تتطلع الى أن يكون لها نصيب في إدارة البلاد .
ثم ان العرب شرعوا في اتخاذ قواعد اسلامية في المناطق التي
فُتحوها ، تحولت فيما بعد الى مراكز اشباع اسلامي (مثل
القيروان وقرطبة) وقامت في مساجدها حلقات الدراسات
الاسلامية ، وبدأ الجو الثقافي العام في البلاد يتغير بتأثير الاسلام

والعربية . وقد كانت هذه القواعد الاسلامية بتنظيماتها المدنية والاجتماعية الجديدة نقطة بداية لتغير عام في اوضاع المدن المغربية كلها . فهذه البلاد لم تعرف قبل العرب الا المدن الاغريقية والرومانية والقرى البربرية التي تتكدس فيها المباني . ولما جاء العرب بهذا الطراز الجديد من المدن الاسلامية ، اخذت الكثير من قرى المغرب تتحول الى مدن اسلامية ذات جاليات عربية وجماعات اسلامية ، ومساجد ومكاتب لتدريس العربية ونشر قواعد الاسلام « (١٣) » .

وكانت النتيجة ان ظهرت اجيال من العرب البلديين من نسل الفاتحين اثرت بغير شك في سكان هذه البلاد وتأثرت بهم ، حتى ان قبائل البربر - على سبيل المثال - « نسوا رطانة الأعاجم ، وتكلموا بلغات (كذا بالنص) العرب ، وتحلوا بشعارهم في جميع احوالهم » (١٤) .

ثانياً - ماهية الوجود المغربي في مصر :

نمى بالوجود المغربي في مصر ، كل من قدر له ان يوجد في مصر - خلال الفترة موضع الدراسة - من سكان المغرب الاسلامي بوحداته السياسية المعروفة آنذاك . وهؤلاء قد انتظمتم تيارات ثلاث ، سبق بعضها بعضا في الظهور بمصر ، وطفى بعضها على بعض ثم عاد الى انحساره مرة اخرى .

وتتمثل هذه التيارات فيما يعرف بجماعات المغاربة المستقرين في نواحي غرب مصر (في البحيرة وبرقة والواحات) ، وجهبوع المغاربة المصاحبين للوجود الفاطمي بمصر من غروع قبائل البربر المختلفة ، واخيراً جماعات الحجاج والدارسين واصحاب الحرف المغاربة والاندلسيين ، الذين استمروا في الوفود الى مصر طوال العصور الوسطى الاسلامية وحتى يومنا هذا .

١ - المفاربة المستقرون في نواحي غرب مصر :

وهم من فروع لواتة وهوارة وزناتة ونفوسة الذين كانت لهم الغلبة العددية في منطقة الحدود الغربية لمصر مع ليبيا ، سنواء في برقة وعلى طول الساحل الشمالى الغربى لمصر حتى أرض البحيرة ، أم فى الواحات . وبباعد على ذلك تداخل الحدود فيما بين أراضي المنطقة التى امتدت بشكل طبيعى دونها فواصل أو عقبات . ولا ننسى أن أرض برقة كانت تعد امتدادا جيويا لدير مصر ، وغدا فتحها - هى وطرابلس - على يد عمرو بن العاص من الأعمال المتممة للفتح الاسلامى فى مصر (١٥) .

— فى إقليم برقة وحتى مدينة تاورغة — آخر حد برقة غربا — استقرت قبيلة لواتة البقرية بأعداد كبيرة جعلت من هذه المنطقة فعلا ، « أول المغرب » . رغم تبعيتها الادارية لمصر (١٦) . وإلى جانب فروع لواتة عاشت فروع أخرى من قبيلة هوارة ، مثل بنى خطاب ملوك زويلة — احدى ضواحي برقة — ومن قبيلة نفوسة التى استقرت بعض بطونها فى مدينة صغيرة « كانت هناك قبل الفتح » (١٧) .

— وقد انتشرت كذلك فروع قبيلة لواتة على طول الساحل الشمالى الغربى لمصر حتى مشارف الاسكندرية : فحول مدينة الحنية نزل « قوم من مزاتة ولواتة » (١٨) . وفى المنطقة المعروفة بخرائب القوم استقر من « قبائل لواتة نحو ألف بيت » (١٩) . وفى كورنى لوبية ومراقية — اللتين كانتا تشغلان القسم الشرقى لإقليم برقة — استقرت فروع لواتة من « مزاتة ، وماصلة ، وزنارة ومصعوبة ، ومراوة ، ومنطيطة ، ومفرطة ، وزكودة » (٢٠) .

— ولعلها كذلك كانت من فروع لواته ، تلك التجمعات البربرية التي استقرت في ناحية البحيرة خلال القرن الثالث الهجرى (ق ٩ م) ، واكد الكندى أنها كانت لها الغلبة العددية بين سكان تلك الناحية آنذاك (٢١) .

— أما في الواحات فقد اشار ابن حوقل صراحة الى انها كانت « مذ أول ما فتحها المسلمون في أيدي آل عبدون ، ومرجمهم الى حى من لواتة قبيل من البربر ملوك هذه الناحية » (٢٢) . وقد تعدى نفوذ هذه القبيلة كل التقسيمات الادارية لاقليم الواحات ، مثل الواحة الداخلة ، والواحة الخارجة وواحة الفرغرون (الفرازة حاليا) ، وبهنسة الواح — وهى غير مدينة البهنسة بصعيد مصر — وواحة سبترية (سيوة حاليا) (٢٣) .

٢ — جموع المغاربة المصاحبين للوجود الفاطمى في مصر :

كان للفاطميين اثر لا ينكر في هجرة أعداد كثيرة من قبائل البربر الى مصر . ذلك أنهم اعتمدوا في تأسيس دولتهم بالمغرب على هؤلاء البربر ، وبخاصة كتامة البرانسية . فكان من الطبيعي أن تنتقل جموع منهم الى مصر بانتقال الفاطميين اليها . وهؤلاء كانوا من الكثرة بحيث شكلوا مجتمعا جديدا حظى افراده بكافة الامتيازات التى اهلتهم للعب الدور الاول على مسرح الاحداث خلال فترات طويلة من عمر الخلافة الفاطمية بمصر .

٣ — جماعات الحجاج والدارسين ، واصحاب الحرف المغاربة والأندلسيين :

وهؤلاء يعزى وجودهم في مصر الاسلامية الى نجاح الفاتحين من المسلمين الغرب في الامتزاج بسكان المغرب والأندلس وتعريبهم ثقافيا ، أو ما عرف بالفتح الحضارى لنواحي المغرب

والاندلس . وهم كانوا من الكثرة بحيث يصعب حصرهم وكذا
أماكن استقرارهم بمصر . ويكفى القول بأن جميع مدن مصر وقراها
كانت تشهد - في جميع الأوقات - واحدا أو أكثر من هؤلاء الوافدين
الذين شاركوا أيضا في شتى مناحى الحياة بمصر .

ثالثا - أسباب الوجود المغربى فى مصر :

١ - أسباب جغرافية :

تتمثل فى وحدة امتداد صحراء مصر الغربية مع الأراضى
الليبية دونما فواصل أو عقبات ، والتي كانت سببا فى تداخل
مناطق سكنى فروع لواتة وهوارة وزنانة ونفوسة هنا وهناك .
وذلك « منذ أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها » حسب تعبير ابن
خلدون (٢٤) .

٢ - أسباب سياسية :

اذ نتج عن اضطراب الأوضاع السياسية فى المغرب الاسلامى
ان شهدت مصر هجرات فردية او جماعية على حد سواء من المغرب
او الاندلس :

- فكان استيلاء البحريين الاندلسيين على مدينة الاسكندرية
(٢٠٠ - ٢١٢ هـ / ٨١٥ - ٨٢٧ م) حلقة من حلقات الصراع
البحرى من أجل السيطرة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط
بين البحرية الاندلسية الناشئة وبين البحرية البيزنطية (٢٥) .

- ولجأ الأمير زيادة الله الثالث ، آخر حكام الأغلبة فى
افريقية ، الى مصر ببقايا جنده سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) ، فرارا من
زحف الفاطميين على القيروان ، عاصمة الدولة الاغلبية (٢٦) .

— وصحب ائتقال الفاطميين الى مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) نزوح أعداد كبيرة من البربر — الذين كانوا يمثلون جيش الفتح الفاطمي — الى مصر واستقرارهم فيها .

— كذلك لجأ الى مصر كل من الحسن بن كنون — آخر حكام الادارسة بالمغرب الأقصى (٢٧) — ويحيى بن على بن حمدون الأندلسي (٢٨) ، يدفع كل منهما دوافع خاصة .

— ومع اشتداد حركة الاسترداد المسيحي لأراضي الأندلس الإسلامية — عقب سقوط مدينة طليطلة الإسلامية سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) — ازداد وفود الأندلسيين الى مصر التي كانت مركزا لحركة الجهاد العام ضد الصليبيين في المشرق زمن الدولة الأيوبية ، ثم المملوكية (٢٩) .

٣ — أسباب ثقافية :

نتج عن اقبال البربر وسكان الأندلس على اعتناق الاسلام أن ازدادت رغبتهم في التعرف على تعاليم هذا الدين ، خاصة ان المصادر التي كانوا يستقون منها تعاليم الاسلام لم تعد كافية . وقد تمثلت هذه المصادر في جيل التابعين من العرب المصاحبيين لجيش الفتح ، والذين استقروا في تلك البلاد ، وجماعات العلماء الذين أوفدتهم الحكومة الأموية الى المغرب لتعليم البربر أصول الدين الاسلامي ، فضلا عن سياسة الولاة الخاصة بإنشاء المساجد في أنحاء البلاد . وقد ظهر الخطر حينما اضطر الراغبون في الاسلام من اهل المغرب الى اللجوء الى العرب المستقرين في افريقية أو الوافدين اليها للاقامة فيها أو العبور الى الأندلس . ذلك ان الكثير من هؤلاء العرب كانوا من خصوم البيت الأموي الذين أسخطتهم سياسته ، أو انهزموا أمامه في الحروب الكثيرة التي دارت

بين الأمويين وخصومهم من الخوارج والشيعة أو من المنهزمين في حروب العصبية . إذ اغتنم هؤلاء الفرصة في توجيه من التف حولهم من أهل المغرب الوجهة السياسية التي أرادوا . فجعلوا يبنون في نفوس من اجتمع اليهم — من البربر خاصة — بذور الخلاف والخروج على الدولة ، ويلقنونه عقائد الشيعة المتطرفة والخارجية الثائرة . وكانت النتيجة ان أخذ الاسلام في بعض نواحي المغرب يجرى في اتجاهات خطيرة كانت تخرجه عن أن يكون اسلاماً (٣٠) .

لم يعد كافياً — اذا — الاعتماد على تلك المصادر ، فكانت الرحلة الى المشرق حيث كانت أصول الاسلام الصحيحة تدرس في مكة والمدينة المنورة ، وفي نواحي العراق والشام ومصر ، على ايدى بقية الصحابة ونفر من فقهاء التابعين . فضلاً عن ثمرة تلك الرحلة ، وهي اداء فريضة الحج لتكتمل بذلك أركان الاسلام بالنسبة لهم . وصار من المعتاد لسكان المغرب الاسلامي أن تكون لهم تلك الرحلة الى المشرق حيث كانوا يهرون على مصر في طريق الذهاب والعودة .

وثمة عوامل ساعدت على استمرار هذه الرحلة العلمية : فالى جانب أنها كانت وسيلة لتعلم الدين الصحيح وتجنب الزيغ ، واداء فريضة الحج ، فقد كانت بمثابة عملية تعبدية يقوم بها الناس احتساباً لوجه الله تعالى والتماس المغفرة منه على ما ارتكبوه من معاص وآثام (٣١) . هذا فضلاً عن أن هؤلاء المرتحلين كانوا محل حفاوة وترحاب أينما ساروا ، مما كان فيه الفناء عن متاعب الرحلة . ولهذا وجه ابن جبير نداه الى بنى وطنه بالجد في طلب الرحلة ، قائلاً : « .. فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل الى هذه البلاد ، ويتغرب في طلب العلم ، فيجد الأمور المعينسات

كثيرة . فأولها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الاعوان
وأهمها « (٣٢) » .

ومن الملاحظ ان تمسك المغاربة والاندلسيين بالرحلة الى
المشرق كان شديدا ، حتى صارت قاعدة بالنسبة لهم ، يقضح
ذلك من كتب الطبقات والتراجم التي انفردت برصد تلك الرحلة .
والذي يشذ من هذه القاعدة تشير اليه تلك المصادر ، فيها يشبه
الاستهجان ، بأنه « لم تكن له رحلة » . وليس ادل على ذلك من
اتهام ابن جبير للمخالفين لندائه بالتقصير والعجز ، وذلك في قوله :
« ولا عذر للمقصر الا من يدين بالعجز والتسوية ، بذلك من
لا يتوجه هذا الخطاب عليه » (٣٣) .

٤ - اسباب اقتصادية :

نتج من اختلاف الموارد الاقتصادية في كل من مصر وبلاد
المغرب ان قامت حركة تبادل تجارى بين شعوب المنطقة . وساعد
على ذلك وقوع المنطقة على طريق التجارة العالمية بين الشرق
والغرب ، الأمر الذى أدى الى وفود أعداد كبيرة من أهل المغرب
والاندلس الى مصر للمشاركة في حركة التجارة تلك .

— كما كان من الطبيعى أن يمارس المغاربة والاندلسيون
المرتحلون الى المشرق للحج والاستزادة في علوم الشرع الاسلامى ،
بعض الحرف للحصول على زاد الطريق . ووضح هذا من انتساب
العديد منهم - البصوفية والزهاد وأهل الورع والدين منهم بصفة
خاصة - الى الحرف التي مارسوها حتى يتجنبوا السلطة
ولا يغلّبوا على حكم من احكام الله ان صاروا عمالا للدولة . ومن
هذه الحرف : النعال ، والبزاز ، والحبال ، والحداد ، والفخار ،
وغیرها مما سيلي الإشارة اليه في حينه .

— كذلك حتمت ظروف البيئة الصحراوية على أهل البداوة من بربر لواتة وهوارة وزناتة ونفوسة — سكان الصحراء الغربية — أن ينتقلوا خلال مواسم الجفاف الى منتجعات مصر الغنية في الوادي والدلتا ، حيث كانوا يحملون معهم منتجات بيثتهم ، مثل : ملح الشب ، والملبوسات ، والماكولات وغيرها .

رابعاً : تاريخ الوجود المغربى :

انفتح المغاربة على مصر منذ فترات تاريخية موغلة في القدم . وعرفهم المصريون القدماء باسم الليبو الذين سكنوا منطقة ليبيا الحالية ، وطغى نفوذهم على اراضى الصحراء الغربية في مصر (٣٤) . وقد كثرت الاشارات عن ارتباط شعب الليبو هذا — بقبائنه المختلفة — بالمصريين القدماء من خلال علاقات عديدة بدت عدائية في معظم حالاتها . وتغلغلوا خلالها فى عمق الأرض المصرية حتى الدلتا ومصر الوسطى . وصار من المعتاد أن يستخدم حكام مصر من الفراعنة عناصر منهم للخدمة فى الجيش المصرى كمرتزقة ، مع السماح لهم بالعديد من الامتيازات . ووصل الأمر ذروته حينما قدر لبعض هذه العناصر أن تستولى على الحكم فى مصر ، ابان فترات الضعف . فأسسوا ما عرف فى تاريخ مصر الفرعونية بالاسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين ، اللتين حكمتا مصر قرابة قرنين من الزمان (٣٥) .

ولعل وقوع كل من مصر والمغرب على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، كان من أسباب استمرار سكان المغرب فى الاتصال بمصر خلال العصور التالية ، كجزء من مشاركتهم فى حركة التجارة تلك (٣٦) .

كما ان الأحداث السياسية التى شهدتها المنطقة قبل مجيء العرب ، كان لها بعض الأثر فى دعم الوجود المغربى فى مصر .

من ذلك ما ذكر عن تسخير حاكم ولاية افريقية البيزنطى — المدعو هرقل — لأحد قاداته — ويدعى نيكيتاس — على رأس جيش من بربر شمال افريقية الى مصر للاستيلاء عليها ، كى يستخدمها ورقة رابحة تساعد فى ثورته على الامبراطور البيزنطى قواكس (٦٠٢ م — ٦٠٩ م) . وقد نجح هذا القائد فى الاستيلاء على مدينة الاسكندرية ، وذلك فيما بين سنتى ٦٠٨ و ٦٠٩ م (٣٧) .

أما فى خلال العصر الاسلامى ، فيمكن القول بأن الوجود المغربى فى مصر — بتياراته الثلاثة — وما نتج عنه من تأثيرات شتى فى مختلف نواحي الحياة بمصر ، قد مر بثلاث مراحل زمنية (٣٨) :

الأولى : تشمل القرون الثلاثة الأولى من الفتح الاسلامى حتى سقوط مصر فى أيدي الفاطميين سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) :

وقد اتسم الوجود المغربى خلالها بالمبطء فى تأثيراته لطفيان التأثير المشرقى الاسلامى العربى ، الذى كان تياره الحضارى يسير تجاه المغرب والاندلس . وبعبارة أخرى ، كان المغرب الاسلامى آنذاك فى مرحلة اعادة صياغته حضاريا على أيدي العرب المسلمين .

وانعكس هذا على جماعات المغاربة من بربر لواتة وهوارة وزناتة ونفوسة المستقرين فى صحراء مصر الغربية الذين عاشوا حياتهم الخاصة ، غير مبالين للاشتراك فى الأحداث التى سادت العاصمة . وكذلك على جماعات الحجاج والدارسين المغاربة والاندلسيين الذين تأخر وفودهم الى مصر الى قرب انتصاف القرن الثانى الهجرى (ق ٨ م) .

ومن معالم هذه الفترة كذلك ان الفاطميين — بعد اقامة دولتهم بالمغرب في سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) — قد سعوا ليمسك سيطرتهم على مصر ، وذلك من خلال اعوانهم الذين انتشروا في انحاء البلاد منذ مطلع القرن الرابع الهجرى (ق ١٠ م) . كما ان الصراع الدائر بين الفاطميين — بالمغرب — والامويين — بالاندلس — قد انتقلت زحاما الى مصر ، بعد ان سعى الامويون — من خلال وافيديهم الاندلسيين — في القيام بدعايات مضادة لدعايات الفاطميين الشيعة .

الثانية : وتشمل الوجود الفاطمى في مصر حتى يسقط دولتهم في سنة ٥٧٦ هـ (١١٧١ م) :

وتمثل هذه الفترة ذروة الوجود المغربى في مصر ، ذلك ان الفاطميين عملوا من ناحيتهم على اعلاء شان المغاربة اعوانهم على حساب الطوائف الاخرى . ومن ناحية اخرى فان الهجرات البربرية الجديدة التى شهدتها صحراء مصر الغربية — خلال هذه الفترة — قد دفعت بالعناصر اللواتية القديمة للتحرك صوب الشرق ، حيث سكنت ارض الدلتا ومصر الوسطى . الامر الذى عد تدعيما للوجود المغربى في عمق الديار المصرية .

كذلك فان التطور الحضارى الذى انتاب المغرب الاسلامى — آنذاك — قد انعكس على جماعات الوافدين الى مصر من الحجاج والدارسين المغاربة والاندلسيين الذين ازداد انتاجهم الادبى والمادى ، وهو ما عبر عنه دكتور سعد زغلول بقوله : « فكان من الطبيعى ان يكون مسار التيار الحضارى متوازيا مع مسار التيار السينسى الفاطمى من المغرب الى المشرق » وذلك كنتيجة طبيعية لان «عواصم المغرب والاندلس قد اشتدت سواعدها حضاريا وسياسيا ، في القيروان ، وقرطبة ، واشبيلية ، وفاس » (٣٩) .

الثالثة : وتشمل القرون الثلاثة الأخيرة والنصف قرن التي تعادل دولتي الأيوبيين والمماليك :

ومن أبرز معالم هذه الفترة ، ذلك التيار الحضارى « الذى حمله المهاجرون الأندلسيون - الذين اضطروا الى الجلاء عن ديارهم أمام عنف الهجوم الأسباني - وغمروا به سواحل المغرب وبعض دواخله من مراكش الى تونس ، ووصلوا به الى مصر وشواطئ الاسكندرية » (٤٠) .

ويبدو لنا ان ذلك المد كان بمثابة التعويض عن انحسار الدور المغربى لجماعات الموالين للفاطميين ، والذى اقترن بسقوط الخلافة الفاطمية فى مصر . بينما استمر التغلغل الاجتماعى لبربر المنطقة الغربية فى عمق ديار مصر ، بتأثير الهجرات البربرية الجديدة التى شهدتها المنطقة خلال هذه الفترة كذلك (٤١) . مما أدى الى صبغها تماما بصبغة مغربية متعربية ، لايزال اثرها ملحوظا حتى يومنا هذا .

والخلاصة ، اننا عند دراستنا للدور المغربى فى مصر خلال عصورها الاسلامية ، فعلىنا أن نراعى تيارته الثلاث والتفاعل الذى حدث فيما بينها خلال المراحل الزمنية سابقة الذكر . وسنقتصر فى دراستنا - هذه - على معالجة الدور المغربى فى مصر الاسلامية خلال المرحلتين الأوليين ، على اعتبار انهما تشكلان معا مرحلة طبيعية واحدة . على أن تتم معالجة الفترة الأخيرة فى دراسة أخرى قائمة بذاتها .

الهوامش

(١) انظر في ذلك : د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي .
جزآن ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، سنة ١٩٧٩ ، ج ١ ، ص ٦١ - ٦٣ ،
ود. ختميل مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ط ١ ، دار ومطابع المستقبل ،
القاهرة ١٩٨٠ ، ص ١٩ - ٢٣ ، ود. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب
في العصر الاسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٨٢ ، ص ٤٠ - ٤١ ،
ود. أحمد مختار العبادي : - في تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة
الاسكندرية (د . ت .) ، ص ١١ - ١٢ ، ود. محمد أحمد عبد المولى : القوى
السنية في المغرب من الفتح حتى قيام الدولة الفاطمية ، رسالة ماجستير ، كلية
الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٧٧ ، ص ١ - ٢ هامش رقم ١ .

(٢) ابن خلدون : كتاب الصر وديوان المبتدا والخبر ، طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ ،
ج ٦ ، ص ٩٨ - ١٠١ . وراجع : ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار
الأندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة ج . س . كولان وليفي بروفنسال ، ط ٢ ،
دار الثقافة بيروت لبنان ١٩٨٠ ، ج ١ ، ص ٥ - ٦ ، وج ٢ ، ص ٢ - ٣ .
وانظر مادة « أندلس » في دائرة معارف الشعب ، بقلم الدكتور / السيد عبد العزيز
سالم ، سلسلة كتاب الشعب ، الكتاب الثاني ، مطابع الشعب بالقاهرة ، سنة
١٩٥٩ ط ٣ - ٦ .

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الأول من الطبعة الثانية ، مطبعة
بريل لندن ١٩٢٨ ، ص ٦٠ .

(٤) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط ٢ ، مطبعة بريل ،
لندن ١٩٦٧ ، ص ٢١٦ .

(٥) راجع في ذلك : الكندي : ولاية مصر ، تحقيق د. حسين نصار ، دار صباخر
بيروت ١٩٥٩ ، ص ٦١ ، وابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥ ، ج ٢

ص ٢٣ ، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ، المطبعة الكبرى بالقاهرة ١٢٩٠ هجرية
ج ٦ ، ص ٥٦ .

(٦) ابن سعيد الأندلسي : المغرب في حلى المغرب ، ج ١ من القسم الخاص
بمصر تحقيق د. زكي محمد حسن وآخرين ، القاهرة ١٩٥٣ ، المقدمة ص ٦ ،
وتحقيق د. شوقي ضيف ط ١ ، ج ٢ ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٥ ،
المقدمة . ويلاحظ أن ابن جبير (المتوفى في سنة ٦١٤ هـ ١٢١٧ م) قد أكثر
من استخدام لفظة « المغاربة » على كل من وجدتهم بالشرق سواء من أهل شمال
أفريقية أم الأندلس . فهو يقول مثلاً عن الوقف الذي أوقفه السلطان نور الدين
محمود على فقراء المغاربة المقيمين بدمشق : « ... وأخبرني أحد المغاربة الذين
كانوا ينتظرون فيه (أى في الوقف) ، وهو أبو الحسن علي بن سردال الجياني ،
المعروف بالأسود ، أن هذا الوقف المغربي ... » مع ملاحظة أن جيان ، من إلكور
المشهورة بشعبه جزيرة الأندلس . راجع : ابن جبير : الرحلة طبعة دار الشعب
بتقديم د. محمد مصطفى زيادة (د . ت . م) ص ١٩٩ وصفحات أخرى .

(٧) ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ١٠١ .

(٨) عن الأفاقة واستقرارهم في أماكن مثل سرت ، ومنستير عثمان ، الطر :
البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، نشر دي سنان ، الجزائر ١٨٥٧
ص ٥٥ . وراجع : د. حسن علي حسن : تاريخ المغرب العربي عصر الولاة ، ط ١ ،
مكتبة الشباب بالقاهرة ١٩٧٧ ، ص ١٣ ، ود. سعد زغلول : المرجع السابق ،
ج ١ ، ص ١٠٦ - ١٠٩ ، ود. سالم : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(٩) د. سعد زغلول : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(١٠) ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ١٠١ - ١٠٣ ، السلاوي الناصري :
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، القاهرة ١٣١٢ هـ ، ج ١ ، ص ٣١ .

(١١) عن قبائل البربر وأقسامها ، وأماكن استقرارها ، الطر : ابن خلدون :

العبر (طبعة دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٨) ، ج ٦

ص ٢٢٩ وما بعدها عن البربر البتر ، وص ٢٨٢ وما بعدها عن البربر البرانس .

وعلى سبيل الاختصار ، راجع : السلاوي : الاستقصا ، ج ١ ، ص ٣٢ ود. سعد

زغلول : تاريخ المغرب ، ج ١ ، ص ٨٤ و ٨٦ - ٨٧ ، ودكتور سالم : تاريخ

المغرب ، ص ٤٧ - ٥٣ .

(١٢) راجع : د. سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٦١ ، ص ٦٢ - ٦٥ ، ود. العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٥١ - ٥٢ وانظر : د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود في الأندلس ، المكتبة الثقافية العدد ٢٣٧ ، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ ، ص ١٣ - ١٧ .

(١٣) د. مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(١٤) ابن خلدون : العبر (طبعة بولاق) ، ج ٦ ، ص ٣ و ص ١٠٣ - ١٠٤ .
وراجع : د. خورية عبده سلام : علاقات مصر ببلاد المغرب منذ الفتح العربي حتى قيام الدولة الفاطمية ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ١٤١ .

(١٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، نشر تشارلس س . توري ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٢٠ ، ص ١٧٠ ، البلاذري : فتوح البلدان ، نشر وتحقيق د. صلاح الدين المنجد ، في ثلاثة أقسام ، القاهرة ١٩٥٦ ، القسم الأول ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ، الكندي : ولاية مصر ، ص ٣٣ .

(١٦) يشير اليعقوبي (المتوفى في سنة ٢٩٢ هـ ، ٩٠٥ م) الى أن مدينة الرمادة - من عمل كورة لوبية التي كانت تشكل مع مراقيه القسم الشرقي لاقليم برقة - هي « أول منازل البربر » . انظر في ذلك : كتاب البلدان ، ملحق بأخر كتاب العلاقات النفيسة لابن رسته ، تحقيق دي غوييه ، ليدن ١٨٩٢ ، ص ٢٤٢ .
وراجع أيضا : د. سعيد زغلول : تاريخ المغرب ج ١ ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(١٧) اليعقوبي : المصدر السابق ، ص ٣٤٣ - ٣٤٦ ، ابن خلدون : العبر (طبعة بولاق) ، ج ٦ ، ص ١٤٣ .

(١٨) الحنية مدينة ساحلية كانت تقع على مقربة من الاسكندرية ، حتى كان يطلق عليها باب الاسكندرية . انظر : للبكري : المغرب ، ص ٣ .

(١٩) المضدز نفسه : ص ٤٠ .

(٢٠) اليعقوبي : ص ٣٣٩ و ٣٤٢ - ٣٤٣ . راجع : د. عبد القادر أحمد طليحات : سكان ليبيا عند اليعقوبي ، مقال ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مجلد ١٦ ، سنة ١٩٦٩ ، ص ١٠٥ - ١٠٨ .

(٢١) الكندي : ولاية مصر ، ص ٢٦٦ .

(٢٢) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢٣) المصدر نفسه : ص ١٥٤ - ١٥٥ ، البكري : المغرب ، ص ١٤ - ١٥ :
وعن الواحات وكيفية نطق مسميات أقسامها الإدارية كما هو مثبت بالمتن راجع :
مراكشي مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار (القسم الخاص بوصف مكة
والمدينة ، ومصر ، وبلاد المغرب) ، نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد ،
مطبوعات جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ ، والادريسي : صفة المغرب
وأرض السودان ومصر والأندلس (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق
الآفاق) ، نشر وتحقيق دى غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٦٤ ، ص ٤١ - ٤٤ .
وانظر : د. عبد المال عبد المنعم الشامي : مدن مصر وقراها عند ياقوت
الحاموي ، ط ١ ، كلية الآداب جامعة الكويت ، الكويت ١٩٨١ ، صفحة ٦١ - ٦٢ .

(٢٤) ابن خلدون : العبر (طبعة بولاق) ، ج ٦ ، ص ١٠٦ . وراجع :
اليقوي : البلدان ، ص ٣٤٢ حيث يصف مزاته وغيرها من بطون البربر ، سكان
مدينة الرمادة بأنهم « من النجم القرم » .

(٢٥) الكندي : ولاية مصر ، ص ١٨٣ ، ود. عبد العزيز سالم : تاريخ
الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة
مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٨٢ ، ص ١٣٤ - ١٣٨ .

(٢٦) الكندي : المصدر نفسه ، ص ٢٨٦ .

(٢٧) مؤلف مجهول : بلد تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى .
نشر وتصحيح ليفي برونفيسال ، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ١٩٣٤ ،
ج ١ ، ص ١٤ وص ١٩ - ٢٠ .

(٢٨) ابن حذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٥٤ .

(٢٩) د. عبد العزيز سالم : بعض التأثيرات الاندلسية في العمارة المصرية
الاسلامية ، مقال بمجلة « المجلة » ، عدد ١٢ ، ديسمبر ١٩٥٧ ، ص ٨٩ .

(٣٠) د. حسين مؤنس : مقدمة تحقيق رياض النفوس للمالكي ، ج ١ ،
ط ١ ، لجنة الجامعيين لنشر العلم ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٨ م .

(٣١) يذكر في هذا الصدد ان سبب قيام ابن جبير برحلته الى المشرق ،
كان تكفيرا عن شربه الخمر . انظر : ابن سعيد الأندلسي : المغرب في حل المغرب ،
تحقيق د. شوقي ضيف ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٣٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٠٠ .

(٣٣) المصدر نفسه والصفحة .

(٣٤) راجع في ذلك : د. عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول « مصر والعراق » ط ٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٢٦٠ . حيث يعرف شعب الليبو على أنه خليط من قبائل عديدة كانت تتمثل في (التميمي والتمحو) الذين سماهم « أهل الصحراء الغربية الاقدمين » ، وثلاث أخرى عديدة من شعوب البحر ، مثل : المشاوش ، والتورشا ، واللوكي ، والربو أو الريبو ، وغيرهم الذين نزلوا سواحل ليبيا منذ أواخر القرن ١٣ ق.م وما بعده .

(٣٥) المرجع نفسه : صفحات ٧٩ و ١٢٨ و ١٣٤ و ٢٣٦ و ٢٣٨ و ٢٦٠ - ٢٦٤ . ولزيد من التفصيل انظر : د. زينب محمود عبد العال : مصر وليبيا (منذ أقدم العصور حتى نهاية الدولة الحديثة ١٠٨٠ ق.م) ، رسالة ماجستير ، معهد الدراسات الافريقية بجامعة القاهرة ١٩٧٥ ، صفحات المقدمة أ ، ب ، وص ١٩ وما بعدها . وأيضا : أحمد صقر : مدنية المغرب الغربي في التاريخ ، جزآن ، طبعة تونس ١٩٥٩ ، ج ١ ، ص ٤٦ - ٤٩ ، ودكتور رشيد الناضوري : تاريخ المغرب الكبير ، ج ١ المصور القديمة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٥ .

(٣٦) ويذكر في هذا الشأن الدور الذي قام به اليهود الرزازية - الذين انتشروا في نواحي غرب أوروبا ، وفي أسبانيا وشمال افريقية - في تجارة الشرق قبل قيام الدولة الاسلامية بمائتين وخمسين سنة . والذي ربما كان يحوي إشارة لجمعية الى اشتراك غيرهم من سكان المغرب في هذه التجارة . عن ذلك انظر : ابن خردادبة : المسالك والممالك ، ويليه كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقذاة ابن جعفر ، تحقيق دى غويه : مطبعة بريل ، لندن ١٨٨٩ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ . وراجع : آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، نقله الى العربية د. محمد عبد الهادي أبو ريده ، ط ٣ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٧ ، ج ١ ، ص ٣١٢ - ٣١٣ ، ود. عطية الفوسى : تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٣٢ - ٣٣ . وانظر كذلك : (د. رشيد الناضوري : تاريخ المغرب الكبير ، ج ١ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٨) حيث الاسارة الى تفوق البحرية القرطاجية في حوض البحر المتوسط ، ومحاولاتهم مع الفرس والمصريين القدماء

من أجل اكتشاف الساحل الأفريقي الشرقى وامكان الدوران حول القارة الأفريقية
من الشرق الى الغرب .

(٣٧) راجع فى ذلك : الفريد بتلر : فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد
أبو حديد ، القاهرة ١٩٥٨ م. ، ص ٣٦ - ٣٣ . والنظر : د . حسين مؤنس :
فتح العرب للمغرب ، مطبوعات لجنة الجامعيين للشر العلم ، القاهرة ١٩٤٧ ،
ص ٣٥ . ود . سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ، ج ١ ، ص ١٢٤ ، ود . سالم ،
تاريخ الاسكندرية ، ص ٤٥ .

(٣٨) د . سعد زغلول عبد الحميد : الأثر المفرق والاندلسى فى المجتمع
الاسكندري ، مقال فى كتاب : مجتمع الاسكندرية عبر العصور ، مطبوعات جامعة
الاسكندرية - ١٩٧٥ ، ص ٢١١ - ٢١٢ . مع ملاحظة : ان هناك بعض - يتصرف فيما
اقترضه د . سعد - بشأن التقسيمات الزمنية . المراحل التأثير والتأثر الحضارى فيما بين
المشرق والمغرب الاسلاميين . وذلك لان الامر هنا يتعلق بمصر وبالوجود المغربى
فيها وليس بالاسكندرية وحدها .

(٣٩) د . سعد زغلول : المرجع السابق ، ٢١٢ .

(٤٠) المرجع نفسه والصفحة .

(٤١) عن استقرار بربر . لوائه فى الفيوم ، طوال العهد الأيوبي ، النظر :
إلبابلس : تاريخ الفيوم وبلاده ، طبع دار الجيل ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ١٤ .
ومن لزوح بربر . هواره الى صعيد مصر ، للإقامة هناك بدلا من ساحل مصر الشمالى
المغربى ، زمن الظاهر برقوق المملوكى ، انظر : البقريزى : البيان والاعراب عما تزن
بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق د . عبد المجيد عاهدين ، مع دراسة من تاريخ
العروبة فى وادى النيل ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٥٨ .

القسم الأول

« الدور السياسي للمغاربة والأندلسيين »

الباب الأول :

**« المغاربة والأندلسيون في مصر من عصر الولاة حتى نهاية
الحكم الإخشيدى »**

الباب الثانى :

« المغاربة والأندلسيون في مصر في العصر الفاطمى »

الباب الأول

**« المغاربة والأندلسيون في مصر
من عصر الولاة حتى نهاية الحكم الأخشيدي »
(٢١ - ٣٥٨ هـ / ٦٤٢ - ٩٦٩ م)**

الفصل الأول : -

« المغاربة والأندلسيون في مصر في عصر الولاة »

الفصل الثاني : -

**« المغاربة والأندلسيون في مصر في عصر الدولتين الطولونية
والإخشيديّة »**

الفصل الأول

« المغاربة والأندلسيون في مصر
في عصر السولاة »
(٢١ - ٢٥٤ هـ / ٦٤٢ - ٨٦٨ م)

— تمهيد •

— مع المغاربة المنتشرين في صحراء مصر الغربية :

- ١ - أيام الفتح ونزوعهم نحو الاستقلال •
- ٢ - الفكر الخارجى فى مصر ورسوخه بينهم •

— مع المغاربة الوافدين :

- ١ - مراسلة أبى الخطاب الاباضى للمقاضى غوث •
- ٢ - مراسلة الامام عبد الوهاب الرستمى لشعيب المصرى •
- ٣ - رسالة الامام ادريس الاول الى المصريين •
- ٤ - غزاة البحر الأندلسيون فى الاسكندرية •
- ٥ - اثر قيام دولة الاغالبة بافريقية على الوافدين الى مصر •

— فى البحيرة •

اقتصر الوجود المغربي في مصر خلال هذه الفترة على جماعات الحجاج والدارسين المغاربة والأندلسيين ، وعلى جموع المغاربة المنتشرين في صحراء مصر الغربية من بربر لواتة وهوارة وزناتة ونفوسة .

وبالنسبة لجماعات الحجاج والدارسين المغاربة والأندلسيين فقد كان من الطبيعي أن يتأخر وفودهم الى مصر - وبالتالي تأخر دورهم الذي لعبوه على مسرح الحياة السياسية بمصر - طوال مرحلة الفتح الاسلامي للمغرب والفترة التي تلت ذلك ، حتى بدايات تعبير المنطقة عن نفسها سياسيا من خلال الدول المستقلة التي قامت هناك (ابتداء من العقد الثالث للقرن الثاني الهجري فصاعدا = منتصف القرن الثامن الميلادي) . ويرجع السبب في ذلك الى ان الشخصية المغربية بمفاهيمها الاسلامية كانت ما تزال في طور التكوين .

والحق ان مصر كان لها - بحكم موقعها القريب من المنطقة - دورها الكبير في انهاء هذه الشخصية ، وذلك من خلال جوانب ثلاث تمثلت في : استمرار خروج حملات فتح المغرب من ارض مصر منذ ايام عمرو بن العاص . وفي خضوع المغرب من الناحية الادارية ، لوالي مصر منذ ايام مسلمة بن مخلد الأنصاري والى مصر (٤٧ - ٦٢ هـ = ٦٦٧ - ٦٨١ م) الذي « جمع له الصلابة والخراج والمغرب » (١) . وأخيرا في الدور الهام الذي لعبته خزانة مصر سواء في تجهيز حملات فتح المغرب (٢) ، او في المعونة المالية

السنوية التي كانت تقدم لولاية المغرب ، كي تعينهم على مواجهة
أعباء الحكم ، والتي بلغ مقدارها مائة ألف دينار سنويا (٣) .

كذلك الحال بالنسبة لشبه جزيرة الأندلس التي ظلت تابعة
لولاية المغرب أثناء الفتح - الذي بدأ في سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) -
حتى استقلالها سياسيا عن خلافة بغداد سنة ١٢٨ هـ (٧٥٦ م)
حينما نجح الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية في تأسيس إمارة
أموية بالأندلس . وقد وضع ارتباط الجميع - آنذاك - بمصر في
إثناء ولاية عبيد الله بن الحبحاب ، مولى سلول ، على ولاية المغرب
(١١٦ - ١٢٣ هـ = ٧٣٤ - ٧٤١ م) الذي قال عنه ابن عذارى :
« ان الحال تنامت به الى ولاية مصر وأفريقية والأندلس والمغرب
كله » . فقد كان مشرفا على خراج مصر منذ سنة ١٠٥ هـ
(٧٢٣ م) ، وخرج منها الى ولاية المغرب سنة ١١٦ هـ (٧٣٤ م)
بعد أن استخلف ابنه القاسم على خراج مصر ، ثم نراه يستعمل
على طنجة ابنه اسماعيل ، وعلى الأندلس عقبه بن الحجاج
السلولي (٤) .

وقد اختلفت الحال بالنسبة لجماعات المغاربة المنتشرين في
صحراء مصر الغربية (سواء في برقة وعلى طول الساحل الشمالى
الغربى لمصر حتى أرض البحيرة ، أو في الواحات) من بربر لواته
وهوارة وزناتة ونفوسة ، الذين كانوا - بحكم إقامتهم فى أرض
مصر - أسبق الى الاحتكاك بالفاتحين المسلمين . اذ من الثابت ان
عمرو بن العاص اتجه مباشرة - عقب فراغه من فتح الاسكندرية -
الى برقة فاستولى عليها ، ثم تابع زحفه غربا حيث لم يجد صعوبة
كبيرة فى التغلب على سرت ولبدة وطرابلس وصبرة (٥) .

وقد كانت بادرة طيبة تلك التى قام بها بربر لواته - سكان
مدينة برقة - حينما رحبوا بالوجود الاسلامى الجديد ، وأذعنوا
لشروط الصلح التى عقدها معهم عمرو ، وانتظموا فى أداء الجزية

المفروضة عليهم دون أن ينتظروا حضور عمال الخراج (٦) . ثم بان لنا صدق نواياهم من خلال وفودهم التي حضرت الى مدينة الفسطاط معلنة اسلامها ، وقد التقى بعضهم بعمر بن العاص (٧) ، وبعضهم الآخر بالقاضي كعب بن يسار بن ضنة العبسي (السدي استقضاه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب على مصر خلال شهور من سنة ٢٣ هـ = ٤٣ / ٦٤٤ م) (٨) . بل انهم ارتضوا - طواعية منهم - أن يقدموا بعض صفارهم ضمن الجزية السنوية المفروضة عليهم (٩) . ولا شك ان الدعايات الحسننة التي راجت عن الاسلام وعن تسامح المسلمين في تعاملهم مع سكان البلاد التي دخلوها ، كانت سببا في تصرف بربر البرقة على هذا النحو .

ويفهم ضمنا أن بربر البحيرة - من لواتة كذلك - كانوا قد فعلوا قريبا من ذلك . يدلنا على هذا خلو المصادر التي عالجت احداث فتح مصر من اية اشارة الى انهم كانوا ضمن عناصر القبط والروم الذين قاووهوا عمرو بن العاص عند الكريون - من قرى البحيرة - اثناء مسيره لفتح الاسكندرية (١٠) .

وبالنسبة لبربر لواتة المقيمين في الواحات ، فكان من الطبيعي الا يبدأ احتكاكهم بالمجتمع الاسلامي الجديد في مصر الا مع تمام عمليات فتح جنوب مصر . الأمر الذي نرجح أنه حدث اثناء ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، القرشي العامري على مصر (٢٥ - ٣٥ هـ / ٦٤٥ - ٦٥٥ م) لأنه كان أول الولاة المسلمين الذين أبدوا اهتماما كبيرا بمنطقة النوبة . اذ يذكر عنه انه « غزا غزوة الاساود حتى بلغ دمقلة (وهي دنقلة الآن) وذلك في سنة احدى وثلاثين (٦٥١ م) » فقاتلهم قتالا شديدا (١١) . ويبدو ان ابن أبي سرح - بعد أن عاين بنفسه مدى شراسة البجاة أو البجة ، سكان النوبة (١٢) - لم يشأ ان يترك هذه المنطقة النائية

دون التعامل مع القوى الأخرى القريبة على نحو يوفر للوجود الاسلامى هناك بعض الامان . فكانت الاتفاقية التى يفهم من اشارة ابن حوقل الى انها عقدت مع آل عبدون اللواتيين حكام الواحات « مذ أول ما فتحها المسلمون » (١٣) . وتدلنا نصوص هذه الاتفاقية على أن آل عبدون قد رحبوا بالفتح الاسلامى واصلوا دخولهم فى الاسلام ، وأبدوا تفهما فى أمر مدافعة خطر البجّة . وعليه فقد استمروا فى حكم المنطقة ، وسمح لهم بالحصول على خراج وجزية النصارى المقيمين فى الواحات ، على أن يؤدوا باقى خراج المنطقة الى خزانة الفسطاط (١٤) .

وليس من شك فى انها كانت نتائج طيبة تلك التى تمخضت عن الاحتكاكات الأولية بين هذه الجماعات البربرية وبين الفاتحين المسلمين . غير اننا نلاحظ ان هويتهم السياسية قد بدأت تتجه - بعد ذلك - وجهة أخرى نحو الاستقلال عن سلطان حكومة الفسطاط، وساعد على ذلك ظروفهم الخاصة كمجتمعات بدوية لم يعتد أفرادها حياة الاستقرار أو الخضوع طويلا لحكومة واحدة ، وكذا الغلبة العددية التى باتت معقودة لهم بصفة دائمة على من عداهم من سكان صحراء مصر الغربية (١٥) . ثم ان الموقع الجغرافى للمنطقة قد باعد بينهم وبين العاصمة ، فى الوقت الذى ظلوا فيه على اتصال ببنى عموماتهم بربر شمال افريقية وبالمؤثرات الى سادت هناك طوال فترة الفتح الاسلامى (١٦) . وأخيرا فإن اعتناق هذه الجماعات البربرية للمذهب الخارجى - المخالف لمذهب حكومة الفسطاط - قد باعد بينهم وبين الدخول فى الطاعة المباشرة لهذه الحكومة .

وترجع معرفة بربر المنطقة الغربية لمصر بفكرة « الخروج » - أى الثورة على الحكم الجائر - واتخاذهم ذلك مذهباً سياسياً لهم فى تعاملهم مع حكومة الفسطاط الى أيام

الفتنة الكبرى التي أودت بحياة الخليفة الراشد عثمان بن عفان (ذى الحجة سنة ٢٣ هـ - ذى الحجة سنة ٣٥ هـ / نوفمبر ٦٤٣ م - يونية ٦٥٦ م) . إذ كانت أرض البحيرة وبرقة مسرحا لسلسلة من المعارك التي قام بها الخارجون على حكومة الفسطاط بزعامة معاوية ابن حديج الكندى طلبا للثأر من قتلة عثمان (١٧) . وعلى الرغم من أن أمر هؤلاء الثوار قد انتهى بخروجهم الى الشام في ولاية محمد ابن أبى بكر الصديق (رمضان ٣٧ هـ - صفر ٣٨ هـ / فبراير - يولية ٦٥٨ م) حيث لحقوا بمعاوية بن أبى سفيان - رأس البيت الأموى المطالب بدم عثمان - (ورغم هذا) فهناك إشارة الى قيام أهل برقة - التي لم يدخلها جاب للخراج منذ الفتح - من بربر لواتة وهوارة خاصة ، بثورة على والى مصر عمرو بن العاص (الذى ولى مصر للمرة الثانية ربيع الأول سنة ١٨ هـ - شوال سنة ٤٣ هـ / أغسطس ٦٥٨ م - يناير ٦٦٤ م) . فعقد عمرو بن العاص لعقبة بن نافع وشريك بن سمي على رأس عدة جيوش اخضعت الثائرين وذلك فى سنة ٤٣ هـ (آخر سنة ٦٦٣ م) (١٨) . ويمكن لنا ان نفسر ثورة بربر برقة هذه ، على انها كانت صدئ لخروج معاوية بن حديج على الحكم بالفسطاط ، فقد ذكر الكندى ان معاوية « مضى حتى بلغ برقة » ثم رجع الى الاسكندرية « (١٩) .

ثم بدأ المذهب الخارجى يتبلور شيئا فشيئا فى مصر نتيجة وفود بعض علماء الخوارج الى مصر ، فى طريقهم الى المغرب فرارا من ضغط الدولة الأموية فى مركز الخلافة . ومعلوم ان انتشار هذه الآراء الخارجية فى نواحي مصر جعل سكانها يميلون الى الخروج على حكومة الفسطاط ، وتأييد الثائرين على الخلافة . وقد وضع هذا عندما ثار عبد الله بن الزبير (٦٣ - ٧٣ هـ = ٦٨٣ - ٦٩٢ م) على الخلافة الأموية ، فى وقت كان أهل مصر حائقين على متولى أمر مصر سعيد بن يزيد من قبل الخليفة الأموى يزيد بن معاوية بن أبى سفيان (٦٠ - ٦٤ هـ = ٦٨٠ -

٦٨٣ م) ، اذ « قامت الخوارج الذين بمصر في امره واظهروا دعوته (أي دعوة ابن الزبير) » . وذلك انهم « كانوا يحسبونهم على مذهبهم » . مما شجع ابن الزبير على ان يبعث الى مصر باحد انصاره ويدعى عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهرى ، كى يلى منصب الولاية فى مصر بدلا من سعيد بن يزيد ، « فقدمها فى طائفة من الخوارج » ، وذلك فى شهر شعبان سنة ٦٤ هـ (ابريل ٦٨٤ م) . واستمر الخوارج - من اهل مصر - فى تأييدهم دعوة ابن الزبير ، والتفوا حول عبد الرحمن بن جحدم الى ان دخل مصر الخليفة الاموى مروان بن الحكم (تولى الخلافة فى شهر ذى القعدة سنة ٦٤ هـ = يولية ٦٨٤ م) على رأس جيوشه وتمكن من القضاء على انصار ابن الزبير بمصر ، فى شهر جمادى الاولى سنة ٦٥ هـ (ديسمبر ٦٨٤ م) (٢٠) .

كذلك وضع تغفل المذهب الخارجى فى مدينة الاسكندرية عندما ثار نفر من الخوارج بزعامة المهاجر بن ابى المثنى التجيبى فى الاسكندرية على والى مصر قرة بن شريك العيسى (٩٠ - ٩٦ هـ = ٧٠٩ - ٧١٥ م) . وانتهزوا فرصة زيارته للمدينة فى سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) فدبروا مؤامرة لقتله . الا ان والى نجبا بفضل احد جواسيسه ، الذى اخبره بتفاصيل المؤامرة ، وتمكن من الفتك بهم (٢١) . ويرى د. سعد زغلول ان هذه الحركة الخارجية - التى يعتبرها نواة الحركة الخارجية المغربية - كانت تلقى عطايا من اهل الاسكندرية ، بل من اهل مصر عامة استنادا الى رواية الكندى التى تشير الى كراهيتهم لهذا الجاسوس - ويدعى ابا سليمان - الذى نقل للوالى تفاصيل المؤامرة (٢٢) .

والراى ان هذا التأييد الذى حظى به خوارج الاسكندرية انما كان مقتصرأ على اهل الاسكندرية فقط ، اذ شهد القرن الثانى الهجرى (٨ م) اندساسا للمذهب الخارجى عن العاصمة

— الفسطاط — ومعظم مدن مصر القريبة منها . والدليل على ذلك
إشارة الكندي الى ان اهالى الفسطاط استنكروا معارضة وهيب
اليحصى لسياسة والى مصر الوليد بن رفاعه الفهمى (١٠٩ -
١١٧ هـ = ٧٢٧ - ٧٣٥ م) المتعاطفة مع نصارى مصر ، وخروجه
عليه سنة ١١٧ هـ (٧٣٥ م) . وقالوا للوالى : « انما هو داف دف
علينا (اى قادم قدم علينا) لاعلم لنا به . وقد كان ابليس مع
الملائكة ، فعصى ، فلم يؤاخذهم الله بمعصيته » . وراحوا يوبخون
وهيب ، قائلين : « اين صلاتك يا وهيب ؟ » (٢٣) .

واذا كان المذهب الخسارجى فى مصر قد بدأ ينحسر عن
الفسطاط ومدن مصر القريبة منها خلال القرن الثانى الهجرى (٨ م)
الا انه فشا بين بربر المنطقة الغربية لمصر (فى برقة والبحيرة
والواحات) ، ولكن بدرجات متفاوتة .

فنراه واضحا فى اقليم برقة بسبب اتصال البربر هناك
باخوانهم بربر طرابلس . وظهر هذا واضحا أثناء ثورة قام بها
اهل برقة فى سنة ١٤٣ هـ (٧٦٠ م) امتدادا لثورة ابنى الخطاب
عبد الاعلى بن السمح المعافى الاباضى بطرابلس (١٤٠ - ١٤٤ هـ
= ٧٥٧ - ٧٦١ م) . واضطر والى مصر — آنذاك — حميد بن
قحطبة (١٤٣ - ١٤٤ هـ = ٧٦٠ - ٧٦١ م) الى الخروج بنفسه
على رأس قواته لاختماد هذه الفتنة حتى لا تؤثر على عمليات
القتال الدائرة فى طرابلس والتي كان يقوم بها والى مصر السابق
محمد بن الأشعث الخزاعى ووالى افرقية (أو المغرب الأدنى)
آنذاك (١٤٤ - ١٤٨ هـ = ٧٦١ - ٧٦٥ م) لردع ثورة ابنى
الخطاب (٢٤) . ولعل هذا كان سببا فى اقدام والى مصر يزيد بن
حاتم بن قبيصة بن المهلب بن ابي صفرة (١٤٤ - ١٥٢ هـ =
٧٦١ - ٧٦٩ م على ضم برقة نهائيا الى مصر . فى سنة ١٤٨ هـ

(٧٦٥ م) ، كى يتسنى لولاية مصر مراقبة ثورات اهلها المستمرة عن طريق شمالهم على المدينة (٢٥) . على ان هذا الاجراء الأخير لم يقض تماما على شغب أهل برقة الذين استمروا فى ثوراتهم على الحكم المصرى ، كما حدث فى سنتى ١٦٤ هـ (٧٨١ م) و ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) (٢٦) ، وفى سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) (٢٧) .

ولما كانت أرض البحيرة أقرب تلك المناطق الى سلطان العاصمة اذ كانت تقع على الطريق بين القسطنطين والاسكندرية ، وهو طريق كثيرا ما سار فيه ولاية مصر بحملاتهم الى مدينة الاسكندرية لأسباب شتى ، فكان من الطبيعى أن تقل آثار النزعة الخارجية لدى بربر البحيرة خلال تلك الفترة .

بينما دلت الاحداث التى شهدتها مصر - وبخاصة أرض الصعيد - خلال العقد السادس من القرن الثانى الهجرى (العقد الثامن من القرن الثامن الميلادى) على مدى تغلغل الفكر الخارجى فى وجدان بربر الواحات . اذ حدث فى سنة ١٦٥ هـ (٧٨٢ م) ان ثار أحد الأمويين ، واسمه دحية بن مصعب بن الاصمغ بن عبد العزيز بن مروان ، بصعيد مصر على حكم العباسيين ، ودعا لنفسه بالخلافة . واستطاع ان يمتلك عامة الصعيد وعزم على الاستيلاء على القسطنطين . الا ان امره آل الى زوال عندما سير الخليفة العباسى المهدى (١٥٨ - ١٦٩ هـ = ٧٧٥ - ٧٨٥ م) ، قائده الفضل بن صالح بن على العباسى الى مصر على رأس عسكر عظيم العدد ، وعهد له بولاية مصر ، وذلك فى آخر المحرم من سنة ١٦٩ هـ (أغسطس ٧٨٥ م) من أجل القضاء على ثورة دحية . وسرعان ما لحقت الهزائم بقوات دحية عند قرية بويط (قسرب بوصير من أعمال بنى سويف الآن) . فاضطر دحية الى الفرار فى طائفة من جنده ، وسلك طريق الواحات . وندع الكندى يكتمل

باقى الرواية : « .. فبعث الى أهلها يدعوهم للقيام معه . وكانوا من المسألة (كذا بالنص) (٢٨) . والبربر يتدينون بالشراية (يريد مذهب الخوارج) فقالوا : لا نقاتل الا مع أهل دعوتنا . فبعث اليهم دحية : انا على مذهبكم . فخرجوا اليه وقاتلوا معه يوم الدير . وأقبل عبد الله بن علي في جمع كثير بعثه الفضل بن صالح . فخرج اليه دحية في أهل الواحات ، فهزموا عبد الله بن علي . . . » ، ثم « وجد (أى حزن) أهل الواحات على دحية في اثارته العرب على الموالي ، وتقديهم على البربر . فقالوا له : هذا ظلم ، والاسلام واحد ولسنا نقاتل معك حتى نمتحنك بالبراءة من عثمان (أى بتكفيره) فامتنع دحية . فانصرفوا عنه وتركوه . فعاد عبد الله بن علي ، لما علم انصرفهم عنه . فدار بهم . . . وكانت نعم أم ولد دحية تقاتل قتالا شديدا » (٢٩) .

هكذا صراحة أشار بربر الواحات الى عقيدتهم (الشراية ، أى الخارجية) ، واشترطوا على دحية أن يكون على مذهبهم كي ينضموا اليه ، مما اضطره الى موافقتهم حتى انضموا الى جانبه . فتمكن بواسطتهم من كسب جولتين امام جيوش الخلافة العباسية التى سيرها له والى مصر الفضل بن صالح . وكانت احدى الموقعتين تسمى « بيوم الدير » التى يبدو أن انتصارهم فيها كان باهرا حتى ان شاعرا من أصحاب دحية تغنى به قائلا :

فلا ترجعى يا نعم عن جيش ظالم
يقود جيوش الظالمين ويجنب

وكرى بنا طردا على كل سائح
الينا بنايا الكافرين تقرب

كيسوم لنا لازلت اذكر يومنا
« بفاو » ويوم فى « بويط » عصب

ويسوم بإعلى « الدير » كانت نحو سسه

على فيئة الفضل بن صالح تنعب (٣٠)

ومن الواضح ان قائد الجيش العباسى المنهزم - عبد الله بن على - قد تنبه الى ان هؤلاء البربر هم مصدر قوة دحية . فعمد الى الايقاع بينهم ، وذلك بإثارة هؤلاء الخوارج على حليفهم الأموى الذى مارس كأسلافه سياسة التعصب للعرب على حساب الموالى ، والبربر منهم . فجر عبد الله - اذن - قضية حساسة بالنسبة للبربر ، ووقف يترقب نتيجة محاولته . وسرعان ما تبين للبربر صدق مزاعم القائد عبد الله ، فحزنوا وراجعوا دحية فى احد آرائهم المذهبية الذى ينص على تكفير قريبه الخليفة عثمان فرغض ، فانفضوا عنه . وادرك عبد الله بن على - حينئذ - نجاح محاولته ، فعاد بقواته الى دحية وطائفة الجند الباقية معه بعد تجرده من مصدر قوته اثر انسحاب البربر من معسكره . وكان الموقف صعبا بالنسبة لدحية وطائفته ، حتى ان نساءهم اضطارون لخوض القتال بانفسهن . وانتهى الأمر بهزيمتهم جميعا ، واسر دحية وسبق الى القسطنطينية ، حيث ضربت عنقه وصلب . وذلك فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٦٩هـ (يناير ٧٨٧م) (٣١) .

ومن الغريب أن والى مصر الفضل بن صالح العباسى لم يتخذ اجراء ما بشأن معاقبة بربر الواحات الذين ساعدوا دحية فى ثورته . مما يوحى بأن حكومة القسطنطينية - ان لم تكن الخلافة العباسية ذاتها - كانت على علم بهدى خطورة وضعهم فى هذه المنطقة النائية .

وينقلنا الحديث عن الفكر الخارجى فى مصر ، خلال هذه الفترة (منتصف القرن الثانى الهجرى = الربع الاخير من القرن

الثامن الميلادي) ، الى ذكر حادثتين كان لهما علاقة بالتطورات التي كانت قد انتابت المغرب آنذاك .

وتتمثل اولاهما فيما ذكره الكندي عن عزل قاضي مصر غوث بن سليمان في سنة ١٤٤هـ (٧٦١م) لاتهامه بمكاتبة الثائر ابي الخطاب الاباضي . وقد ورد بشأنه خطاب من الخليفة المنصور العباسي (١٣٦ - ١٥٨ هـ = ٧٥٤ - ٧٧٥ م) الى والي مصر حينئذ - يزيد بن حاتم - يأمره فيه بحبس القاضي ، « فحبس » . وكان المبعوث الخاص - من قبل ابي الخطاب - للقاء القاضي غوث بمصر ، رجلا بربريا من قبيلة نفوسة البترية يدعى ربيعة النفوسي . ويلاحظ أن ابا الخطاب كان حريصا على بدء المراسلة مع القاضي غوث ، يدلنا على هذا اعتراف رسوله ربيعه الذي قال : « أنا حملت كتاب ابي الخطاب الاباضي من افريقية الى غوث ، وحملت كتاب غوث الى ابي الخطاب » (٣٢) . ورغم الغموض الذي اكتنف طبيعة هذه المراسلات الا انها لم تخرج عن كونها استشارات ني المذهب . ولا نستبعد ان تكون ثمة محادثات ذات طابع سياسي قد دارت على هامش هذه الاستشارات بين ربيعه النفوسي وبين علماء الاباضية الذين دلت القرائن على انهم ربما كانوا مستقرين في بعض نواحي مصر (٣٣) . وان صبح هذا الافتراض الاخير ، فان أمر استشارة القاضي غوث كان مجرد حجة أو واجهة لستر طبيعة المهمة السياسية التي اوفد ربيعة من اجلها الى مصر . بمعنى ان القاضي غوث لم يكن ضالعا في هذا الأمر ، والا فمما تفسر القرار الذي صدر بتبرئة ساحته من هذه التهمة وعودته الى منصبه من جديد ، في سنة ١٦٧ هـ (٧٨٣ م) حيث ظل قاضيا على البلاد حتى وفاته في سنة ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) (٣٤) .

أما الثانية فتتمثل فيما شاع عن اهتمام الامام عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم ، امام الخوارج الاباضية في تاهترت

بالمغرب الاوسط (١٦٨ - ٢١١ هـ = ٧٨٤ - ٨٢٦ م) ، باستشارة علماء المذهب فى المشرق - فى مصر ومكة على وجه الخصوص - فى مسألتى : « شرط الحكم بمشورة جماعة معلومة ، وجواز امامة من يوجد أعلم منه » . حدث ذلك عندما واجه الامام عبد الوهاب معارضة قوية من جماعة النكار او النكارية وزعيمهم يزيد بن فندين الذى انكر على الامام احقية فى الحكم ، وطلب ان تشكل جماعة للرأى يرجع الامام اليها فى احكامه او ان يعتزل الامام الحكم . ورغم ان زعماء اهل الدعوة فى مكة قد حكموا بإعلان الشرط وبجواز امامة العالم مع وجود من هو أعلم منه ، الا ان رأس الجماعة فى مصر - شعيب بن المعرف - رأى ان يستغل الموقف لصالحه الشخصى . فقرر المسير الى تاهرت « للنظر فى المسألة على مسرح الاحداث » وجد فى السير مع نفر من اصحابه ، طمعا فى الامارة . حتى حكى عنهم انهم « وصلوا من مصر الى تاهرت فى عشرين يوما » ، رغم معارضة مشايخ المذهب بمصر الذين نهوه عن الخروج الى تاهرت ، قائلين : « تقدم الى بلد اختلف أهلها ؟ » .

وقد انتهى الحال بشعيب وجماعته فى تاهرت الى الانضمام لصفوف المعارضة مع ابن فندين واصحابه . مما حدا بالامام عبد الوهاب الى تسمية هؤلاء « بالشعيبية - الذين عرفوا بالشغبية والملحدة ، والنكاثه لادخالهم فى الاسلام المشغب » . وحمل عليهم هو وانصاره حملات عديدة أسفرت عن مصرع ابن فندين وتشتيت انصاره فى البلاد ، بينما ظل شعيب يظهر الخلف للامام فى المنطقة الواقعة بين طرابلس وجبل نفوسة وينشر دعوته المناهضة لامامة عبد الوهاب بين الحجاج العائدين من المشرق ، حتى كرهه أهل الدعوة بالحجاز « الذين تبرأوا من شعيب وجماعته (٣٥) » . وثمة ظاهرات أخرى لها علاقة كذلك بالتطورات التى كانت قد انتابت المغرب خلال هذه الفترة ، ونعنى بها الدول المستقلة التى

قامت هناك ابتداء من العقد الثالث من القرن الثاني الهجرى فصاعداً (منتصف القرن الثامن الميلادى) ، منها : ما قيل عن الرسالة التى وجهها الامام ادريس الاول بن عبد الله بن الحسن رأس دولة الادراسة بالمغرب الاقصى (١٧٢ - ١٧٥ هـ = ٧٨٨ - ٧٩١ م) ، الى اهل مصر يذكرهم فيها بفضائل اهل البيت النبوى الذى ينتمى اليه ويصف التضحيات الغالية التى بذلوها فى سبيل حقهم الشرعى الموروث عن الرسول - ﷺ - ويطالبهم بتأييده ومساندته . وذلك فى اطار محاولات الادراسة توحيد العالم الاسلامى تحت قيادتهم استنادا الى اصلهم الشريف وشرعيتهم فى الحكم (٣٦) . ومعلوم ان مسألة احقية اهل البيت النبوى الشريف فى الحكم لاقت رواجاً بين اهل مصر الذين تعاطفوا مع العلويين - منهم خاصة - نتيجة ما نزل بهم من محن واضطهادات . وقد لمس الامام ادريس الاول بنفسه هذا الشعور اثناء مروره بمصر فى طريقه الى المغرب فراراً من محاولات العباسيين قتله ، وما كان من مساعدة صاحب البريد بها - واضح مولى صالح بن منصور الحميرى - اياه ، والتستر عليه حتى خرج من مصر سالماً . وقد دفع واضح حياته ثمناً لذلك (٣٧) . الا ان الامر كان مجرد تعاطف فقط من جانب المصريين تجاه العلويين ، ولم يوفر النجاح لثوراتهم التى قاموا بها فى مصر من اجل الانتزاء بها عن سلطان الخلافة العباسية (٣٨) .

ومنها حادثة استيلاء البحرينيين الأندلسيين على مدينة الاسكندرية واقامتهم فيها من شهر ذى الحجة سنة ٢٠٠ هـ الى شهر ربيع الاول سنة ٢١٢ هـ (يولييه ٨١٦ م / يونيه ٨٢٧ م) . والتى يفهم من رواية الكندى انها كانت بمثابة حادث عرضى طرأ على مخططات غزاة البحر مؤلاء اثناء صراعهم مع البيزنطيين فى مراكزهم البحرية فى حوض البحر المتوسط . ذلك انهم - على ما يبدو -

كانوا قد اعتادوا ان ينزلوا بساحل المدينة اثر كل غزوة « ليقبضوا ما يصلحهم » وربما كذلك استعدادا لغزوة قالية (٣٩) . غير انهم ظهروا - فى هذه المرة - فى شكل المغتصبين. نتيجة الاستقبال غير الودى الذى قوبلوا به .

ففى بداية الأمر ، وعلى وجه التحديد خلال شهر رجب من سنة ١٩٩ هجرية (فبراير ٨١٥ م) ، استقرت مراكب هؤلاء الأندلسيين - وعددها أربعون مركبا تحمل خمسة آلاف رجل على اكثر تقدير (٤٠) - فى المنطقة الساحلية التى تواجه الآن محطة الزملى ليقضوا الشتاء كالمعتاد (٤١) . الا ان اضطراب الأمر فى الاسكندرية جعل حاكمها حديج بن عبد الواحد بن محمد يرفض السماح بدخولهم المدينة والاكتفاء فقط بخروج الأهالى اليهم فى زوارقهم ليقبضوا منهم (٤٢) . وكان مبعث هذا الاضطراب فى المدينة كثرة تغيير حكامها واضطراب العرب المقيمين بالاسكندرية وضواحيها من لخم وبنى مدلج (٤٣) .

وحقيقة الأمر فان هذه القلاقل التى عانتها المدينة كانت صدى لحالة الفوضى التى سادت مصر والعالم الاسلامى بالشرق ، اثر النزاع الذى نشب بين الخليفة العباسى، الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ / ٨٠٨ - ٨١٣ م) واخيه المأمون وانتهى بمقتل الأمين واعتلاء المأمون الخلافة (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م) . وقد استغلت طائفة البحريين الأندلسيين تلك الفوضى ، ودخلوا طرفا فى النزاع . ذلك أن المطلب بن عبد الله الجزاعى - الوالى على مصر (محرم سنة ١٩٩ هـ - آخر شعبان سنة ٢٠٠ هـ = اغسطس سنة ٨١٤ م - مارس ٨١٦ م) - كان قد استبدل عمر بن عبد الملك بن محمد الحديجى السكونى المعروف بعمر بن هلال ، بالفضل بن عبد الله بن أخى الوالى - على الحكم فى الاسكندرية. فى شهر شوال

سنة ١٩٩ هـ (مايو ٨١٥ م) بعد ولاية عمر بن هلال عليها مدة ثلاثة اشهر فقط . وربما كان ذلك لأنه لم يحسن حكم المدينة ولم يستطع القضاء على شغب القبائل العربية الضاربة في أطراف الاسكندرية (٤٤) . ففقد عمر بن هلال - الحاكم المعزول - على الوالى ، وتحالف مع ثائر آخر فى تنيس هو عبد العزيز بن الوزير الجروى الجذامى ، الذى كان طامعا فى امارة الفسطاط (٤٥) . فكتب اليه الجروى يأمره بالوثوب على الاسكندرية والدعاء له بها ، وان يخرج الفضل بن عبد الله منها . ولم يكن فى استطاعة ابن هلال ان يقوم وحده بهذا العمل الجرىء ، فاستعان بجماعة البحرينيين الاندلسيين هؤلاء الذين لم يترددوا فى مساعدته فى محاولة لرد اعتبارهم بعد ان اهان أحد الاهالى واحدا منهم بأن رمى وجهه بفضلات إحدى الذبائح (٤٦) .

وبفضل مساعدة الاندلسيين لابن هلال ، نجح فى اخراج الفضل بن عبد الله من المدينة ودعا فيها للجروى . ولكن أهل الاسكندرية استاءوا من تدخل الاندلسيين ، فهاجموهم واشتبكوا معهم فى معركة انتهت بهزيمة الاندلسيين وعودتهم الى مراكبهم بعد ان قتل نفر منهم . ورد أهل المدينة واليهام الشرعى الفضل بن عبد الله (٤٧) .

وفى تلك الاثناء حدث بمدينة الفسطاط ان تمكن السنرى بن الحكم ، أحد قادة الجند الخراسانيين بمصر - من الوصول الى حكم مصر باجماع الجند عليه ، وذلك فى مستهل شهر رمضان سنة ٢٠٠ هـ (ابريل ٨١٦ م) (٤٨) . وهنا سنحت الفرصة لابن هلال - من جديد - ان يتغلب على الاسكندرية مستغلا القلاقل واضطراب الجند فى الفسطاط ، فهاجم واليها ابا بكر بن جناده المعافى - فن قبل والى مصر المعزول عبد المطلب الخزاعى - وأخرجه منها ودبغا.

للمجروى بها . وعند ذلك تهبها للاندلسيين المجال للنزول بأرض الاسكندرية والاقامة فى برها بدلا من البقاء فى سفنهم . فاقبلوا الى ابن هلال حليفهم القديم . ولكن هذا الوضع اثار حفيظة الاهالى ، مما اضطر ابن هلال الى اخراج الاندلسيين عن المدينة ، والحقهم بمراكبهم « فاضطفئوا ذلك عليه » (٤٩) .

وتخلل ذلك ظهور طائفة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بمدينة الاسكندرية ويعارضون الحاكم ابن هلال ، وقد سموا انفسهم « الصوفية » وتولى الزعامة عليهم رجل يقال له ابو عبد الرحمن الصوفى . فكان من الطبيعى ان يتحالف هؤلاء الصوفية مع الاندلسيين ، لاشتراكهم معهم فى معاداة ابن هلال والسخط عليه . واجتذب الصوفية كذلك عرب لخم الذين كانوا امز من فى ناحية الاسكندرية ، كما كانت لهم اطماعهم الخاصة ايضا (٥٠) . وعزم الحلفاء على ازالة ابن هلال فتجمعت حشودهم حتى بلغت زهاء عشرة آلاف رجل وحاصروا ابن هلال فى قصره . فسلم نفسه هو ، واخوه محمد ، وابناء عمه : ابو هبيرة الحارث ، وعبد الله البطال ، وحديج ، الواحد بعد الآخر ، حيث تلقفتهم سيوف المتحالفين وقتلوهم فى شهر ذى القعدة سنة ٢٠٠ هـ (يونية ٨١٦ م) (٥١) .

واذا كان الحلفاء قد اتفقوا على خلع ابن هلال الا انهم اختلفوا على اى فريق منهم يتولى الحكم فى الاسكندرية بعد ذلك . فتنازع اللخميون مع الاندلسيين نزاعا ادى الى قيام الحرب بينهما فاشتبك اللخميون بقيادة رباح بن قره مع الاندلسيين ، فانهمزم اللخميون ودخل الاندلسيون الاسكندرية عنوة فى ذى الحجة من سنة ٢٠٠ هـ (يولية ٨١٦ م) ، فلولوا عليها ابا عبد الرحمن الصوفى . وفى عهده ساد الفساد وكثر القتل والنهب ، فاضطر الاندلسيون

الى عزله وولوا رجلا منهم يعرف بالكثاني (٥٢) . وعندئذ تدخل
عرب بنى مدلج ، وكانوا يقيمون بظاهر الاسكندرية ، اذ خافوا ان
يستقل الأندلسيون بالمدينة : فهاجموا الأندلسيين ، ولكنهم منوا
بهزيمة نكراء ترتب عليها ان أصبح الأندلسيون يتحكمون فى مصير
الاسكندرية . فنفقوا بنى مدلج عن المدينة وانفردوا بحكمها (٥٣) .

دانت الاسكندرية — اذن — لسلطان البحرين الأندلسيين
دون منازع منذ ذلك الحين (مطلع سنة ٢٠١ هـ / اغسطس ٨١٦ م) ،
واستمر هذا الوضع حتى شهر ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ (يونية
٨٢٧ م) . ورغم سميت المراجع عن وصف طبيعة الوجود الأندلسي
بالاسكندرية وغير ذلك من أنماط الحياة التى كانوا يحيونها خلال
هذه الفترة ، الا اننا يمكن تصور ذلك من خلال الآتى :

— ان تعاملاتهم مع أهالى الاسكندرية قد اتسمت بالشدة ،
وذلك بحكم طبيعتهم الجافة كرجال بحر وغزاة . وقد وضع هذا
من خلال وصف احد المصريين لهم بأنهم مبعث فساد وخطر على
المدينة ، وذلك فى قوله « انى على الاسكندرية من أربعين مركبا —
مسلمين وليسوا بمسلمين — تاتى على آخر الصيف ، اخوف منى
عليها من الروم » . ولما استنكر السامع مقولته ، محقرا من شأنهم ،
نهره قائلا : « اسكت ، ويلك ! منها ومن يكون فيها ، يكون خراب
الاسكندرية وما حولها » (٥٤) .

مما دفع بأهل المدينة الى الثورة عليهم غير مرة ، ولكن
الأندلسيين تمكنوا من اخماد ثورة السكندريين « وبذلوا السيف
فيهم ، وقتلوا كثيرا منهم ، وسطوا بهم سطوة منكرا » (٥٥) .
ويذكر الأستاذ صديق شيبوب ان هذه المحن قد أملت « بالمسلمين
والنصارى واليهود من سكان الاسكندرية على السواء ، وان أحياء

بأكملها قد احترقت . مما أجبر بطريك النصارى مرقس الثانى (كذا بالنص ولعله البطريرك يعقوب خليفته) (٥٦) على الهرب من المدينة ، واللجوء الى شرق الدلتا حيث كان الاقباط كثيرى العدد . واتصل بعبد العزيز الجروى الثائر بتلك المنطقة ، وشكا اليه حالة الاسكندرية وفساد الحكم فيها . وقيل ان البطريرك قضى نحبه متأثراً بما شاهده فيها « (٥٧) .

— ان نظام الحكم الذى اتبعه الاندلسيون فيما بينهم كان اقرب الى النظام الجمهورى ، وقد اتضح ذلك عندما ولوا الكنانى عليهم بطريق الاختيار . واستمروا محافظين على هذا التقليد ، حتى ان آخر من ولى عليهم قبيل خروجهم من الاسكندرية وهو أبو حفص عمر بن شعيب البلوطى ، كان بطريق الاختيار ايضاً (٥٨) .

— أنهم اتبعوا مع حكومة الفسطاط سياسة متارجحة قوامها اعلان الولاء للمتغلب من الثائرين على البلاد ، وذلك من أجل الحفاظ على المكاسب التى حققوها بالاسكندرية . ففى بداية انفرادهم بحكم الاسكندرية قبلوا وسيطة السرى بن الحكم — المتغلب على الفسطاط — من أجل ارجاع بنى مدليج الى منازلهم ، واذنوا لهم بالعودة ، حتى يستمر السرى فى موقفه المتخاذل من استيلائهم على المدينة (٥٩) . وعندما سار عبد العزيز الجروى الى الاسكندرية سنة ٢٠١ هـ (٨١٦ م) واحكم الحصار حول المدينة ، دها له الاندلسيون وانصاعوا لحكم نائبه معاوية بن عبد الواحد الحديجى ، وكان نفوذ السرى فى ذلك الوقت قد تخرج بعد ان شغب عليه الجند الخراسانى بمدينة الفسطاط (٦٠) . وعقب خروج الجروى من الاسكندرية مباشرة لحرب السرى بن الحكم ، قام الاندلسيون بخلع عامل الجروى على المدينة وطردوه منها ، ودعوا للسرى . وظلوا على هذا الحال من تذبذب الولاء للجروى

والسرى ، الى أن توفي الأول أثر أصابته بحجر المنجنيق وهو مقيم على حصارهم بالاسكندرية ، فى شهر صفر سنة ٢٠٥ هـ (اغسطس سنة ٨٢٠ م) ، وتوفى الثانى بعده بثلاثة أشهر ، فى شهر جمادى الأولى (نوفمبر) السنة . واذ ذاك قدر للاندلسيين الانفراد نهائيا بحكم الاسكندرية دونما متاعب من حكومة الفسطاط التى تنازع عليها أفراد من أسرتى السرى والجروى . حتى انتهى هذا الوضع الشاذ سنة ٢١١ هجرية (٨٢٦ م) عندما خلص أمر الفسطاط لعبد الله بن طاهر بن الحسين ، مولى خزاعة وقائد جيش الخليفة المأمون العباسى (٦١) .

— ونستطيع القول بأن هؤلاء البحريين الأندلسيين قد مارسوا نشاطا بحريا ضد المراكز البيزنطية المنتشرة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط خلال فترة استيلائهم على الاسكندرية ، تحقيقاً لهدفهم الرئيسى من وجودهم بتلك المنطقة . يدلنا على هذا وصف ساويرس لهم بأنهم « اقاموا على هذه القضية (يعنى العادة) من مصر الى جزائر الروم يذهبون ويجيبون (كذا بالنص) السبى الى الاسكندرية » ، ويبيعونهم كالعبيد . (٦٢) . ويبدو أن هؤلاء الأندلسيين قد اختصوا جزيرة اقريطش (كريت) بنصيب كبير من حملاتهم البحرية . فيشير د. ساليم الى انهم « بعثوا على اقريطش فى سنة ٢١١ هـ (٨٢٦ م) عشر سفن أو عشرين ، عادت بكثير من الاسرى والغنائم ، بعد ان عرفت المكان مغرقة دقيقة » (٦٣) .

وكان من الضرورى أن ينتهى هذا الوضع الشاذ الذى أمست مصر فيه اثناء فترة الصراع بين الأمين والمأمون وماتلاهما من انشغال المأمون بالقضاء على الفتن الداخلية التى واجهته ، سيما بعد أن استتب له أمر المشرق . فأسند المأمون هذه المهمة الى قائده

عبد الله بن طاهر بن الحسين الذي أقبل الى مصر سنة ٢١٠ هـ (٨٢٥ م) ، فتلقاه على بن عبد العزيز الجروى - الثائر بتنيس - « بالأموال والانزال وانضم اليه » ونجح عبد الله بن طاهر أخيرا فى اخضاع عبيد الله بن السرى بن الحكم - المتغلب على الفسطاط - وآلت اليه ولاية مصر فى شهر ربيع الأول سنة ٢١١ هـ (يونية ٨٢٦ م) (٦٤) . ثم عزم عبد الله بن طاهر على المسير الى الاسكندرية لطرد الأندلسيين من المدينة ، فبعث على مقدمة جيشه العباس وهاشم من قواد خراسان فى مستهل صفر سنة ٢١٢ هـ (مايو ٨٢٧ م) . ثم ادركهما فى شهر ربيع الأول (يونية) حيث نزل على حصن المدينة وحاصرها « بضع عشرة ليلة » فاستسلمت وخرج اليه أهلها بالأمان . فاستقط فى يد الأندلسيين وطلبوا المصالحة ، فوافقهم ابن طاهر على ذلك بشرط الجلاء عن الاسكندرية الى « حيث أحبوا » دون ان يأخذوا فى مراكبهم « أحداً من مصر ولا عبداً ولا آبقا » ، فاذا خالفوا هذا الاتفاق حلت دماؤهم . وعلى الرغم من أن ابن طاهر بعث من فقتش على الأندلسيين مراكبهم ووجد فيها جمعا من الذين اشترط عليهم الا يخرجوا ، الا أنه لم ينزل بهم عقوبة المخالفة ، بل رجع عن أمره بإحراق مراكبهم (٦٥) . وهكذا أبحر الأندلسيون من الاسكندرية فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ (يونية ٨٢٧ م) يقودهم زعيمهم أبو حفص عمر بن شعيب البلوطى ، المعروف بابن الغليظ أو بالغليظ ، من أهل قرية بطروج من عمل فحس البلوط المجاور لمدينة قرطبة ، الذى كان من الطبيعى ان يختار جزيرة اقريطش منزلا لرفاقه ، لسابق معرفتهم بها خلال مدة تغلبهم على الاسكندرية (٦٦) .

مما سبق يتضح لنا الآتى :

١ - أنهم جماعات من البحريين من أهل الساحل الشرقى لشبه جزيرة الأندلس صنعتهم الغزو البحرى للسواحل الافرنجية

وجزر البحر المتوسط التابعة للبيزنطيين . ولا مجال هنا للخلط بين ظهورهم على هذا النحو أمام ساحل الاسكندرية - اثر غزوة قاموا بها على أحد المراكز البحرية البيزنطية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط - وبين بعض الثورات التي شهدتها بعض المدن الأندلسية قريبا . من ذلك الوقت ، خاصة ثورة الربض الشهيرة في قرطبة على أيام الأمير الأموي الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م) (٦٧) .

٢ - وعلى الرغم من أن جماعات البحرين هؤلاء قد اشتركوا - في بعض الأحيان - في خدمة الدولة الأموية بالأندلس ، مقابل أرزاق معلومة ، إلا أنهم في مغامرتهم هذه المرة لم يكونوا يعملون لحساب حكومة قرطبة . وقد وضح هذا من خلال دخولهم في فلك الخلافة العباسية التي كانت تسيطر على الشرق الأدنى الإسلامي بما فيه مصر وأفريقية . ونتج عن هذا أن اقريطش أصبحت في التقسيم الإداري للدولة العباسية اقليما تابعا لمصر (٦٨) .

ويستنتج د . سعد زغلول من هذا أن خروج الأندلسيين من الاسكندرية الى اقريطش سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) إنما تم بمعرفة الخلافة العباسية « أو تحت اشرافها » ، في الوقت الذي كان الأغالبة - نواب العباسيين في ولاية افريقية - يقومون فيه بغزو جزيرة صقلية التابعة للدولة البيزنطية « حتى تتم مفاجأة الروم في جبهتين دفعة واحدة » (٦٩) . وقد يؤكد صحة هذا الاستنتاج ما رواه ابن الأبار عن تفاصيل خروج الأندلسيين من الاسكندرية من أن عبد الله بن طاهر قد « صالحهم على التخلي عنها على مال بذله لهم » (٧٠) . وهو ما يعد تفسيرا مقبولا لخروجهم من الاسكندرية بغير مقاومة كبيرة ، إذ إن الروايات لا تشير الى أي صعوبة في اخراجهم من المدينة سوى حصار ابن طاهر لهم لمدة

« بضع عشرة ليلة » (٧١) ، مع انهم أناس طاب لهم المقام بالمدينة طيلة إحدى عشرة سنة وأربعة أشهر (٧٢) .

٣ - وكان استيلاء البحريين الأندلسيين على مدينة الاسكندرية من قبيل التطورات غير المحسوبة التي ترتبت على ظهورهم أمام ساحل الاسكندرية قبيل شهر رجب سنة ١٩٩ هـ (فبراير ٨١٥ م) « ليقناعوا ما يصلحهم » في فترة كانت الاضطرابات تسود الاسكندرية ومصر كلها نتيجة للقلقل التي سادت المشرق الاسلامي كله خلال فترة الصراع بين الامين والمأمون . كما انها كانت حادثة فرعية غير ذات مضامين سياسية بعيدة تؤثر - بشكل أو بآخر - على العلاقات بين المجتمعات الاسلامية حول البحر المتوسط . وقد بدا هذا واضحا بعد خروج الأندلسيين من الاسكندرية واستيلائهم على جزيرة اقريطش التابعة للدولة البيزنطية ، وهو ما عد تصحيحا لمسار حركة هؤلاء الغزاه البحريين . فقد استمر التعاون بين مسلمي اقريطش - من البحريين هؤلاء - وبين مصر والشام التابعتين لحكومة بغداد العباسية من أجل القيام بعملياتهم البحرية ضد المراكز البحرية البيزنطية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، حتى سقطت الجزيرة نهائيا في أيدي البيزنطيين في محرم سنة ٣٥٠ هـ (مارس ٩٦١ م) من حكم الامبراطور رومانوس الثاني (٩٥٩ - ٩٦٣ م = ٣٤٨ - ٣٥٢ هـ) (٧٣) .

وأخيراً فقد تخلل هذه الفترة - وبالتحديد في سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) - قيام دولة الأغالبة في حكم ولاية افريقية ، معلنة بذلك نهاية الفترة التي لعبت فيها مصر دورها الهام في حماية النفوذ العباسي في المغرب ، أو بعبارة أخرى انتهاء مرحلة وصاية مصر على المغرب . ورغم ما كان يعنيه هذا من بعض

الحساسية التي كان من المنتظر أن تخيم على جو العلاقات بين الدولتين خاصة ان الاغلبية الاوائل سعموا الى تأكيد استقلال دولتهم ليس فقط عن مصر بل أيضا عن الخلافة العباسية ذاتها(٧٤) ، فان شيئا من ذلك لم يحدث . على العكس تميزت العلاقات بين الدولتين - عامة - بطابع الود ، وحسبنا عدم حدوث ثمة ما يشير الى عداء صريح بين ولاية مصر العباسيين وبين حكام القىروان . ولم لا ؟ وابراهيم بن الأغلب - رأس الأسرة الأغلبية - نفسه (١٨٤ - ١٩٦ هـ = ٨٠٠ - ٨١٢ م) قد أقام في بداية حياته بمصر وتلقى العلم على علمائها ، وخاصة الليث بن سعد فقيه مصر العظيم الذى اهداه جاريته جلاجل أم ولده زيادة الله (٧٥) . وكذلك أخوه عبد الله بن الأغلب الذى آثر الإقامة بمصر مع ابنه - وكان احدهما يدعى محمد والآخر ابراهيم . وقد استمرت إقامة عبد الله الذى وصف بانه « كان ذا نعمة عظيمة » ، بمصر حتى وفاته ، فارتحل ابنه الى افريقية(٧٦) . وقد حرص والى مصر السرى بن الحكم (اثناء ولايته الثانية ٢٠١ هـ حتى وفاته ٢٠٥ هـ = ٨١٧/١٦ - ٨٢٠ م) على ايواء الأغلب بن ابراهيم ابن الأفلب الذى لجأ الى مصر مع ابنى أخيه عبد الله : محمد وابراهيم ، فرارا من بطش الأمير الأغلبى الحاكم زيادة الله الأول بن ابراهيم (٢٠١ - ٢٢٣ هـ = ٨١٧ - ٨٣٨ م) ، ولم يحاول أن يستغل وجودهم بمصر فى شىء . بل ان السرى سمح لهم بالعودة الى القىروان ، بعد أن أرسل الأمير زيادة الله يستعطف أخاه الأغلب ويطلب عودته . ولم نسمع عنهم خلال اقامتهم بمصر شيئا ، وبعد عودتهم الى القىروان . فقط صار الأغلب مقربا من أخيه زيادة الله مكرما عنده ، حتى آل اليه حكم الاغلبية بعد وفاة زيادة الله(٧٧) .

وقد انعكست هذه العلاقات الودية على أوضاع الوافدين الى مصر ابتداء من منتصف القرن الثانى الهجرى ، على وجه التقريب (الربع الأخير من القرن الثامن الميلادى) . اذ تمتعوا بقسط كبير من الحرية أتاح لهم مباشرة شئون حياتهم فى سهولة ويسر . فانتشروا فى مدن مصر وقراها يتدارسون علوم الدين فيما بينهم وبين علماء مصر ، ومارس بعضهم حرفا عديدة من أجل كسب العيش ، وعاش بعضهم كجماعات لها كيانها الخاص فى الأماكن التى خصصت لايواء الغرباء وعابرى السبيل الطارئين على البلاد . كما سنبين فيما بعد .

هذا ، ونود الإشارة — قبل أن نختم الحديث عن هذا العصر — الى ان الاضطرابات التى فدت دلتا مصر مباءة بها ، خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجرى (٩ م) (٧٨) ، قد أتاحت الفرصة لاعداد البربر المقيمين فى أرض البحيرة خاصة ، كي يبدأوا فى ممارسة هواية ، سيتضح فيما بعد انها كانت اثرية لديهم الا وهى القيام ببعض الاغارات على الممتلكات المجاورة . مستغلين فى ذلك انشغال ولاة القسطنطينية بمعالجة الفتن الناشئة .

وأول مثال على ذلك يسوقه لنا ساويرس فى معرض حديثه عن جهود البطريق يعقوب (٨١٠ - ٨٢١ م = ١٩٥ / ١٩٦ هـ ٢٠٦ هـ) لمحو آثار المحنة التى تعرض لها نصارى البحيرة « لأن البربر كانوا قد نهبوا جميع أموالهم ، وهدموا البيع ، وأحرقوا القلالى (هى المذابح التى توضع فيها القرابين والنذور بقاعات الكنائس) بالنار » . حدث هذا بينما كان الصراع فى مدينة الاسكندرية على أشده بين غزاة البحر الأندلسيين وأهل المدينة ، وكان النزاع محتدما بين الجروى الثائر بتفيس والسرى بن الحكم المتغلب على القسطنطينية (٧٩) .

ولعل بربر البحيرة هؤلاء كانوا بين « الموالي » الذين انضموا - مع جيرانهم نصارى المنطقة - تحت زعامة جابر بن الوليد المدلجى ، من بنى الهجيم بن عثارة بن عمرو بن مدلج ، فى ثورته بناحية الاسكندرية على حكومة الفسطاط ، ابتداء من شهر ربيع الآخر سنة ٢٥٢ هـ (ابريل ٨٦٦ م) حتى انتهى امره فى شهر رجب سنة ٢٥٣ هـ (يولية ٨٦٧ م) . ويدعوننا الى القول بذلك ان ارض البحيرة جميعها - من تخوم الاسكندرية شمالا حتى مشارف الفيوم جنوبا - كانت مسرحا للعمليات العسكرية التى قام بها الثوار (٨٠) . وهى امور سنجد لها امثلة اخرى أكثر وضوحا فى الفترات التالية .

الهوامش

(١) الكندى : ولاية مصر ، ص ٦١ . ورغم أن هذه التبعية الادارية قد انتهت اثر تعيين محمد بن يزيد القرشى بالولاء ، واليا على المغرب فى سنة ٩٧ هـ (٧١٥ م) ، فان المغرب ظل مرتبطا بمصر بعلاقة أخرى ادارية تمثلت فى أن بعض ولاية المغرب كانوا ولاية سابقين على مصر . مثلما حدث مع بشر بن صفوان الكلبى ، الذى ولى أمر المغرب من سنة ١٠٣ هـ (٧٢١ م) ، وكان قبل ذلك واليا على مصر فى سنة ١٠١ هـ (٧١٩ م) . انظر : (المصدر نفسه : ص ٩١ - ٩٢) .

(٢) مثال ذلك ما حدث عند خروج القائد حسان بن النعمان على رأس حملة عسكرية الى افريقية سنة ٧٤ هـ (٦٩٣ م) ، فقد قال له الخليفة الاموى عبد الملك ابن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ - ٦٨٥ - ٧٠٥ م) « انى قد أطلق يدك فى أموال مصر فاعط من معك ، ومن ورد عليك ، واعط الناس ، واخرج الى بلاد افريقية على بركة الله وعونه » . انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٤ .

(٣) وقد استعمرت هذه المعونة المالية تخرج من مصر الى المغرب حتى تنازل عنها ابراهيم بن الأغلب - رأس الأسرة الأغلبية - عند توليه الحكم فى ولايه افريقية سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) . عن ذلك انظر : ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٦ ، وابن خلدون : العبر (طبعة بولاق) ، ج ٦ ، ص ١٩٦ .

(٤) الكندى : ولاية مصر ، ص ٩٥ و ٩٦ و ٩٨ ، وابن عذارى : البيان ، ج ١ ، صفحة ٥١ . وج ٢ ، ص ٢٩ . وانظر : ابن الأثير : الحلة السيرة ، تحقيق د . حسين مؤنس ، ط ١ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٢ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٨ ، ترجمة رقم ١٨٢ . وراجع : د . سعد زغلول : تاريخ المغرب ، ج ١ ، صفحة ١٧٨ وهامش رقم ٩٨ .

- (٥) د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٦ - ٦٢ .
- (٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٧٠ ، والبلاذري : فتوح البلدان ، القسم الأول ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ، والكندي : ولاية مصر ، ص ٣٣ .
- (٧) د. مؤنس : المرجع السابق ، ص ٥٤ - ٥٥ .
- (٨) راجع : ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ مع ملاحظة هامش تحقيق رقم ١٨ ، والكندي : ولاية مصر وقضائها ، تحقيق رفن جست ، مطبعة الأباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ ، الجزء الأول من كتاب القضاة ، ص ٣٠٥ ، وهامش تحقيق رقم ٢ . وسيلي الحديث عن هذه اللقاءات بشيء من التفصيل في الفصل الثقافي .
- (٩) عن قصة بيع الأبناء التي أقرها عمرو بن العاص مع أهل برفة ، انظر : ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ١٧٠ ، والبلاذري : المصدر السابق ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ، والبكري : المغرب ، ص ٤ - ٥ . ولزيد من التفصيل ، راجع : د. محمد عبد المولى : الفوى السنية في المغرب ، ص ٦ - ٩ . وسيلي الحديث عن هذه السياسة وعن بعض ثمارها في الفصل الثقافي .
- (١٠) انظر في ذلك : البلاذري : ص ٢٥٩ . وراجع كذلك مقولة ابن عبد الحكم (فتوح مصر والمغرب ، القسم التاريخي ، تحقيق عبد المنعم عامر ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨) عن مدى اليسر الذي تخلل أحداث فتح القيوم ، وكيف أن أهلها - الذين سبوا الإشارة إلى أن كان بينهم لواتيون - « لم يكن عندهم قتال ، وألقوا بأيديهم » .
- (١١) الكندي : ولاية مصر (تحقيق د. حسين نصار) ، ص ٣٦ .
- (١٢) المصدر نفسه والصفحة وقد سميت هذه البقعة بوقعة الحدق ، بكثرة ما أصابت رماح البجة عيون كبار القادة للمسلمين الذين شاركوا في القتال . وسنرى أمثلة تالية لاستمرار اغارات البجة على جنوب مصر .
- (١٣) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٥٤ .
- (١٤) المصدر نفسه : ص ١٥٥ . ونعتقد أن الأمر كان يتطلب بقاء حامية اسلامية ، أقام أفرادها في أرض الواحات للمشاركة في حماية المنطقة ، وفي تعليم البربر هناك قواعد الدين الاسلامي .
- (١٥) نستدل على هذا من واقع اشارات الجغرافيين عن ارتفاع كثافة بربر لواته ، خاصة ، في منطقة الحدود الغربية لمصر مع ليبيا . راجع في ذلك ما سبق

من صفحات فصل المدخل ، ص ٤٣ - ٤٤ . وستلى اشارة أخرى عن هجرات بربرية شهدتها المنطقة خلال الفترات التالية .

(١٦) يقول ابن خلدون : « ان البربر ارتدوا بإفريقية والمغرب الثنتى عشرة مرة » بمعنى انهم قاوموا الفتح الاسلامى لبلادهم كل هذه المرات . ولهذا طالت عمليات الفتح العسكرى الاسلامى لنواحي المغرب بشكل لم يحدث فى غيرها من عمليات الفتح الأخرى انظر فى ذلك : العبر (طبعة بيروت) ، ج ٦ ، ص ٢٠٥ .

(١٧) الكندى : ولاية مصر (تحقيق د. حسين نصار) ، ص ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ .

(١٨) المصدر نفسه : ص ٥٥ - ٥٦ . وقد كانت ثورتهم تلك امتدادا لحرارة عصيان قاموا به ابتداء من سنة ٤٠ هـ (٦٦٠ م) ، وتكرر سنة ٤١ هـ (٦٦١ م) .

(١٩) نفسه : ص ٤٢ .

(٢٠) نفسه : ص ٦٣ - ٦٧ . ويذكر الكندى أن أنصار ابن الزبير فى مصر كانوا من الكثرة وشدهم المقاومة بحيث اضطر الخليفة مروان الى الدخول فى حوار زعيمهم كريب بن أبرهة اللخمي ، خوفا من أن يتعرض للاغتيال . (المصدر نفسه ، ص ٦٨) .

(٢١) نفسه : ص ٨٥ . مع ملاحظة أن الكندى وصف الخوارج بكلمة « الشراة » جمع شارى . وهو اسم أطلقه الخوارج على أنفسهم - فيما يبدو - . بمعنى أنهم باعوا أنفسهم لله واشتروا آخرتهم بدنياهم . أخذا من القرآن الكريم فى قوله تعالى (سورة البقرة ، آية ٢٠٧) : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد » .

(٢٢) المصدر نفسه والصفحة . وانظر : د. سعد زغلول : الأثر المغربى والأندلسى ص ٢٢٣ .

(٢٣) المصدر نفسه : ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ط ١ ، ج ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ٣٤٩ . ويبدو أن اتصال ثوار أهل برقة بأبى الخطاب كان وثيقا لدوجة جعلت ابن تغرى بردى يذكر أن أبى الخطاب هو نفسه الذى قام بالثورة فى برقة .

(٢٥) الكندي : المصدر السابق ، ص ١٣٧ . وراجع كذلك : المقرئى :
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، أو خطط المقرئى ، تحقيق د. محمد
مصطفى زيادة ، فى ثلاثة أجزاء عن طبعة بولاق ، دار التحرير للطبع والنشر ،
القاهرة ١٩٦٧ - ١٩٦٨ ، ج ١ ، ص ٥٧٧ .

(٢٦) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧ و ٧١ .

(٢٧) الكندي : ص ٢١٤ .

(٢٨) لعل العبارة هكذا : « وكانوا من مسراته » من فروع بنى اللهان أحد
أفخاذ قبيلة هواة التى سبق ان رأينا انها استقرت فى منطقة الساحل الشمالى
الغربى لمصر حتى أرض العقبة (عقبة السلوم) ، وبكثافة من « آخر عمل سرت
الى طرابلس » . راجع : اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٤٦ . أو ربما كانت « وكانوا
من مزاته » من فروع لواته التى طمى نفوذها على كل صحراء مصر الغربية . ونستبعد
أن تكون القراءة « من المسالته » ، لأن هذا الفرع ينتمى لقبيلة كتامة البرانسية التى
استقرت فى المغرب الأوسط ، ولم يكن لها هذا التغلغل فى صحراء مصر الغربية .
وكذلك نستبعد أن تكون « من المسالة » على نحو ما رأى د. عبادة عبد الرحمن
كحيلة (مصر ومشروع عبد الرحمن الداخل فى بحث الخلافة الأموية بالشرق ،
مقال ضمن ندوة مصر وعالم البحر المتوسط ط ١ ، دار الفكر للدراسات والنشر
والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١٩٧) . وذلك لما تسببه هذه الكلمة من أنهم
كانوا حديثى عهد بالاسلام أو اهل ذمة داخلين فى الاسلام بينما بدا أنهم متمسكون
فى الاسلام لدرجة أنهم كانوا أصحاب فكر ومذهب .

(٢٩) الكندي : ولاية مصر ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٣٠) المصدر نفسه والصفحات . ولعل الدير المنصود هذا : هو دير أبى
شدودة المشهور بمدينة أخميم من صعيد مصر . وسبب شهرته ما قيل عن احتوائه
على رفات اثنين من حوارى السيد المسيح عن ذلك راجع : (اليعقوبى : صفحة
٣٣٢) . أما « بويط » و « فار » فقد كانت الأولى من أعمال بنى سويف الحالية
والثانية من أعمال نجع حمادى . عنهما انظر : د. عبد المنعم الشامى مدق مصر
ولراها ، شكل رقم ١٠ ، ورقم ١٥ .

(٣١) عن هزيمة دحية وأسرهم ومقتله ثم صلب جثته فى القسطنطينية ، انظر :

الكندى : المصدر نفسه ص ١٥٤ وهامش تحقيق رقم ٢ .

(٣٢) الكندي : ولاية مصر وقضائياتها (تحقيق د. جاست) ، ص ٣٦٢ .

(٣٣) لعل في اشتداد حدة النزعة الخارجية انذاك بين بربر برقة وفي ارض الواحات - كما المعنا - لما يدل على أن هذه المناطق كانت تستضيف بعض أئمة هذا المذهب

(٣٤) المصدر نفسه والصحة . ولعل الرد الذي كتبه القاضي غوث الى أبي الخطاب لم يكن فيه ما يشين القاضي . بيد أن الخليفة المنصور العباسي قد استشاط غضبا بمجرد أن وصل الى مسامحه ببغداد نبأ اتصال القاضي غوث بالثائر الذي كانت وطأته قد ثقلت على الخلافة ، ولهذا أصدر قراره بعزله وحجسه . وعندما وضع للخلافة العباسية في عهد خلفه محمد المهدي حقيقة موقف القاضي غوث ، صدر القرار بتبرئته وعودته الى منصبه .

(٣٥) عن تفاصيل الفتنة التي تعرض لها الامام عبد الوهاب واستشهاديه لعلماء المذهب في مكة وفصر ، ودور شعيب المصري ورفاقه في تاهرت ، انظر : أبو زكريا : كتاب السيرة ، وأخبار الأئمة ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٩٠٣٠ ح ، ص ١٥ - ١٩ والدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢٥٦١ ح ، ص ٢٢ - ٢٥ ب . وصورة ميكروفيتم عن هذه السسخة في جزئين أرقام ٥٨٧٢ و ٢٣٩٥٠ ، ج ١ ورقات ٨ ظهر و ٩ وجه . وقد طبع هذا المخطوط بعنوان « طبقات المشايخ بالمغرب » تحقيق ابراهيم صلاي ، في جزئين ، ط ١ ، مطبعة البعث ، قسطينة ، الجزائر ١٩٧٤ . وراجع : د . سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، ج ٢ ، ص ٣١٩ - ٢٢٣ .

(٣٦) د . أحمد مختار انعبادي : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، ج ١ ، الاسكندرية ١٩٦٨ ، ص ٥٠ - ٥١ وهامش رقم ٤ ص ٥٠ . حيث يشير الى أن هذه الرسالة حوت بنصها الكامل في الجزء الثاني من سيرة امام اليمن المؤيد بالله محمد بن القاسم في رسالة له وجهها اليه أهل المغرب في سنة ١٠٤٨ هـ (١٦٣٨ م) . وهو مخطوط بمكتبة الامبروزيانا بميلانو تحت رقم ١١٥ ، ورثة ٧١ - ٧٥ وتوجد صورة لها في خزنة الرباط . وراجع : د . محمد عبد المولى : القوي السنية ، ص ٥٣٧ .

(٣٧) أبو عبد الله التتسي : نظم الدر والعقيان ، تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجيات بعنوان « تاريخ دولة الادارسة واخوتهم السليمانيين » ، مجلة التاريخ

بالمركز الوطنى للدراسات التاريخية ، الجزائر ، النصف الثانى من سنة ١٩٨٠ ،
ص ٢٧ - ٢٨ و ٣٠ .

(٣٨) مثل ثورة على بن محمد الحسنى فى سنة ١٤٤ هـ (٧٦١ م) وهو
اول علوى قدم مصر . انظر : الكندى : ولاية مصر (تحقيق د. حسين نصار)
ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٣٩) الكندى : ولاية مصر (تحقيق د. حسين نصار) ، ص ١٨٣ . وعن
نشأة البحرية الأندلسية وجهادها ضد القوى المسيحية فى البحر المتوسط ،
انظر : د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر
الأبيض المتوسط ، ج ٢ فى المغرب والأندلس ، بالاشتراك مع د. أحمد مختار
العبادى مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية ، ص ١٤٧ - ١٦١ ، ود. أحمد مختار ،
العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٤٣ - ١٤٤ ، انظر : أرشيبالد
(لويس) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد
محمد عيسى ومراجعة د. محمد شعيق غربال ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة
١٩٦٠ ، ص ١٦٩ - ١٧٠ . يجب يؤكد أن هؤلاء البحريين الأندلسيين كانوا دأون
من كشف ضعف بيزنطة (انذلك)

(٤٠) الكندى : المصدر السابق ، ص ١٨٨ . ود. سالم : تاريخ الإسكندرية ،
ص ١٤٣ .

(٤١) المقرئى : خطط ، ج ١ ، ص ٣٢٢ . ود. سالم : المرجع السابق
والصفحة

(٤٢) الكندى : ص ١٧٩ و ١٨٨ .

(٤٣) المصدر نفسه . ص ١٧٩ .

(٤٤) المصدر نفسه : ص ١٨٣ . وراجع : د. عبدة الله خورشيد البرى :
القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، دار الكاتب للطباعة
والنشر القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٤٢ - ١٤٤ و ١٥٧ .

(٤٥) الكندى : ص ١٨٣ .

(٤٦) المقرئى : خطط . ج ١ ، ص ٣٢٢ . يقول المقرئى أن الرجل ،
وكان يعمل مصابا قد ضرب وجه الأندلسى بـ « كرش الديبحة » .

(٤٧) الكندى : ص ١٨٣ . ود . سالم : تاريخ الاسكندرية ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٤٨) عن السرى بن الحكم وكيفية وصوله لمنصب الولاية في مصر ، ونمهيده لحكم أبنائه من بعده انظر بالتفصيل : د . حسين نصار : دولة مهملة في تاريخ مصر الاسلامية « آل السرى بن الحكم » ، مقال بمجلة (المجلة) ، عدد ٣ شهر مارس ١٩٥٧ ، ص ١٠٠ - ١٠٤ .

(٤٩) الكندى : ص ١٨٦ . ود . سالم : تاريخ الاسكندرية ، ص ١٣٩ .
(٥٠) المصدر نفسه والمرجع ، والصفحات وما يليها ،
(٥١) نفسها .

(٥٢) الكندى : ص ١٨٨ ، والمقرئى : خطط ، ج ١ ، ص ٣٢٣ . ويرجع الدكتور سالم ان « الكنانى » هذا ربما كان من أبناء الرواحى بن عبد العزيز (أو عبد العزى) الكنانى ، الذى لعب دورا هاما في الانتزاع بمصر ، في آخر الدولة الاموية ولكنه انهزم في الحوف الشرقى ونفى من مصر (وانظر الكندى : ص ١١٦) ، ثم مضى الى الأندلس واشترك في الصراع بين العصبيتين اليمانية والمضرية ، وكان من مؤيدى عبد الرحمن الداخل ثم القلب عليه ، فتآمر مع بعض الفوار في سنة ١٦٤ هـ (٨٠ / ٧٨١ م) ضد الأمير ، واضطر أخيرا الى الفرار الى المشرق ويبدو ان أولاده ظلوا في الأندلس ، ولعل محمد بن الرواحى قائد اساطيل الأندلس زمن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م) - كان واحدا منهم ، فهي أسرة عرمت بالمغامرات . عن ذلك انظر : تاريخ البحرية الاسلامية ، ج ٢ في المغرب والأندلس ، ص ٧٨ هامش رقم ١ .

(٥٣) الكندى : ص ١٨٨ . ود . سالم : تاريخ الاسكندرية ، ص ١٤٠ .

(٥٤) الكندى : ص ١٨٨ ، والمقرئى : خطط ، ج ١ ، ص ٣٢٣ .

(٥٥) ابن الأبار : الحلة السيواء ، ج ١ ، ص ٤٥ .

(٥٦) تجدر الإشارة الى أن مرقس الثانى - وهو رقم ٢٦ في عداد بطارقة الكنيسة المصرية - قد تولى البطريركية في سنة ٧٩٠ م / ١٧٤ هـ (واستمر حتى وفاته في سنة ٨١٠ م / ١٩٥ / ١٩٦ هـ) . أى قبل ظهور الاندلسيين بالاسكندرية وتغلبهم عليها بأكثر من ثلاث سنوات . فلعل المعنى بالأمر هنا هو خليفته البطريرك يعقوب (٨١٠ - ٨٢١ م = ١١٥ / ١٩٦ - ٢٠٦ هـ) عن ذلك انظر : ساويرس

ابن المقفع : تاريخ البطارقة اعداد وتعليق الراهب صموئيل السرياني ، معهد
الدراسات القبطية ١٩٨٤ ، ص ٣ الثبت الخاص بسنى حكم البطارقة .

(٥٧) صديق شيبوب : جمهورية أندلسية بالاسكندرية ، مقال بمجلة (الكتاب)
عدد فبراير سنة ١٩٤٩ ، ص ٢٣٤ . ويدلنا واقع النص - وانحوذ عن ساويرس
(تاريخ البطارقة ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥) - على انه اما كان في الامر بعض الالتباس
بصدد تحديد شخصية البطريق الذي عاصر بداية هذه الازمة واما كان قدوم
الاندلسيين الى الاسكندرية قد حدث في تاريخ سابق على ما تم تحديده آنفا (شهر
رجب ١٩٩ هـ = فبراير ٨١٥ م) بثلاث سنوات او اكثر .

(٥٨) الكندي : ص ١٨٨ ، وشيبوب : جمهورية أندلسية ، ص ٢٣٦ .
ود . سالم : تاريخ الاسكندرية ، ص ١٤٣

(٥٩) الكندي : ص ١٨٨ ، والمقريري : خطط ، ج ١ . ص ٣٢٣ ، ود . سالم :
المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٦٠) ولاية مصر ، ص ١٩٣ ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٢٢ ، تاريخ مدينة
الاسكندرية ص ١٤١ .

(٦١) المصادر والمراجع السابقة والصفحات . وراجع كذلك : د . حسين نصار :
دولة مهيمنة ، المقال ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٦٢) تاريخ البطارقة ، ص ٢٤٣ .

(٦٣) تاريخ الاسكندرية ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٦٤) الكندي : ص ٢٠٤ و ٢٠٦ .

(٦٥) المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ .

(٦٦) د . سالم : المرجع السابق ، ص ١٤٣ . ويسميه المقريري « أبو حفص
عمر بن عيسى » ، انظر : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٢٣ .

(٦٧) قام بهذه الثورة اهالي البربخ القبل لمدينة قرطبة (أي الحي الجنوبي
للمدينة) المعروف ببربخ شقنده . Secunda على الامير ، لحكم ، اثر مقتل
احدهم على يد مملوك للامير . وقد استشرت هذه الثورة بسرعة بين سكان قرطبة
وباقى ارباضها لسيطهم على أسلوب الامير في الحكم : اقتداسه على قتل جماعة من
اللقهاء المناوئين له . وكانت ثورة عارمة اضطر الحكم خلالها لاستخدام اساليب

البطش والانتقام من الأماي حتى تمكن من اخضاع ثورتهم ، وصار يعرف بالربض لذلك . وقد اختلفت الروايات في تاريخ قيام هذه الثورة :

— فابن تغرى بردى يجعلها في شهر رمضان سنة ١٩٨ هـ (مايو ٨١٤ م)
انظر : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

— ويتفق ابن الأثير والنويرى على انها حدثت في خلال تلك السنة (١٩٨ هـ = ٨١٤ م) . انظر : الكامل ، ج ٦ ، ص ١١٠ - ١١١ ، ونهاية الأرب في فنون الادب ، ج ٢٣ تحقيق د . أحمد كمال زكي ومراجعة د . محمد مصطفى زيادة ، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩١٠ ، ص ٣٧٠ .

— وحددها ابن الأبار تحديدا دقيقا في يوم الأربعاء ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ هـ (٢٥ مارس ٨١٨ م) انظر : الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ٤٤ .

— وأكد ابن عذارى على انها حدثت في خلال هذه السنة (٢٠٢ هـ - ٨١٨ م) انظر : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

— وفد تعرض الدكتور سالم المناقشة هذه الآراء جميعها منسبا الى صحة التاريخ الذى حدده ابن الأبار كبداية لقيام هذه الثورة (الأربعاء ١٣ رمضان ٢٠٢ هـ = ٢٥ مارس ٨١٨ م) . انظر : تاريخ الاسكندرية ، ص ١٣١ - ١٣٣ ، وتاريخ البحرية في المغرب والأندلس ، ص ٧٠ - ٧٣ .

— وراجع كذلك : د . سعد زعلول عبد الحميد : الاسكندرية من الفتح العربى حتى العصر الفاطمى ، مقال بكتاب تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور أصدرته محافظة الاسكندرية سنة ١٩٦٣ ، ص ٢٦٧ . حيث يؤكد على ضرورة التمييز بين ثوار ربض قرطبة وبين عزاء البحر الأندلسيين الذين تغلبوا على الاسكندرية .

(٦٨) د . ابراهيم أحمد العدوى اقريطش بين المسلمين ولبيزنطيين في القرن التاسع الميلادى . مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثالث ، العدد الثانى أكتوبر ١٩٥٠ ، ص ٥٩ . وراجع : د . سالم : تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٨٣ ، ونفس المؤلف تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، بالاشتراك مع د . أحمد مختار العادى مؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية ، نسخة مصورة عن طبعة بيروت ١٩٧١ ، ص ٤٢ .

(٦٩) د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٧٠) الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ٤٥ . ويؤكد ابن الأثير (الكامل ، طبعة مصر ١٢٩٠ هـ ، ج ٦ ، ص ١٤٧) على أن ابن طاهر تمكن من اخراج الأندلسيين من الاسكندرية « بآمان » .

(٧١) يشير ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٩٢) الى أن الأندلسيين « نزحوا عنها (أى الاسكندرية) قبل وصول عبد الله بن طاهر ، خوفا منه » .

(٧٢) وفي حديثه عن العلاقات الودية التي كانت تربط الأمويين في قرطبة بالبيزنطيين في القسطنطينية يشير الأستاذ بروفنسال الى أن الأمير الأموي عبد الرحمن الثاني ، أو الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ - ٨٢٢ - ٨٥٢ م) قد أنكر في رسالته الى الامبراطور البيزنطي تيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢ م = ٢١٤ هجرية - ٢٢٨ هـ) صلته باستيلاء هؤلاء الأندلسيين على جزيرة كريت . عن ذلك انظر : الاسلام في المغرب والأندلس ، ترجمه د. السيد عبد العزيز سالم والأسناد محمد صلاح الدين حلمي ومراجعة د. لطفى عبد البديع ، سلسلة الألف كتاب (رقم ٨٩) مكتبة نهضة مصر ١٩٥٦ صفحة ١٠٠ - ١٠٤ .

(٧٣) د. العدوى : اقريطش ، ص ٦٠ وما بعدها . ود. سالم : تاريخ البحرية في المغرب والأندلس ، ص ٨٣ و ٨٦ وما بعدها .

(٧٤) يذكر في هذا الصدد ابن ابراهيم بن الأغلب - عند توليه الحكم في افريقية - رفض المعونة المالية السنوية وقدرها مائة ألف دينار ، التي كانت تمنحها الخلافة العباسية لولاة المغرب من خزائن مصر . بل عرض ابن الأغلب مقابل ذلك أن يدفع هو أربعين ألف دينار سنويا للخلافة في بغداد . عن ذلك انظر : ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٦ ، وابن خلدون : العبر (طبعة بولاق) ، ج ٤ ، ص ١٩٦ ، والسلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج ١ ، ص ٦٠ .

- وانظر كذلك حادثة رفض الأمير زيادة الله الأول بن ابراهيم بن الأغلب طلب الخليفة المأمون له بأن يقر بتسليمه الادارية لوالى مصر عبد الله بن طاهر بن

الحسين . وقد أعلن زيادة الله رفضه هذا بشكل كان من الممكن أن يجلب عليه المتاعب مع الخلافة . عن ذلك انظر : ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ١٦٥ . وراجع : النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٤ تحقيق د . حسين نصار ومراجعة د . عبد العزيز الأهواني ، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١١٥ - ١١٦ . حيث ذكر جواب زيادة الله شديد اللهجة على الخليفة المأمون دون ابداء السبب بتمامه .

(٧٥) ابن الأبار : ج ١ ، ص ٩٣ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ص ٩٢ .

(٧٦) ابن الأبار : ج ١ ، ص ٩٣ .

(٧٧) ابن عذارى : ج ١ ، ص ٩٧ . وراجع : د . سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ، ج ٢ ، ص ٤٣ ، ود . محمود اسماعيل عبد الرازق : الاغالبه وسياستهم الخارجية ، مكتبة سعيد رافت بعين شمس ، ١٩٧٢ ، صفحة ٨٥ .

(٧٨) مثال ذلك : ثورات أهل الوجه البحرى المتكررة ابتداء من سنة ٢١٢ هجرية (٨٢٧ م) وتخللها حضور الخليفة المأمون العباسى بنفسه الى مصر لاصلاحها انظر : الكندى : ولاية مصر ، صفحات ٢٠٨ وما بعدها .

(٧٩) ساويرس : تاريخ البطارقة ، ص ٢٥٣ .

(٨٠) الكندى : ص ٢٣١ - ٢٣٦ - انظر مثلا عبارة « . . . وقوى أمر جابر ابن الوليد واتاه الناس من كل ناحية ، وضوى اليه من يومئذ اليه بشدة ونجده » وعن هذه الثورة كذلك انظر : د . سالم : تاريخ الاسكندرية ، ص ١٤٩ - ١٥٢ .

الفصل الثاني

« في عصر الدولتين الطولونية والاششيدية »
(٢٥٤ - ٣٥٨ هـ / ٨٦٨ - ٩٦٩ م)

ـ اولا : خلال حكم الطولونيين •

- ١ - ايام احمد بن طولون •
- ٢ - في عهد خلفائه •

ـ ثانيا : من الطولونيين الى الاششيديين :

- ١ - حملات الفاطميين على مصر •
- ٢ - تدهور احوال مصر ودور حبشى بن احمد ورفاقه •

ـ ثالثا : خلال حكم الاششيديين :

- ١ - ايام محمد بن طنج الاششيد •
- ٢ - في عهد خلفائه •

أولا : خلال حكم الطولونيين (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ - ٩٠٥ م)

١ - أيام أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ = ٨٦٨ - ٨٨٤ م)

ارتبطت السياسة التي اتبعها أحمد بن طولون تجاه المغاربة والأندلسيين الموجودين آنذاك بمصر - إلى حد كبير برغبته في تحقيق قدر من الاستقلال لنفسه بمصر عن سلطان الخلافة العباسية في بغداد .

وبصدد المغاربة المنتشرين في نواحي غرب مصر من بربرلواته وهوارة ، كان من الطبيعي أن يتصرف معهم على نحو أكثر حزمًا حتى لا يتمادوا في عمليات الشغب التي تكررت منهم قبل توليه حكم مصر . وقد انعكس هذا على أساليب البطش والشدّة التي اتبعها ابن طولون في اخماد الثورات التي واجهها بمصر منذ بداية حكمه ، وتصادف أن وقعت كلها على مقربة من مناطق سكنى هؤلاء البربر . وهو ما حدث مع أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا العلوي المعروف ببغا الأصغر الذي ثار على ابن طولون في شهر جمادى الأولى من سنة ٢٥٥ هـ (أبريل ٨٦٩ م) فيما بين الاسكندرية وبرقة ، وانتقل بثورته إلى الصعيد ، ثم قتل في شهر شعبان (يولية) السنة (١) . وتكرر مع إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن الحنفية ، المعروف بابن الصوفي العلوي الذي ابتدأت ثورته بصعيد مصر في سنة ٢٥٣ هـ (٨٦٧ م) ، ثم تفاقم خطرهما مع تولى أحمد بن طولون الحكم .

وقد سير ابن طولون اليه قائده بهم بن الحسين على رأس جيش كثيف العدد الحق بابن الصوفي سلسلة هزائم وقعت أخراها عند مدينة أخميم في شهر ربيع الآخر سنة ٢٥٦ هـ (مارس ٨٧٠ م) . واضطر ابن الصوفي على أثرها الى الفرار الى أرض الواحات حيث تشير الروايات الى أنه « أقام به (أى بأقليم الواحات) سنتين » (٢) .

وهنا نلاحظ عدم ورود أية إشارة الى تفاصيل إقامة ابن الصوفي في الواحات خلال هذه الفترة ، وكذا الى انعدام دور بربر الواحات فيما أعقب ذلك من أحداث . خاصة وان ابن الصوفي خرج بعد هاتين السنتين وبالتحديد في شهر المحرم من سنة ٢٥٩ هـ (نوفمبر ٨٧٢ م) - الى الأشمونين لمتابعة ثورته ، ثم الى أسوان التي فر اليها خوفا من مواجهة القوة التي أرسلها اليه ابن طولون بقيادة ابن أبي المغيث (٣) . وربما يعزى عدم ظهور دور بربر الواحات أثناء هذه المرحلة من ثورة ابن الصوفي العلوى ، الى أن لجوءه اليهم إنما كان بغرض الاستتار فقط ولم يصل الأمر الى حد طلب المساعدة . أو أن الطرفين لم يضلا الى اتفاق مرض لكليهما ، اذ كان على بربر الواحات أن يتأكدوا - هذه المرة - من صدق مزاعم ابن الصوفي وأنه لن يتصرف معهم مثل سابقه الثائر الأموى دحية بن مصعب . وربما كان السبب كذلك يعزى الى أن بربر الواحات آثروا الا يقحموا أنفسهم في مشاكل مع والى مصر القوي ابن طولون الذى كان يصدد احكام قبضته على أنحاء البلاد . وهو ما بدا لهم من خلال تتابع الامدادات العسكرية التى أرسلها ابن طولون للقضاء على ثورة ابن الصوفي . فآثروا كسب ود حكومة مصر حتى يتسنى لهم التفرغ لمواجهة هجمات البجة - سكان النوبة - وعيبتهم الفساد فى منطقة أسوان القريبة من الواحات . اذ كانت اغارات

البجعة على جنوب مصر قد أخذت - حينئذ - شبكلا خطيرا جعلت أبا عبد الرحمن العمرى ، وهو من أهل مدينة أسوان ، يهب نفسه لمجاهدتهم (٤) .

أما عن ابن الصوفى ، فقد انتهت حاله الى أن أصبح قاطع طريق ومصدر فتنة فى أسوان ، مما أوقعه فى صدام مع العمرى ، فقد خلاله معظم القوة التى معه . ثم فر أخيراً الى عيذاب - على ساحل البحر الأحمر - بعد أن سمع بمقدم قوات ابن طولون الى المنطقة للقضاء عليه ، وركب البحر الى مكة حيث أعاده أميرها أسيراً الى ابن طولون (٥) .

ورغم جدية ابن طولون فى معالجة أمر هذه الثورات ، إلا أن أهل برقة أبو القيسام بثورة عارمة على حكم ابن طولون ، الذى كان قد فرغ توا من اخضاع ثورة أبى الروح بسكن - من أصحاب ابن الصوفى العلوى - بصعيد مصر فى سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ / ٨٧٤ م) (٦) . وقام أهل برقة خلالها بطرد محمد بن غروخ الفرغانى والى الاقليم من قبل ابن طولون . وقد تطلب الأمر أن يرسل ابن طولون أسطوله فى البحر كى يعاون الحملات الثلاثة التى سبق أن سيرها لقتال الثائرين ، حتى تم القضاء على هذه الثورة . ثم تشدد فى معاقبة المتمردين بأحكام بلغت النهاية فى القسوة ، الى أن قيل بسبب ذلك « فسكنت رهبة أحمد بن طولون فى صدور الناس ، حتى كان يفرغ الصبيان والأطفال » (٧) .

وينقلنا الحديث عن ثورات أهل برقة - خلال فترة حكم ابن طولون الى ما قبل عن وجود علاقات عدائية استحكمت بين الطولونيين والأغالبية جيران مصر فى الغرب ، على أساس أن كلتا الدولتين - وفقاً لهذا رأى - تبادلتا تحريض سكان الحدود

المشتركة بينهما (في برقة من جهة ، وفي طرابلس من الجهة المقابلة) على الثورة ، كل ضد الحكومة التي خضعوا لها اداريا (٨) . وهو الراى الذى استند أصحابه - فيما يبدو - الى ما حدث فى سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) عندما خرج العباس بن احمد بن طولون على طاعة والده وفكر فى الاستقلال ببرقة ، التابعة يومئذ لمصر ، وان يضيف اليها ما أمكنه من طرابلس والأقاليم الشرقية من ممتلكات الأغالبة (٩) .

والحق اننا لم نلمس لهذا الراى أية اثار جانبية ، خاصة فيما يتعلق بالوجود المغربى فى مصر خلال هذه الفترة ، وبتعبير أدق ، فيما يتعلق بجماعات الوافدين الى مصر من الحجاج والدارسين المغاربة والأندلسيين ، الذين - على العكس من ذلك - تمتعوا برعاية واهتمام أحمد بن طولون بشكل لم يسبق له مثيل . فهو الذى جعل مسجده « ماوى للغرباء من المغاربة ، يسكنونه ويخلقون فيه (أى يعقدون حلقات الدرس) ، وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر » (١٠) . كما انه سمح لهم بتولى بعض الوظائف الهامة فى الدولة ، مثل وظيفة الشاهد العدل التى تولوها غير واحد منهم ، كما سنبين فيما بعد . وقد قيل ان أحمد بن طولون لجأ الى احتباء هؤلاء الوافدين - وبخاصة الأندلسيين منهم - تقربا للأمويين فى الأندلس . وذلك من باب الكيد للأمير العباسى الموفق. طلحة مدبر أمر الخلافة العباسية أثناء حكم أخيه الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ - ٨٧٠ - ٨٩٢ م) ، اذ كان العداء مستحكما بين ابن طولون وبينه (١١) .

ولم يمنع هذا من استعمال الشدة والحزم مع من اساء استخدام هذه الحرية وذلك الترحاب من أولئك الوافدين . مثلما حدث مع أبى اليسر ابراهيم بن محمد البغدادى ، الشيبانى ، المعروف بأبى

اليسر الرياضى (ت ٢٩٨ هـ = ٩١١/١٠ م) ، الذى تعرض
للسجن بمصر قبل سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٧ م) من أجل الاشتباه فى
انه جاسوس شيعى حضر الى مصر لممارسة نشاطه تحت ستار
الحج وطلب العلم . ويغلب عن الظن ان ابن طولون عاد فأفرج
عن أبى اليسر ، بعد أن قبل فيه شفاعه أحد العلماء المصريين ،
غير انه - على ما نرجح كذلك - أمر بنفيه خارج البلاد (١٢) .

تلك - اذن - كانت أبرز معالم سياسة ابن طولون فى التعامل
مع من قدر له الوجود بمصر ، آنذاك ، من جماعات المغاربة
والأندلسيين . وهى سياسة اعتمدت كثيراً على قاعدة الثواب
والعقاب الشهيرة ، مع اقترانها بالحزم الكافى عند التطبيق العملى .
بيد ان الوضع اختلف بعض الشيء فى عهد خلفائه ، كما سيتضح .

٢ - فى عهد خلفائه (٢٧٠ - ٢٩٢ هـ / ٨٨٤ - ٩٠٥ م)

يمكن القول بأن الغرس الذى غرسه أحمد بن طولون
بصدد بث هيبة الدولة فى نفوس المشاغبيين من بربر الجانب الغربى
لمصر ، قد آتى ثمرته خلال فترة حكم ابنه خمارويه
(٢٧٠ - ٢٨٢ هـ = ٨٨٤ - ٨٩٦ م) . اذ لا نكاد نسمع شيئاً
عن عمليات شغب يمكن ان ننسبها اليهم طيلة حكمه . غير ان
الظروف التى مرت بها الدولة اثر وفاته ، قليلا بأيدى بعض خدمه
وهو فى طريقه الى الشام (١٣) أدت الى أن ظهرت لهؤلاء البربر
أدوار معلومة . وقد تمثلت هذه الظروف فى انقسام البيت
الطولونى على نفسه ، مما أدى الى انشغالهم عن متابعة التطورات
الجديدة التى بدأت تنتاب المنطقة الغربية لمصر كنوع من التبشير
بقرب بزوغ شمس الفاطميين بالمغرب (٢٩٦ هـ = ٩٠٩ م) .
وقد تفاعلت هذه العوامل مع أثناء فترة حكم الأمير هارون بن
خمارويه (٢٨٣ - ٢٩٣ هـ = ٨٩٦ - ٩٠٤ م) الذى خلف أخاه

أبا العساكر جيشي (٢٨٢ - ٢٨٣ هـ = ٨٩٦ - ٨٩٦ م) بعد
أن خلعه الجنود من الحكم (١٤) .

اذ حدث فور تولى هارون ، أن خرج فريق من الجند ممن
كرهوا ولايته وكاتبوا عمه ربيعة بن أحمد بن طولون - المقيم
آنذاك بالاسكندرية - يدعونه للحضور الى العاصمة كي يساعده
في تولى الحكم بدلا من ابن أخيه . وهنا يشير الكندي الى أن ربيعة
« جمع جمعا كثيرا من اهل البحيرة من البربر وغيرهم ، وأقبل
فيهم » (١٥) . ورغم أن الأمير هارون تمكن من احتواء هذه الأزمة
بعد أن ثبت الجنود المواليون له في المناوشات التي دارت عند
مشارف القسطنطينية بينهم وبين أعوان ربيعة الا أنه لم يشأ أن يتخذ
قراره بمعاقبة حلفاء عمه ، بل على العكس نرجح أنه عمل على
استقطاب هذه القوى الفتية للخدمة في صفوف الجيش والأسطول
لقاء أرزاق معلومة . وهو ما عد تفسيراً للمعان اسم القائد خصيب
البربري في الأسطول الطولوني ، أخريات أيام هذه الدولة (١٦) .
الأمر الذي عد سابقة تمت لأول مرة في تاريخ مصر الاسلامية .

وقد كانت هناك دوافع أخرى حدثت بالأمير هارون لاتخاذ
هذه الخطوة غير المسبوقة ، تمثلت في رغبته في الحيلولة دون وقوع
هؤلاء البربر القلب في براثن الدعاية الشيعية التي بدأ يمارسها
آنذاك أعوان الفاطميين الذين كانوا بسبيل انجاح دولتهم
بالمغرب . يدلنا على ذلك ما رواه ساويرس عن الاضطرابات التي
بدأت تشهدها مدينة طحا - بمحافظة المنيا الآن - أثناء فترة
حكم هارون ، « لأن البربر كانوا يغزوهم من الغرب » (١٧) .
مما اضطر أسقف المدينة - المدعو أنبا باخوم - الى اتخاذ كافة
التدابير الاحترازية لمقاومة هذا الخطر . وقد تمثلت جهوده في
هذا الشأن في دعوة أهالي المدينة للاشتراك في حمل السلاح
وتناوب حراسة المنشآت الهامة ، او ما يمكن تسميته بأسلوب

الدفاع الشعبي . وقد اكتفى الأمير هارون بمجرد الاعجاب بجهود الانبا باخوم ، وشجعه على تعميم فكرة الدفاع الشعبي عن المنطقة ، ولم نجد اشارة الى قيامه باعلان التعبئة العامة للجنود في العاصمة بل « عول عليه (أى على الانبا) في تفقد تلك البلاد » (١٨) .

ولاشك أن السبب في جعل الأمير هارون يتصرف على هذا النحو في مواجهة هذا الخطر ، يرجع الى اضطراب أمر العاصمة بسبب فتن الجنود التي نشبت نتيجة دخول العناصر البربرية الجديدة في صفوف الجيش والبحرية بمصر . وقد عانى هارون نفسه من هذه الاضطرابات حتى انه راح ضحية احداها بعد أن حاول اصلاح ما فسد بين طائفة الأتراك - عصب الدولة الطولونية آنذاك - وبين فريق البربر « فرماه بعض المغاربة برمح ، بمقتله » (١٩) . هذا في الوقت الذي قدمت فيه الجيوش العباسية - بقيادة محمد بن سليمان المعروف بالكاتب - يصحبها الأسطول العباسي بقيادة أمير البحر دميانة ، لارجاع مصر الى دائرة التبعية للخلافة العباسية . ولا بأس هنا من قبول فكرة أن مقتل هارون على أيدي الجنود البربر انما تم بتدبير عميه شيبان وعدى ابني أحمد بن طولون ، اللذين حققا على هارون انفراده بالحكم رغم أنه غير جدير بذلك ، « اذ تشاغل باللهو والطرب » في حين كانت الحرب محتدمة بين الأسطول العباسي وبين الأسطول الطولوني الذي كان القائد خصيب البربري أحد قادته ، وكان الظفر فيها للأسطول العباسي ، وتعرض خصيب ورفاقه للأسر ، وذلك في شهر ذى الحجة سنة ٢٩١ هـ (اكتوبر ٩٠٤ م) (٢٠) .

ولم تجد جهود شيبان بن أحمد بن طولون - الذي تولى الحكم عقب مصرع هارون (في شهر صفر سنة ٢٩٢ هـ)

ديسمبر ٩٠٤ م) - في وقف تقدم محمد بن سليمان القائد العباسي .
وانتهى الأمر باستسلام الجيش الطولوني ودخول محمد بن سليمان
الفسطاط في شهر ربيع الأول سنة ٢٩٢ هـ (يناير ٩٠٥ م) ،
فسقطت بذلك الدولة الطولونية (٢١) .

**ثانيا : من الطولونيين الى الاخشيديين (٢٩٢ - ٣٢٣ هـ /
٩٠٥ - ٩٣٤ م) :**

تميزت أحداث هذه الفترة بأنها كانت عبارة عن سلسلة
غير منتهية من الاضطرابات والقلقل التي كان مبعثها النشاط
الذي مارسه أعوان الفاطميين بمصر . ذلك ان الفاطميين - بعد
ان نجحوا في اقامة دولتهم بالمغرب سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) - سعوا
لبسط سيطرتهم على مصر بوسائل عديدة ، منها : استغلال
الوافدين الى مصر من أهل المغرب للترويج للحكم الفاطمي ،
ومحاولة بث عقائد الفاطميين المذهبية في نفوس المصريين ،
والتجسس على شئون مصر الداخلية ومحاولة أحداث زعزعة في
الاقتصاد المصري ، ان أمكن . واخيرا ارسال العديد من الحملات
العسكرية الى مصر للسيطرة عليها عنوة . ولهذا كان الشغل
الشاغل لولاة مصر العباسيين ينصب على « الجدد في أمر المغرب
والاحتباس منه » (٢٢) .

من ذلك ما فعله الوالي عيسى النوشري (٢٩٢ - ٢٩٧ هـ -
٩٠٥ - ٩١٠ م) الذي أمر باغلاق مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط
فيما بين الصلوات ، فكان يفتح للصلاة فقط . وذلك - علم
ما يبدو - حتى يضييع الفرصة على دغاة الفاطميين الذين
ربما حاولوا استغلال دروس العلم التي كانت تعقد بين الصلوات .
واستمر الحال على ذلك اياما قبل ان يأمر الوالي باعادة الأمر
الى ما كان عليه ، بعد ان ضج الناس بالشكوى (٢٣) . ويذكر

لنوشرى - كذلك - انه رفض لجوء الأمير زيادة الله الثالث آخر
حكام الأغالبة فى ولاية أفريقية (٢٩٠ - ٢٩٦ هـ = ٩٠٣ - ٩٠٩ م)
الى مصر ببقايا جنده ، عقب سقوط دولته فى حوزة الفاطميين .
ومن المؤكد ان النوشرى فعل ذلك خوفا من تسرب أنباء الانتصارات
الفاطمية فى المغرب الى نفوس المصريين ، وربما الدعايات الفاطمية
كذلك ، من خلال الجنود المصاحبين للأمير الأغلبى فتؤثر على
الروح المعنوية لدى المصريين . يدلنا على هذا أن النوشرى أصر على
عدم اصطحاب زيادة الله جنوده معه الى القسطنطينية ، ثم بعد مناوشة
تمت بين الطرفين ، رأى النوشرى أن يكون دخولهم المدينة ليلا ،
فدخلوها فى شهر رمضان سنة ٢٩٦ هـ (مايو ٩٠٩ م) (٢٤) .

ثم آلت مصر - بعد وفاة النوشرى - الى أبى منصور تكين
الذى شهدت فترة ولايته الأولى (٢٩٧ - ٣٠٢ هـ = ٩١٠ -
٩١٥ م) قدوم الحملة الفاطمية الأولى على مصر (٣٠١ -
٣٠٢ هـ = ٩١٣ - ٩١٥ م) . وهى الحملة التى كانت تتألف
من قسمين ، تولى القيادة العليا عليهما أبو القاسم محمد بن
الخليفة الفاطمى عبيد الله المهدي (٢٩٦ - ٣٢٢ هـ = ٩٠٩ -
٩٣٤ م) وولى عهده (٢٥) . وكان يساعد أبى القاسم فى القيادة
وصاحب التقدمة على القسم الأول القائد الشهير أبو داود حباسة
ابن يوسف الكتامى اللوسى (٢٦) . وقد شارك فى قيادة هذه
الحملة قادة آخرون من كتامة ، نذكر منهم : القائد أبى فريدن (٢٧) ،
والقائد أبى حدود (٢٨) . وكما هو معروف فإن هذه الحملة أحرزت
تقدما ملحوظا فى البداية عندما استولى أبو القاسم على مدن برقة
(فى آخر سنة ٣٠١ هـ = ٩١٤ م) (٢٩) ، والاسكندرية (فى شهر
المحرم سنة ٣٠٢ هـ = يولية ٩١٤ م) (٣٠) . ثم تابع تقدمه داخل
الأراضى المصرية فى اتجاهين : فريق من قواته سار الى القسطنطينية
عن طريق مشتول بقيادة حباسة ومعه أبو حدود ، والثانى تحت

قيادة أبي القاسم نفسه ويعاونه أبو فريدن حاول الاستيلاء على مدينة الفيوم (٣١) . غير ان الهزائم ما لبثت ان لحقت بالفاطمين نتيجة التحسن الذى طرأ على جيش مصر باشتراك الأهالى فى عمليات القتال ضد الفاطميين ، وقدم الامدادات العسكرية — من قبل الخلافة العباسية فى بغداد — تحت قيادة مؤنس الخادم فى شهر رمضان سنة ٣٠٢ هـ (مارس ٩١٥ م) . فى حين أدى الانقسام الذى حدث بين القادة الفاطميين الى اضعاف جانبهم ، وانتهى الأمر بفشل هذه الحملة بعد ان خلفت عدة نتائج هامة نذكر منها :

١ - أن حكومة الولاة العباسيين فى الفسطاط غدت عاجزة عن مواجهة الحملات الفاطمية على مصر أول قدومها . وذلك لاعتماد الولاة فى مصر على الخلافة العباسية فى بغداد فى تدبير الأمر بإرسال الامدادات العسكرية من العراق أو الشام . وطبيعى ان تأخر وصول هذه الامدادات الى مصر ، قد أعطى جنود الحملات الفاطمية الفرصة فى تحقيق بعض الانتصارات الأولية . وقد أدى هذا الى ضياع برقة من مصر ، اذ استمرت فى حوزة الفاطميين بالمغرب منذ استيلاء حباسة عليها فى شهر ذى الحجة سنة ٣٠١ هـ (يونية ٩١٤ م) حتى انتقلهم الى مصر فى سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) فعادت بالتالى تبعيتها الادارية لمصر . وعمل الخليفة الفاطمى عبيد الله المهدي من ناحيته على تأمين هذه المنطقة وضمان بقائها تابعة للفاطمين فأرسل قائده الكتامى أبا مدين بن فروخ اللهيصى الى برقة فى سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) لتأمين المنطقة بعد أن وضحت أهمية برقة كقاعدة امامية لتوجيه الحملات الفاطمية الى مصر (٣٢) .

٢ - أن نشاط الدعاة الفاطميين والمغاربة الموالين للفاطمين قد انتشر الى حد كبير فى أنحاء مصر ، لدرجة انهم استطاعوا الحصول على معلومات فى غاية الأهمية والسرية واستغلوها لصالح

الدولة الفاطمية بالمغرب . مثلما حدث بالنسبة لخبر عزل القائد
أبى النمر أحمد بن صالح - الذى كان الوالى تكين قد جعله حاكما
لاقليم برقة قبل سنة ٣٠١ هـ (٩١٤ م) - عن منصبه كوال على
الافليم وقائد للجيش المصرى فى المنطقة (٣٣) . هذا فضلا عن
نجاحهم فى تهيج الراى العام السنى فى الفسطاط بما اثاروه من
قضايا الفقه الشيعى الاسماعيلى بين المصريين . ووصل الامر الى
أن كتب بعضهم - فى تحد سافر للحكومة المصرية - على أبواب
مسجد عمرو بن العاص « ذكر الصحابة والقرآن بما لا يليق » .
وكادت أن تنشب فتنة فى شوارع المدينة عندما مال فريق من
سكان الفسطاط الى ترديد اقوالهم فى حين انكرها بقية الأهالى .
مما حدا بوالى مصر حينئذ ذكا الرومى المعروف بالأعور
(٣٠٣ - ٣٠٧ هـ = ٩١٥ - ٩١٩ م) الى أن أمر صاحب الشرطة
فى الفسطاط - محمد بن طاهر - بمعالجة هذا الأمر . ثم اضطر هذا
الوالى الى استخدام الجيش للايقاع بالمفسدين عندما اتضح له
خطورة الموقف . ثم صار كل همه - وكذلك الولاة العباسيين من
بعده - « تتبع كل من يؤمأ اليه بمكاتبة صاحب افريقية » (٣٤) .

كذلك وضع نشاط اتباع الفاطميين من الدعاة والمغاربة فى
مصر ، من خلال اثارهم لبربر البحيرة ، حتى وقع الاختلاف بين
هؤلاء الآخرين وبين حاكم الاسكندرية المظفر بن الوالى ذكا الأعور ،
فى سنة ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) . فاضطر هذا الحاكم الى طلب
النجدة من أبيه ، وخرج من الاسكندرية للقاء المدد عند مدينة
تروجة - بالبحيرة - وربما لحصر الثائرين كذلك وأخذهم من
لاحيتين . وقد انتهى أمر هذه الثورة بإخمادها وعودة المظفر بن
ذكا الى الاسكندرية (٣٥) .

٣ - أن المصريين جميعا شاركوا حكومة الولاة العباسيين في مقاومة الحملات الفاطمية . وذلك بسبب كراهيتهم الشديدة لما أشاعه الجنود الفاطميون من فساد في أنحاء مدن مصر وقراها التي مروا عليها . واختص الأهالي بهذا الشعور الجنود البربر من قبيلة كتامة ، لفظاعة أسلوبهم في التعامل مع المصريين والخراب الدائم الذى اقترن بوجودهم . فيشير ابن عذارى الى الفظائع التي ارتكبها جنود فرقة حباسة عند دخولهم مدينة برقة (فى ذى الحجة ٣٠١ هـ = يونية ٩١٤ م) . مما اضطر أهلها الى طاعة الناطميين وتأييدهم بذبح أفراد الحامية الكتامية التي تركها أبو القاسم بن المهدي فى المدينة عند انسحابه بجموعه الى افريقية (كان هذا فى سنة ٣٠٣ هـ = ٩١٥ م) . وكان هذا سببا فى ارسال القائد الكتامى أبى مدين اللهيصى الى برقة ، فى ذات السنة ، للانتقام من أهلها واتخاذ الاجراءات اللازمة لتأمين المنطقة وبقائها فى حوزة الفاطميين (٣٦) . ويبدو ان هذه الاجراءات كانت من الشدة بحيث اضطر سكان كورتى لوبيبة ومراقية - اللتين تشكلان معا اراضى القسم الشرقى لاقليم برقة - الى الجلاء عن ديارهم نحو الاسكندرية فى شهر شوال سنة ٣٠٤ هـ (ابريل ٩١٧ م) خوفا من تعسف الحكم الفاطمى فى برقة (٣٧) . كذلك اعجل جنود الحملة الفاطمية الاولى الخراب فى ناحية ترنوط - من قرى البحيرة - . وكان الجنود الكتاميون اظهر من مارس النهب والسلب ، لدرجة جعلت البكرى ينسب خراب هذه « القرية الجامعة » اليهم ، وذلك فى قوله « وهى قرية جامعة على النيل ، بها أسواق ومسجد جامع وكنيسة . وخراب كثير خربته كتامة ، اذ كانوا هنالك مع أبى القاسم بن عبدة الله الشيعى » (٣٨) .

وقد وضح شعور الكراهية هذا من جانب المصريين تجاه جنود الحملات الفاطمية وبخاصة بربر كتامة ، في استجابتهم الفورية لداعى الجهاد من قبل والى مصر تكين . وخروجهم جميعا في جمادى الآخرة سنة ٣٠٢ هـ (ديسمبر ٩١٤ م) لمحاربة جنود الحملة الفاطمية الأولى ، سواء في ناحية مشتول أم في الفيوم ، عندما نودى بالنفير في الفسطاط ، ولم يتخلف عن الخروج أحد من الخاصة أو العامة (٣٩) .

وهكذا ، بينما كان والى مصر ذكا الرومى — الذى آلت اليه ولاية مصر عقب خروج جنود الحملة الفاطمية الأولى الى افريقية — مشغولا بمعالجة الآثار النفسية السيئة التى ترتبت على نزوح أهل لوبية ومراقية الى الاسكندرية وبتطهير الجبهة الداخلية من الفتن التى اثارها أتباع الفاطميين في الفسطاط والبحيرة » قدمت عساكر المهدي عبيد الله الفاطمى من افريقية الى لوبية ومراقية ، وعلى رأس العساكر أبو القاسم ، فدخل الاسكندرية في ثامن صفر سنة سبع وثلاثمائة (يولية ٩١٩ م) . فيما يعرف بالحملة الفاطمية الثانية على مصر ، والتى استمرت حتى خروجها منسحبة كذلك الى افريقية في سنة ٣٠٩ هـ (٩٢١ م) . وكانت حملة برية وبحرية في آن واحد ، اشتركت فيها حشود من كتامة ، مع عرب افريقية وبربرها ، وبعض القادة المشهورين امثال : أبى العباس خليل بن اسحق بن ورد ، وأبى غانم الكاتب ، ومن الله بن الحسن بن أبى خنزير . وتولى سليمان ابن كافى قيادة المقدمة والاشراف على الأسطول بالاشتراك مع يعقوب الكتامى . وكانت القيادة العليا أيضا على حشود الفاطميين في يد أبى القاسم بن عبيد الله المهدي (٤٠) .

وتماثلا حدث في المرة الأولى ، شرع أبو القاسم بن المهدي في توسيع دائرة القتال لتشمل الجبهة الغربية حتى مصر الوسطى ،

فسار على رأس معظم قواته نحو الفيوم والاشمونين واستولى عليهما ، في حين ترك يعقوب الكتامي وسليمان بن كافي على رأس قيادة الأسطول الفاطمي أمام مدينة الاسكندرية لتأمين ظهره . وظهر كذلك دور القوة الشعبية في مساندة القيادة المصرية حتى أقبلت الامدادات العسكرية من قبل الخلافة العباسية ، وكانت في شكل قوات برية قادها مؤنس الخادم يصحبها الاسطول العباسي بقيادة ثمل الخادم او الفتى . وبينما كانت الحرب سجالا بين الفريقين في الفيوم ، نجح الاسطول العباسي في الايقاع بهراكب الاسطول الفاطمي عند مدينة رشيد وذلك في شهر شوال سنة ٣٠٧ هـ (مارس ٩٢٠ م) « واخذ من فيها أخذا باليد ، وأسرهم ثمل » . مما أدى الى تسرب اليأس في معسكر أبى القاسم الى جانب طول المدة وانتشار الأمراض والأوبئة بين رجاله فأثر الانسحاب الى افريقية ، عبر برقة . وعلى هذا النحو انتهت أيضا الحملة الفاطمية الثانية على مصر (٣٠٧ - ٣٠٩ هـ = ٩١٩ - ٩٢١ م) مخلفة وراءها ذات النتائج التي ترتبت على وجود الحملة الاولى :

١ - فقد استمر عجز حكومة الولاة العباسيين في الفسطاط عن مواجهة الحملات الفاطمية . وزاد الأمر سوءاً - هذه المرة - حينما بدأ الانقسام يدب في صفوف القيادة المصرية ، وسعى كل فريق للبحث عن القوة اللازمة لتدعيم موقفه ، في حين استمر شغب الجنود نتيجة تأخر صرف العطاء (٤١) .

٢ - كذلك استمر اتباع الفاطميين من الدعاة والمغاربة في ممارسة نشاطهم في الترويج للحكم الفاطمي في مصر . فيذكر الكندي ان الداعي الفاطمي ابن المديني القاضي ونفر معه استطاعوا ان يستميلوا جماعة من أهل الفسطاط « وتعاقدوا على الخروج ليلة الختم من شهر رمضان (سنة ٣٠٨ هـ = فبراير ٩٢١ م) » ،

أثناء وجود أبى القاسم بن المهدي وقواته في الفيوم . ولما علم والى مصر تكين — الذى ولى للمرة الثانية من شهر شعبان سنة ٣٠٧ هـ الى شهر ربيع الاول سنة ٣٠٩ هـ (ديسمبر ٩١٩ — يولية ٩٢١ م) — بها يدبرونه ، أعدمهم جميعا (٤٢) .

٣ — وقد حرص الوالى تكين على ارضاء رغبة الانتقام لدى المصريين من جنود الحملة الفاطمية — وبخاصة المغالين في التعصب لنصرة الفاطميين من بربر كتامة — فأباح أسرى الفاطميين لأهل الفسطاط بعد أن أطلق سراح أهل الفيوان وطرابلس وبرقة وصقلية لانهم أرغموا على الاشتراك في الحملة وعرفوا بمقتلهم للحكم الفاطمى . فقتل الجنود المصريون والرعية عددا من أسرى كتامة ومن جنود مدينة زويلة المهدية . وقد بلغ عدد القتلى منهم « سبع مئة » (٤٣) ، وفي رواية « خمس مئة » (٤٤) . بينما اكتفى تكين بتشهير قادة الأسطول ورؤساء المراكب الفاطمية وعددهم مئة وسبعة عشر (١١٧ رجلا) في شوارع الفسطاط قبل ايداعهم السجن (٤٥) .

واذا كانت الخلافة العباسية قد أسكرتها نشوة القضاء على هاتين الحملتين الفاطميتين ، بفضل الامدادات المتتالية التى كان الخلفاء العباسيون في بغداد يبعثون بها الى مصر لمساعدة ولاتهم هناك ، فان الأمر سرعان ما تطلب رضوخ العباسيين لفكرة اللامركزية كحل أمثل لضمان عدم سقوط مصر في أيدي الفاطميين . بمعنى أن يعهد الخليفة لأحد نوابه الأقوياء بتولى شئون الدفاع عن مصر وحمايتها من أطماع الفاطميين في مقابل السماح لهذا النائب بالتمتع ببعض مظاهر الاستقلال في إدارته لولاية مصر . وسنرى بعد قليل أن هذا النائب القوي هو محمد بن طغج بن جف الملقب بالإخشيد الذى استطاع بعد ذلك أن يهد لخلفائه من بعده

في حكم مصر حتى سقوطها في أيدي الفاطميين (سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٩ م) . ومما دفع الخلافة العباسية في بغداد الى اتباع هذه السياسة ما شهدته مصر من أحداث عقب جلاء الحملة الفاطمية الثانية (٣٠٩ هـ = ٩٢١) ، اذ :

(أ) غدت الجبهة الغربية لمصر مفتوحة على مصراعها أمام الفاطميين الذين شرعوا في استغلال برقة كقاعدة أمامية يوجهون منها حملاتهم على طول خط الحدود فيما بين مصر وليبيا . مثلما حدث في سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ م) عندما دارت موقعة بالقرب من ذات الحمام — وهي سوق جامعة على الطريق بين الاسكندرية وبرقة ، وهي أقرب الى الاسكندرية — بين جند مصر وفرقة فاطمية بقيادة ملاح بن قهون ، وذلك أثناء ولاية هلال بن بدر على مصر (٣٠٩ — ٣١١ هـ = ٩٢١ — ٩٢٣ م) . وعلى الرغم من عدم تمكن هذه القوة الفاطمية من التوغل داخل الأراضي المصرية ، الا انها استطاعت أن تحقق نجاحا جزئيا في المنطقة بدليل حرص الخليفة الفاطمي المهدي على أن تقرأ أخبار هذه الحملة في المسجد الجامع بالقروان (٤٦) . وتلى ذلك حركة أخرى ضد منطقة الواحات . ففى أواخر سنة ٣١١ هجرية (٢٣ / ٩٢٤ م) قاد مسرور بن سليمان بن كافي فرقة فاطمية لغزو مصر ، اتخذت طريق الواحات . واستولى مسرور على الحصون القريبة ، ثم هزم عامل المنطقة من قبل حكومة الفسطاط ، ويدعى الكرمازي ، وأسر ابنه وابن أخيه ، وسيطر على المنطقة . ويبدو أن ابن كافي كان قد انتوى توسيع نشاطه في صعيد مصر ، لولا ظهور الأوبئة بين جنوده . مما اضطره الى الانسحاب الى قاعدة انطلاقه في برقة ، ولكن بعد أن خرب الاستحكامات العسكرية في المنطقة وبعض مظاهر العمران (٤٧) .

(ب) في حين أدى الانقسام الذي حدث بين صفوف القيادة المصرية في الفسطاط ، الى مزيد من الاضطرابات التي شهدتها البلاد . ذلك أن تعدد قادة الحملات العباسية — التي حرص الخلفاء العباسيون على ارسالها الى مصر — أسفر عن تنازعهم فيما بينهم من أجل تولى منصب الولاية في مصر . وانقسموا بالتالي الى فرق متناحرة ، وسعى كل فريق منهم للبحث عن القوة اللازمة لتدعيم موقفه . بينما استمر الجنود في شغب دائم نتيجة للتأخير المفتعل في صرف عطائهم وكان السبب في ذلك دخول عمال الخراج في مصر في دائرة الصراع بين الأطراف المتنافسة (٤٨) . فأتاح

ذلك الفرصة لبعض المغامرين من بربر البحيرة — على ما يبدو — للمشاركة في هذه الأحداث طمعا في تحقيق بعض المكاسب ، على نحو يذكرنا بها حدث في أخريات أيام الدولة الطولونية . واشتهر منهم في هذه الفترة أبو مالك حبشي بن أحمد السلمي ورفاقه الذين كانوا قاسما مشتركا في معظم الأحداث التي شهدتها مصر منذ شهر ربيع الأول سنة ٣٢١ هـ (مارس ٩٣٣ م) حتى ولاية الاخشيدي الثانية على مصر في شهر رمضان سنة ٣٢٣ هـ (أغسطس ٩٣٥ م) (٤٩) .

فعندما توفي أبو منصور تكين — أثناء ولايته الثالثة على مصر (٣١١ — ٣٢١ هـ = ٩٢٤ — ٩٣٣ م) — حدث نزاع بين ابنه محمد بن تكين وبين أبي بكر محمد بن علي الماذرائي صاحب الخراج بسبب مطالبة الأول بولاية مصر بعد أبيه ، فتصدى له الماذرائي وأمره بالخروج عن مصر . الا أن محمد بن تكين لم يلبث ، بعد أن سار الى الشام ، أن قفل عائدا الى مصر مدعيا أن معه تقليدا بولايتها من قبل الخليفة القاهر بالله العباسي (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ = ٩٣٢ — ٩٣٤ م) . فاستجاش الماذرائي بحبشي بن أحمد ورفاقه لمنع ابن تكين من دخول مصر . وقد وافق حبشي على الفور بحيث

انه خرج بفرقته الى طريق الشام ، واقاموا بعض الوقت في موضع يعرف بجرجير — على الطريق بين الشام ومصر ، قريبا من الفرما — تأكدوا خلاله من احجام ابن تكين عن اجتياز الحدود المصرية (٥٠) .

وانفتح بذلك المجال امام حبشى ورفاقه للاستبداد بالامر ، بعد عودتهم الى الفسطاط . فانقلبوا على حليفهم الماذرائى « وشغبوا عليه في طلب أرزاقهم وأحرقوا داره ودور أهله » واضطروه الى أن يستتر (٥١) . بيد أن موقفهم هذا جلب عليهم عداء باقى فرق الجيش من الأتراك ، الذين اشتبكوا معهم في عدة معارك دارت رحاها في شوارع الفسطاط ، واسفرت عن هزيمة حبشى وفرقته في شهر ذى الحجة سنة ٣٢١ هـ (نوفمبر ٩٣٣ م) واضطروا الى الفرار الى الجيزة بعد أن قتل منهم قرابة أربعين رجلا . ثم سار حبشى وفرقته الى الصعيد حيث أقاموا بمدينة أسيوط بعض الوقت ، كي يعيدوا تنظيم صفوفهم لاستئناف نشاطهم العسكرية من جديد بالفسطاط . وهو بالفعل ما حدث إذ انهم عادوا ثانية الى الجيزة وعسكروا بها في آخر صفر سنة ٣٢٢ هـ (فبراير ٩٣٤ م) . ولكن الأتراك خرجوا اليهم بقيادة حبكويه ، واستمد الفريقان للحرب . فسعى الأهالى في الصلح بينهما ، خوفا من التعرض للنهب والسلب ، وتعهدوا بتوفير الأموال اللازمة لحبشى ورفاقه تعويضا لهم عن الخسائر التى لحقت بهم . غير أن حبكويه كره أن يتم الصلح على هذا النحو وأصر على مواصلة القتال الذى لم يسفر عن ترجيح كفة أى من الفريقين على الآخر ، إذ كان عبارة عن مناوشات بينهما أدت الى مزيد من التدهور فى أوضاع العاصمة (٥٢) .

وقد تأزم الموقف أكثر من ذلك — خلال الفترة التالية — نتيجة لكثرة تتابع الولاة على مصر من قبل الخليفين العباسيين القاهر .

ثم الراضى (الذى تولى الخلافة منذ سنة ٣٢٢ هـ الى سنة ٣٢٩ هـ = ٩٣٤ - ٩٤٠ م) ، وتنازعهم فيها بينهم على منصب الولاية .
وظهر حبشى بن أحمد ورفاقه اثناءها كرمز للعصيان والتمرد اذ
رفضوا جميع دعوات الولاة لهم بالانصياع والتزام الطاعة . بل
صاروا يشكلون — مع الحائقين على الحكم من الولاة المخلوعين
وأعوانهم — حلفا معاديا نجح أفرادهم فى التغلب على شئون الحكم
فى القسطنطين بصفة نهائية منذ شهر رجب سنة ٣٢٢ هـ (يولية
٩٣٤ م) . وهى المرة التى شهدت تنصيب الوالى السابق أحمد
ابن كيغلى فى منصب الولاية ، وأصبح خلالها لحبشى بن أحمد
ورفاقه اليد الطولى فى الجيش المصرى نتيجة استمرار ابن كيغلى فى
الاعتماد عليهم فى مواجهة المشاكل التى عرضت له . مثلما حدث
اثناء محاولة ابن تكين العودة مرة أخرى لتولى حكم مصر مدعيا
هذه المرة أن الخليفة الراضى العباسى هو الذى ولاه مصر . فخرج
اليه حبشى على رأس رفقته — بإيعاز من ابن كيغلى — لمنع من
دخول مصر . والتقوا فى موضع يقال له الطواحين — بين ناقوس
وبلبيس — « فاقتلوا » . فانهزم محمد بن تكين وأسر وبعث به الى
القسطنطين فأخرج الى الصعيد « (٥٣) » .

غير أن الأمر لم يستتب طويلا لابن كيغلى وحلفائه الذين ضبوا
— الى جانب حبشى وفرقته — محمد بن على الماذرائى صاحب
الخراج ، وأعوان كثيرين فى باقى الجهاز الإدارى مثل نائبه فى الحكم
محمد بن عيسى النوشرى ، وبجكم الأمور ومحمد بن زيساد المعروف
بكوجك وسعيد بن عثمان غلام الأحوال الذين تعاقبوا على منصب
الشرطة فى مصر ، وغيرهم . ذلك أن الخليفة الراضى العباسى عهد
بولاية مصر الى محمد بن طنج بن جف الذى شرع فى المسير اليها
على رأس قوات ضخمة العدد . ويات واضحا أن ابن طنج هو
رجل الخلافة القادر على مواجهة استبداد القوى المعارضة فى

مصر . فهو لم يكن غريبا عن مصر ، اذ شارك في مقاومة الحملة الفاطمية الأولى على مصر « وحسن أثره فيها » (٥٤) . كما كان ابن طنج مطلعاً - وبدقة - على تطورات الموقف في مصر أثناء ولايته الأولى على مصر ، التي استمرت اثنتين وثلاثين يوما فقط (من يوم الأحد ٨ رمضان سنة ٣٢١ هـ الى يوم الخميس ١٠ شوال السنة = الموافق ٥ أغسطس / ٦ سبتمبر ٩٣٣ م) . وهي المرة التي لم يدخل فيها مصر على الاطلاق ، رغم انه « دعى له بها » وأثر الإقامة في دمشق حتى تتكشف له حقيقة الأوضاع في مصر (٥٥) . لهذا نراه يسير الى مصر وقد أعد للأمر مدته فالى جانب القوات البرية التي سارت تحت قيادته اصطحب ابن طنج معه أسطولاً حربياً يقوده صاعد بن كليم (٥٦) .

وكالعادة ، بعث أحمد بن كيغلق - المتغلب على الحكم بالفسطاط - بحليفه حبشى بن أحمد على رأس جيش ضخم العدد الى الفرما لمنع مسير ابن طنج الى مصر . غير أن كفاءة الأخير ومقدرته في التغلب على المعارضين له وضحت منذ البداية ، عندما ضيع الفرصة على حبشى وجموعه بالدوران حول الفرما حيث معسكر حبشى ، ولم يشأ ابن طنج الدخول معه في حرب قد تأتى على قواته ، وربما كذلك للمحافظة على فارق التوقيت بين مسيره في البر ومسير الأسطول في البحر ، حتى يتوافق موعد دخولهم الفسطاط معا (٥٧) . وفي تلك الأثناء حدث من أهل الفسطاط ما دل على رفضهم أسلوب حكم ابن كيغلق وحلفائه ، اذ ثاروا على صاحب الشرطة وكان في ذلك الوقت محمد بن عيسى النوشري . فاضطر ابن كيغلق الى عزله ، واستبدله بغيره حتى لا يتفاقم الأمر في الفسطاط (٥٨) .

ثم وصلت جموع ابن طنج تسير متوافقة مع مراكبه الى دمياط ، وعندئذ آيس ابن كيغلق من النصر وعزم على التسليم .

الا أن الماذرائى أبى عليه ذلك ، وبعث بحبشى بن أحمد — الذى عاد الى الفسطاط بعد أن أدرك خذاع ابن طفج له عند الفرما — على رأس فرقته ليعترض مسير ابن طفج الى الفسطاط بحذاء فرع دمياط . كما أرسل الماذرائى كذلك بعلى بن بدر السميساطى على رأس الاسطول المصرى للايقاع بسفن ابن طفج التى يقودها صباغ ابن كلمم فى مياه النيل . ولكن النصر كان حليفا لابن طفج ، سواء فى البر حيث انهزم أمامه حبشى بن أحمد ورفقته ، أم فى مياه النيل حيث انهزمت قوات على بن بدر فى مراكبها على مقربة من سمند ، وذلك فى شهر شعبان سنة ٣٢٣ هـ (يولية ٩٣٥ م) . وتتبع ابن طفج غلول حبشى المنهزمة نحو الفسطاط ، بينما وصلت سفنه أمام جزيرة الفسطاط (٥٩) .

وفى محاولة أخيرة من جانب المتحالفين لصد هجوم محمد بن طفج فى البر والماء ، أعاد الماذرائى — الذى برز دوره واضحا فى هذه الأحداث — ترتيب قواته ، فشحن جزيرة الفسطاط بالسلاح والرجال للتصدى لمراكب ابن طفج ، وعسكر بباقى القوة البرية ، بما فيها حبشى بن أحمد وفرقته أمام الفسطاط . غير أن الأمر لم يتعد المناوشة بين الفريقين ، أدرك ابن كيغلغ خلالها أنه لا قبل له بالصمود أمام جموع ابن طفج الذين تميزز موقفهم اثر انضمام أكثر جنود ابن كيغلغ الى جانب ابن طفج فى مقابل الحصول على الأمان لأنفسهم . وبات واضحا أن حبشى بن أحمد وفرقته لن يتمكنوا من صد هجوم ابن طفج . كما أن ابن كيغلغ سئم استيداد الماذرائى وأفراد أسرته وانفرادهم دونه بتدبير الأمور فى مصر ، ولهذا كله أقبل ابن كيغلغ على تسليم البلاد لابن طفج ، الذى دخل بجيوشه الفسطاط فى الايام الأخيرة من شهر رمضان سنة ٣٢٣ هـ (أغسطس ٩٣٥ م) (٦٠) .

بكلمة « الشرقية » شرقية النيل ، أى الضفة الشرقية لنهر النيل من صعيد مصر (٦٤) . كما أنه كان محالا على هؤلاء المعارضين اختراق صفوف ابن طنج الجائمة فى الفسطاط وضواحيها وفى جزيرة الفسطاط كذلك ، فبقى امامهم الانسحاب جهة الجنوب حيث سلك حبشى بن أحمد وفرقته هذا الطريق مرتين قبل ذلك (٦٥) .

وكان لزاما على ابن طنج أن يقضى على حركتهم فى مهدها ، فأرسل اليهم قائده صاعد بن كلثم على رأس جنده فى عدة مراكب حربية . غير أنه عجز عن الدوران بسفنه فى خليج الفيوم لضيقه ، فوقع فى قبضة حبشى ومن معه ، فقتلوه وظفروا بهراكبه ، وذلك فى ٢١ شوال سنة ٣٢٣ هـ (سبتمبر ٩٣٥ م) . ومن الفيوم اتجه حبشى الى الاسكندرية فى فرقته ، بينما سار على بن بدر وبجكم الأعور فى المراكب المصرية ، مارين بالفسطاط ، فأرسلوا بجزيرتها وأحرقوا دار صناعة السفن الموجودة بها وما كان بها من سفن ، وابن طنج عاجز عن التعرض لهم لوجود ماء النيل حائلا بينه وبينهم . ثم انحدروا بعد ذلك الى الاسكندرية حيث لحقوا بحبشى (٦٦) . فأرسل ابن طنج اليهم جيشا بقيادة اخيه عبيد الله بن طنج لقتالهم بالاسكندرية . ولكنهم غادروا أرض مصر الى بلدة الرمادة - القريبة من ساحل البحر بين الاسكندرية وبرقة - وشرعوا فى مكتبة الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله صاحب افريقية (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ = ٩٣٤ - ٩٤٥ م) يستأذنونه فى الدخول فى عمله ، ويسألونه أن يبعث اليهم بجيش يأخذون به مصر فانهم يعلمون وجوه الحرب وكيف الوصول اليها » (٦٧) .

ولاشك أن فى هذا ما يدلنا على أن حبشى بن أحمد ورفاقه قد بدأوا - منذ ذلك الحين - يفكرون فى العمل لحساب الفاطميين - بالمغرب - وذلك بعد أن تلاشت المكاسب التى حققوها فى مصر بفضل شجاعة محمد بن طنج - والى مصر القوى - وتفوق جيوشه،

ونجاح خطته في الايقاع بهم والقضاء على استبدادهم بالأمور في العاصمة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن مثل هذا التطور الجديد يدلنا كذلك على نجاح الفاطميين - بالمغرب - في سياستهم الرامية الى استقطاب عناصر من سكان مصر الى صفوفهم سواء عن طريق الدعاة الفاطميين والمغاربة المواليين لهم المنتشرين في أنحاء مصر أم عن طريق دسائس الولاة الفاطميين على برقة .

لذلك أعد الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله قوة كبيرة من كتامة ، أشرف عليها مولاة زيدان الذي انضم اليه في برقة : عامر المجنون ، وأبوزرارة - أو أبو تازرت - ، ويعيش الكتامي ، مع قوات حامية برقة الكتامية . ويبدو أن القيادة أصبحت للقائد يعيش الكتامي الذي سار مع القوات المعارضة لحكم ابن طنج ، يتقدمهم بجكم الأعور الذي صار قائدا للفرقة المعارضة من بقايا الأتراك وبربر البحيزة بعد مرض حبشى بن أحمد ووفاته بالرمادة « حسرة على ما خلفه بمصر » . وكان مسير هذه الحملة - التي عرفت بالثالثة - الى مصر من برقة في شهر صفر سنة ٣٢٤ هـ (يناير ٩٣٦ م) (٦٨) .

وكالصادة - أيضا - استولت هذه الحملة على مدينة الإسكندرية في ٢٢ ربيع الآخر سنة ٣٢٤ هـ (مارس ٩٣٦ م) ، وشرع قادتها في التوغل في الأراضي المصرية الا أن الجيش المصري الذي سيده محمد بن طنج بقيادة أخيه الحسن بن طنج ، فاجاهم فيما بين تروجة وابلوق - من أعمال البحيرة - في ٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٤ هـ (ابريل ٩٣٦ م) ، حيث دارت الدائرة على قوات الحلفاء الفاطمي المعادي ، وقتل القائد يعيش الكتامي أمير الجيش الفاطمي وبعض مساعديه ، وأسر منهم كثيرون من بينهم عامر المجنون (٦٩) . أما بجكم الأعور وبعض رجاله فقد تركوا ميدان القتال فرارا بأنفسهم الى برقه حيث استقروا بالرمادة - التي كانت تقع في ممتلكات الفاطميين . ثم انهم طلبوا الأمان بعد ذلك من

ابن طنج الذى عفا عنهم ، فعادوا الى الفسطاط فى سنة ٣٢٨ هجرية (٣٩ / ٩٤٠ م) (٧٠) . بينما كانت قوات ابن طنج قد عسدت الى الجيزة وحمل قائدها الحسن بن طنج معه اسرى الفاطميين فى ذات الشهر (جمادى الاولى = ابريل) ، حيث اكتفى محمد بن طنج بتشهيرهم فى شوارع الفسطاط ثم سجنهم بعد ذلك (٧١) .

وكان فشل هذه المحاولة سببا فى انصراف الفاطميين - مؤقتا - عن مصر الى شئون المغرب الذى شهد اضطرابات وثورات خطيرة شغلت البقية الباقية من خلافة القائم بأمر الله الفاطمى ، وطوال عهد ابنه المنصور أبى طاهر اسماعيل (٣٣٤ - ٣٤١ هـ = ٩٤٥ - ٩٥٢ م) . وكان أخطرها ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الزناتى الذى اشتد أمره منذ سنة ٣٣٢ هـ (٤٣ / ٩٤٤ م) حتى مقتله فى سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ م) (٧٢) . على أن هذا لم يمنع من استمرارهم فى الاطلاع على أحوال مصر الداخلية من خلال أعوانهم المنتشرين فى أنحاء مصر واللجوء الى سياسة الحرب الباردة فى التعامل مع محمد بن طنج - الذى تلقب بالإخشيذ ومعناها بالتركية ملك الملوك - وخلفائه من أفراد أسرته حكام مصر .

وبالمقابل نهج محمد بن طنج الإخشيذ تجاه هذه المحاولات سياسة حكيمة سار عليها خلفاؤه من بعده ، واعتمدت كثيرا على إدارة الفاطميين - بالمغرب - وعدم الدخول معهم فى أمور تستوجب العداء وبالتالى حضور حملات عسكرية أخرى الى مصر . وذلك كى يتيح الإخشيذ لنفسه الفرصة فى تثبيت أقدامه فى حكم مصر وفى التمتع بقدر من الاستقلال عن سلطان الخلافة العباسية - ببغداد - يمكنه من توريث الحكم لأعقابيه من بعده . وكان من الطبيعى أن تتضح معالم سياسة الوفاق مع الفاطميين أكثر فأكثر أثناء الفترات التى تعرض الإخشيذ خلالها لمتاعب مع العباسيين الذين أبدوا بعض التحفظات بصدد توسعاته فى الشام .

وقد بدأ الإخشيد سياسة الوفاق هذه باطلاق سراح عامرا
المجنون ورفاقه أسرى يوم أبلوق (جمادى الأولى ٣٢٤ هـ = ابريل
٩٣٦ م) من سجنهم بالفسطاط وذلك في شهر ذى القعدة من
سنة ٣٢٧ هـ (أغسطس ٩٣٩ م) ، وكانوا « مئة رجل وأربعة رجال
وأربعة آخرين » (٧٣) . ويبدو أن ذلك كان رداً عملياً من جانب
الإخشيد على خطاب أرسله اليه الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله يطلب
فيه صداقته (٧٤) . كذلك كان اطلاقه سراح هؤلاء الأسرى ضمن
اجراءات اتخذها الإخشيد قبل التوجه بجيوشه الى الشام لخوض
المعارك ضد محمد بن رائق الوالي العباسي على الشام ، في ذلك
الشهر (ذى القعدة) (٧٥) .

ولعل في هذه المهادنة التي بداها الإخشيد مع الفاطميين ،
ما شجع الدعاة والمغاربة أعوان الفاطميين على ممارسة نشاطهم في
الترويج للحكم الفاطمي على نطاق واسع بمصر ، ووصل الأمر
ببعضهم الى الاتصال بعلية القوم في الفسطاط مثل الماذرائي الذي
اتهم بمكاتبة الخليفة القائم الفاطمي وانه زين له فتح مصر (٧٦) .
وتغلغل بعضهم الآخر الى قصر الامارة واتصلوا بالإخشيد . وفي
ذلك ينفرد ابن سعيد بذكر رواية مؤداها أن الداعي الفاطمي أبا
الحسين محمد بن عبد الوهاب استطاع أن يؤثر على الإخشيد بشأن
اقامة الدعوة للخليفة الفاطمي على منابر المساجد بمصر ، وان
الإخشيد عهد بتنفيذ هذه الفكرة الى عمر بن الحسين العباسي
الخطيب بمسجد عمرو بن العاص بالفسطاط (٧٧) . وايماً كانت
الاسباب التي ذكرت لتبرير ذلك ، فان الإخشيد كان يعلم أن هذا
الأمر يعنى استبدال سيد بسيد آخر ، وهو ما يتعارض تماما مع
سياسته في توطيد استقلاله بمصر (٧٨) .

ومن ناحية أخرى ، فقد عول الإخشيد على الاستفادة بجهود
العديد من أفراد وجماعات المغاربة المنتشرين في أنحاء مصر ،

سواء المقيمين بها أم الوافدين اليها في طريق الحج * فظهر منهم أعداد عملوا كمتطوعين في الجيش المصري * ومن الطريف ما روى عن اعتماد الإخشيد على أحد جنوده هؤلاء لانتقاذه من مازق دبلوماسي وقع فيه مع الخلافة العباسية اثناء وجوده بالشام . فقد طلب منه الخليفة المتقي العباسي (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ = ٩٤٠ - ٩٤٤ م) ان يصحبه معه الى بغداد . ولما كان هذا الطلب يعنى دخول الإخشيد في دائرة الصراع مع القادة الأتراك المسيطرين على شئون الخلافة ببغداد ، فقد تخرج الإخشيد من الاجابة وصار يبحث عن مخرج من هذا المازق * ثم هداه تفكيره الى الاتفاق مع هذا المتطوع المغربي الموجود بمعسكره على أن يدعى الأخير انه تسلم من أخيه - بالمغرب خطابا يفيد ان الخليفة القائم الفاطمي قد علم بمسير الإخشيد الى الشام وانه جهز جنوده في البر والبحر الى مصر مغتتما خلوها من الجند . وأوصى الإخشيد تابعه هذا بأن يعمل حيلته في اظهار الخطاب وكأنه قديم « مفركه ودعكه » . وانطلقت هذه الحيلة على الخليفة العباسي الذي أمر الإخشيد بالمسير الى مصر على الفور (٧٩) *

وفي الناحية الادارية برز أبو نصر غلبون بن سعيد المغربي الأصل الذي نرجسح ان الإخشيد قد استعمله على اقليم اسيوط وأخميم ، قبل أن يستقر بعد ذلك في ولايته على اقليم الاشمونين (٨٠) . ويؤكد ابن حوقل على أن الإخشيد كان قد اتخذ من أبي الحسن البلزمي - نسبة الى بلزمة على الطريق بين باغاية وطبنة من أعمال المغرب الأوسط - مستشارا له ، وذلك بعد أن آنس فيه صلاحا وورعا (٨١) .

وتجدر الإشارة الى أن منطقة الواحات قد شهدت في آخريات حكم الإخشيد - وبالتحديد قبيل سنة ٣٣٠ هـ (٤١ / ٩٤٢ م) -

حدثنا هاما تمثل في رواية المسعودي عن أن « صاحب الواحات في وقتنا هذا — وهو سنة اثنين (كذا بالنص) وثلاثين وثلثمائة (٤٣ / ٩٤٤) — عبد الملك بن مروان • وهو رجل من لواته الا انه مرواني المذهب ويركب في الوف من الناس خيلا ورجلا ونجبا » (٨٢) •

ووجه الأهمية هنا ليس في كون عبد الملك هذا بربريا من لواته ، اذ المعروف أن الغلبة العددية في تلك البقاع كانت دائما معقودة لهذه القبيلة العتيقة • ولكن أهمية هذا النص تتمثل في نواح أخرى عديدة ، نلمسها في :

— اسم هذا الحاكم الذي يبدو لنا كقطاع لسلسلة افتراضية تتابع خلالها أفراد من أسرة آل عبدون اللواتيين في حكم الواحات « — أول ما فتحها المسلمون » حسبما نص على ذلك ابن حوقل (٨٣) •

— الوصف الذي أطلقه المسعودي على هذا الحاكم بأنه « مرواني المذهب » . الأمر الذي يدلنا على أن عبد الملك هذا كان في ولاء البيت الأموي ، الذي لم يكن له وجود آنذاك الا في الأندلس وأميرها عبد الرحمن الثالث الملقب بالخليفة الناصر لدين الله (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ = ٩١٢ — ٩٦١ م) • ولعله ليس من قبيل المصادفة أن يكون اسم هذا الحاكم شاهدا على هذا الانتماء اذ ان اسم «عبد الملك ابن مروان » انما هو في الواقع بمثابة توليفة أموية خالصة •

— عبارة « ويركب في الوف من الناس خيلا ورجلا ونجبا » التي نتعرف من خلالها على نظام الحكم الذي كان عبد الملك بن مروان يتبعه في الواحات • وهو كما يبدو كان أقرب ما يكون الى أنظمة الحكم العسكري التي عادة ما يستند أصحابها الى القوة العسكرية في اثبات وجودهم وفرض هيبتهم •

وفى ضوء الاعتبارات السابقة لا نعتقد أننا نكون مبالغين فى تصوير هذا الحادث على أنه كان انقلاباً فى حكم الواحات دبره عبد الرحمن الناصر — الخليفة الأموى بالأندلس — بقصد التمكين لصنيعته اللواتى عبد الملك بن مروان فى حكم المنطقة . وذلك — على ما يبدو — لضمان غلق هذه الجبهة أمام حملات الفاطميين العسكرية ، سيما بعد أن وضع مدى الضعف الذى أصاب آل عبدون — الحكام الأصليين للواحات — وعجزهم عن مقاومة حملة مسرور ابن كافى الكتامى على الواحات (أواخر سنة ٣١١ هجرية = ٩٢٤ م) . رغم وجود الكرمازى — الحاكم العسكرى المعين على المنطقة من قبل حكومة الفسطاط — كرمز للتعاون المشترك بين الحكومتين (العباسية فى الفسطاط ، واللواتية فى الواحات) فى دفع الخطر الفاطمى (٨٤) .

ويلاحظ أن أمر هذا الانقلاب ، ان صح بتلك الكيفية ، فإنه يضيف جديداً الى ما بذله الخليفة الناصر الأموى من أجل مناهضة الوجود الفاطمى بالمغرب ، وبخاصة فيما يتعلق بدور الناصر فى تشجيع الواقفين الى مصر من الحجاج والدارسين المغاربة والاندلسيين على القيام بدعائيات سنوية مضادة لدعائيات الفاطميين ، كما سنرى فى حينه (٨٥) . كما أنه يعد سابقة تلتها حركة الثائر الأموى الوليد بن هشام المعروف بابى ركة الذى ستلى الإشارة الى ثورته على الفاطميين — بعد انتقالهم الى مصر — بناحية برقة .

وفى شبه محاولة من جانب المسعودى للتأكيد على صحة أمر هذا الانقلاب ، يشير الى أن عبد الملك بن مروان — عقب تسلمه مقاليد الحكم فى الواحات — بعث رسولا من قبله الى قصر الامارة بالفسطاط ، فى سنة ٣٣٠ هـ (٩٤٢/٤١ م) للقاء الإخشيد . كى يشرح له — على ما يبدو — الدوافع الحقيقية لوجوده فى حكم

الواحات ، وربما كذلك لتنسيق الجهود المشتركة بين الطرفين من أجل تأمين المنطقة (٨٦) .

ويبدو أن الإخشيد — الذى استغرقته تماما أحداث الشام طوال فترة حكمه (٨٧) — كان مضطرا لانتهاج سياسة مرنة تجاه هذا التطور الذى تعرضت له منطقة الواحات . بحيث انه رضخ لسياسة الأمر الواقع واعترف بتغلب ابن مروان اللواتى على حكم الواحات ، على أساس ان الأخير سيتكفل بعصبة الدفاع عن هذه المنطقة النائية . كما كان من المنطقي أن يكون الإخشيد قد حصل من ابن مروان — من خلال مبعوثه الخاص — على ضمانات كافية بعدم التفكير فى القيام بمستقبلا بأعمال عدوانية ضد نفوذ الإخشيد فى صعيد مصر .

وخلاصة القول ، ان محمد بن طفج الإخشيد قد نجح الى حد كبير فى فرض نوعا من التوازن ازاء المتناقضات التى اتسم بها الأداء المغربى بمصر طوال فترة حكمه . وكان اعتماده فى ذلك على قدرته الخاصة كحاكم كفء استطاع أن يسير بسفينة الأحداث فى مصر الى بر السلامة . الأمر الذى كان يتطلب من خلفاء الإخشيد بذل المزيد من الجهد لملء الفراغ الذى نتج عن وفاته ، حتى يمكنهم الاستمرار فى الاحتفاظ بوحدة البلاد فى وقت اشتدت فيه وطأة التدخل الفاطمى فى شئون مصر الداخلية .

٢ — فى عهد خلفائه (٣٣٤ — ٣٥٨ هـ = ٩٤٦ — ٩٦٩ م) :

توفى محمد بن طفج الإخشيد ودفن ببيت المقدس فى شهر ذى الحجة من سنة ٣٣٤ هـ (يولية ٩٤٦ م) ، بعد أن أوصى بالحكم من بعده لابنه أبى التماسم أونوجور (٣٣٤ — ٣٤٩ هـ = ٩٤٦ — ٩٦٠ م) ، على أن يكون عبده كافور الحبشى — المعروف

بأبي المسك كافور الإخشيدي — وصيا عليه لصغر سنه . وقد استطاع كافور أن يستبد بالحكم وأن يصير الحاكم الحقيقي للبلاد طوال فترة وصايته على أبي القاسم ، وكذلك على أخيه الأصغر أبي الحسن على بن الإخشيد (٣٤٩ - ٣٥٥ هـ = ٩٦٠ - ٩٦٦ م) . ثم حكم بعد ذلك كوال رسمي على مصر باعتراف الخلافة العباسية مدة سنتين ونصف انتهت بوفاة في شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ (إبريل ٩٦٨ م) . فخلفه أبو الفوارس أحمد حفيد الإخشيد في الحكم حتى سقطت مصر في حوزة الفاطميين سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) .

وقد جعل كافور نصب عينيه الاحتفاظ بوحدة البلاد والقضاء على الفتن الداخلية والخارجية التي واجهته ، وأبدى في ذلك همّة كبيرة لا تقل عما بذله سلفه وسيدّه الإخشيد . وبصدد سياسته مع المغاربة والأندلسيين الموجودين بمصر آنذاك ، فلم تختلف كثيراً عما أبداه الإخشيد من كفاءة سواء من حيث التعامل بالحزم الكافي مع العناصر المغربية الميالة للشغب ، أم من حيث إبداء بعض المرونة في الحالات التي كانت تتطلب ذلك . فمثلاً : نجح كافور — في شهر ربيع الآخر من سنة ٣٣٥ هـ (نوفمبر ٩٤٦ م) — في القضاء على ثورة محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد المعروف بابن السراج العلوي التي كانت بمثابة أول تحدٍ سافر وجهه له الفاطميون بالمغرب . ذلك أن ابن السراج كان قبل قيامه بثورته تلك مقيماً تحت كنف الفاطميين بإفريقية منذ سنة ٣٣٠ هـ (٩٤٢ م) اثر فشل ثورته التي قام بها في وجه الإخشيد بصعيد مصر . فكان من الطبيعي أن تكون ثورته الثانية قد تم الإعداد لها بمعرفة الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله (٨٨) . ولهذا وصفه ساويرس بأنه « ثابر من الغرب » (٨٩) . وفي أعقاب ذلك مباشرة نشبت أزمة داخلية اتسمت بالخطورة هذه المرة عندما أدت الى زعزعة مركز الحكومة

الإخشيدية بعض الشيء في العاصمة . وكان بطلها أبو نصر غلبون ابن سعيد المغربي الأصل ، الذي كان الإخشيد قد احتباه بمنصب والى أسيوط وأخميم ، ثم نقل الى اقليم الأشمونين خلال تعديلات ادارية أجراها كافور ، على ما يبدو (٩٠) . أما عن تفاصيل هذه الأزمة فتبدأ في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٣٥ هـ (يناير ٩٤٧ م) عندما انتزى غلبون بمدينة الأشمونين منتهزا فرصة انشغال كافور وأفراد البيت الإخشيدى بخوض المعارك في الشام ، واضطراب الأوضاع في العاصمة نتيجة انقسام الجنود الباقين بها الى طائفتين (كافورية واخشيدية) وحدوث المنازعات بينهما . وتمكن غلبون أثناء ذلك من اخماد المعارضة التي أثارها أهل المدينة في وجهه ، ثم خرج للقاء حملة عسكرية أتت اليه من الفسطاط بقيادة شادن التركي . وكان النصر حليفا لغلبون بعد أن كمن في الطريق لجنود الحملة وقتل معظمهم ، بينما فر الباقون وفيهم شادن الى العاصمة للاستعداد من جديد لحرب غلبون (٩١) . وقد اكتسب غلبون بهذا النصر ثقة كبيرة جعلته يشرع في المسير الى الفسطاط للاستيلاء عليها ، ونجح في تضليل الجيش الذي سار اليه آنذاك « بأن خالفهم في الطريق وجاء الى الفسطاط » (٩٢) . وسهل على غلبون حينذاك اقتحام الفسطاط التي كانت خالية من الجنود ، الا قليلا منهم قتلهم غلبون عن آخرهم ، ونزل في دار الامارة (٩٣) . ويفهم من رواية الكندي أن اقامة غلبون بالفسطاط قد استغرقت العام أو أكثر ، قبل أن يضطر لمغادرتها اثر وقوع خلاف بينه وبين جنوده . في الوقت الذي حضر فيه كافور بقواته الى مصر ، فسهل عليه أن يوقع بغلبون في القتال الذي دار بينهما عند مشارف الفسطاط ، في ٢٥ ذى الحجة سنة ٣٣٦ هـ (يونية ٩٤٨ م) . وقد لقي غلبون حتفه في هذا القتال ، فصدر الأمر بأن تفصل رأسه عن جسده حيث علقت على جدران أحد المساجد بالفسطاط . مما يدل على مدى الاحساس بالمرارة الذي تولد في

داخل كافور وباقي أفراد البيت الأخشيدي بسبب ثورة غلبون
التي أضرت كثيرا بهيبة الدولة وقطعت السابلة حتى ان قافلة
الحج المصرى لم تخرج فى هذا العام « لانشغالهم بغلبون » (٩٤) .

ومن ناحية أخرى ، يبدو أن كافورا لم يعمد الى تغيير سياسة
الاعتراف بالأمر الواقع التى اتبعها سلفه الإخشيد مع عبد الملك
ابن مروان اللواتى ، المتغلب على حكم الواحات . بحيث استمر
الأخير فى سياسته القسائية على تعبئة موارد الواحات المادية
والبشرية لدفع الخطر الفاطمى المتوقع بين لحظة وأخرى . بيد أن
الخطر الحقيقى الذى تعرضت له المنطقة خلال هذه الفترة - على
وجه الخصوص - جاء من ناحية الجنوب عندما سار ملك النوبة
على رأس جيش عظيم الى الواحات « فأوقع بأهلها وقتل
منهم وأسر كثيرا » وذلك فى سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م) (٩٥) .
مما يعنى أن المشروع الأموى - الذى بذل الخليفة الناصر بالاندلس
جهده فى تحقيقه فى هذه المنطقة النائية من جنوب غرب مصر ،
على ما رجحنا - قد انتهى سريعا وبشكل غير متوقع . اذ اننا لم
نسمع ثانية عن عبد الملك بن مروان الذى من المؤكد انه راح ضحية
هذا الاعتداء ، سواء كان قتل أثناء محاولته صد الهجوم النوبى ،
أم فر الى سيده الناصر الأموى يفتنه بفشل مسعاه . ونرجح أن أهل
الواحات - عقب خروج الجيش النوبى عائدا الى بلادهم - قد نادوا
بعودة حكامهم الشرعيين من آل عبدون اللواتين ، الذين سنجدهم
اشارة تالية لوجودهم فى حكم الواحات واستمرارهم فيه الى ما بعد
دخول الفاطميين مصر (٩٦) . ولعل بادرة من جانب كافور باعلان
تأييده لعودة آل عبدون الى الحكم ، مصحوبة باعتذاره عن عدم
تقديم المساعدات اللازمة أثناء محنتهم ، كانت سببا فى عودتهم الى
سابق تعاونهم واخلاصهم فى مقاومة أطماع الفاطميين ، كما سيتضح
حالا .

أما عن أموي الأندلس فقد أدركوا أن وسائلهم على هذا النحو لن تنجح في الحد من تزايد النفوذ الفاطمي في مصر . فركزوا جهودهم في الانفاق على علماء المذاهب السنية بمصر - المالكية منهم بوجه خاص - تشجيعا لهم على القيام بدعايات سنية مضادة لدعايات الفاطميين الشيعة . واستخدموا لهذا الغرض جماعات الحجاج والدارسين الوافدين الى مصر . وقد رد كافور عن ذلك بالمثل ، مما أدى الى أن تكونت حركة معارضة سنية حظت بتأييد الجهات الرسمية في مصر والأندلس . وحاول خلالها العديد من المغاربة والأندلسيين - الى جانب نظرائهم المصريين - احتواء دعوة التشيع بمصر . الأمر الذي سنلمس آثاره عند دراستنا للدور المغربي في العلوم والفنون .

أما عن أهم الأخطار التي هددت أمن مصر خلال هذه الفترة وتطلبت من كافور كل التركيز والاهتمام من أجل القضاء عليها ، فقد جاءت كلها من ناحية الفاطميين - بالمغرب - الذين عادوا من جديد الى ممارسة سياسة الضغط بقوة على مصر من خلال دعاياتهم والمغاربة الموالين لهم المنتشرين في أنحاء مصر . الأمر الذي بلغ ذروته مع تولى المعز لدين الله الخلافة الفاطمية في سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ م) . في الوقت الذي توالى فيه الأزمات الاقتصادية بسبب انخفاض ماء النيل في سنوات الفيضان وما كان يتبع ذلك من ندرة الأقوات وغلاء الأسعار ومجاعات ، مع فتن داخلية تؤثر على الأمن العام في الطرقات وغيرها . مما أسفر في النهاية عن سقوط مصر في أيدي الفاطميين سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) .

ففي البداية حرص الخليفة المعز الفاطمي على اتباع أسلوب جديد في الضغط على مصر ، تمثل في اجلاء جماعات من أعوانهم المغاربة الى مصر ، حيث كانوا مكلفين بالعمل على تخريب الاقتصاد

المصري تحت ستار التجارة وطلب العلم . وحتى لا يثيرون أية شكوك لدى حكومة الفسطاط ، فقد أخذت تحركاتهم الجماعية الى مصر طابعا سلميا هادئا . وكانت وسائل هؤلاء الأعوان في ذلك تعتمد على استغلال الأزمات الاقتصادية التي كانت تعانى منها البلاد كأن يتكالبوا على شراء المواد الغذائية في وقت الأزمات ، فتندرج ويزداد الغلاء ، وتشتد بالتالى القلاقل والاضطرابات . وهذا بالفعل ما حدث فى سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) عندما استقر فى الاسكندرية وضواحيها اعداد من « المغاربة أعوان الخلفاء الفاطميين ، الواردين اليها من المغرب » . اذ ترتب على ذلك أن « وقع الغلاء بمصر ، واضطربت أمور الديار المصرية والاسكندرية ٠٠٠ وتزايد الغلاء وعز وجود القمح » . وزاد الأمر سوءا حينما « قل ماء النيل فى هذه السنين ، فارتفعت الأسعار أكثر مما كانت عليه ، ووهنت ضياع مصر وقراها من عدم زيادة النيل ، وعظم الغلاء ، وكثرت الفتن » . حتى أن المصريين عجزوا عن دفع خطر البيعة سكان النوبة الذين عاودوا الهجوم على صعيد مصر ، ووصلوا هذه المرة حتى مدينة اخميم . وباختصار « عظم اضطراب أعمال الديار المصرية قبلها وبحريها » . وكان السبب فى ذلك انشغال المصريين « بالغلاء والمغاربة الفاطميين » (٩٧) . وشهدت هذه الفترة كذلك - كنتيجة طبيعية لنزوح هؤلاء الأعوان الى غربى مصر على هذا النحو - هياج البربر - من أهل المغرب - بالاسكندرية ، فى شهر ربيع الآخر من سنة ٣٥٣ هـ (ابريل ٩٦٤ م) ، وتعاون معهم عرب بنى قرة فى الثورة على الحكومة الإخشيدية . فبعث اليهم كافور قوة عسكرية على رأسها من القادة : يمن الطويل المعروف بالمفلح وأبو منجل سلامة الكافورى . فلما صارت عند محلة حفص - من نواحي البحيرة - داهمها المغاربة ليلا ووقعوا بجنودها - ثم لاذوا بالفرار وتفرقوا فى النواحي حتى يصعب على الحكومة تتبعهم (٩٨) .

فى حين كانت استعدادات المعز لدين الله تجرى على قدم وساق لتجهيز الحملة التى ستتولى فتح مصر . فعهد المعز الى جوهر القائد بانتقاء الرجال الأشداء ، كما أمر عماله على مدن فاس وطرابلس وبرقة بأن يتعاون كل منهم مع الآخر فى اطار اقليمه من أجل حفر الآبار والينابيع وبناء استراحة فى كل محلة ينزل بها الجيش الفاتح . ورصد لذلك أموالا كثيرة بلغ مجموعها حوالى أربعة وعشرون مليوناً من الدينارات وضعها المعز فى صناديق خاصة وختم عليها بخاتمه ، وكلف بها ابن مذهب صاحب بيت ماله . وبلغ مجموع ما حشده المعز من جند كتامة وعبيد زويلة وطبقة الفتيان نحو مائة ألف (٩٩) . هذا ، فى الوقت الذى توالى خلاله تقارير أعوان الفاطميين من الدعاة والمغاربة المنتشرين فى أنحاء مصر تبشر المعز بقرب سقوط مصر ، فقط « اذا سقط الحجر الأسود (يعنون بذلك كافور الاخشيدي) » (١٠٠) .

وتخلل ذلك أن سير المعز لدين الله حملة الى مصر عن طريق الواحات وذلك فى سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) ربما لتخير أى الجهات أفضل لمسير حملة الفتح : الطريق الساحلى أم طريق الصحراء (١٠١) . ورغم أن هذه الحملة أحرزت بعض الانتصارات الأولية على أهل الواحات ، حتى ان حاكمها آنذاك - الذى ورد اسمه هكذا « ... بن عبدون » - لقي حتفه أمام الجنود الفاطميين ، الا انها لم تتم مهمتها ، وسرعان ما عادت من حيث أتت ، بسبب انتشار الأوبئة بين الجنود (١٠٢) . مما أكد للمعز أن الطريق الساحلى أفضل لمسير حملة جوهر .

وتهىأت بذلك كل أسباب النجاح لحملة الفتح الفاطمى على مصر ، او ما يعرف بالحملة الرابعة ، وكانت الرحلة الى مصر أشبه « بنزهة عسكرية طويلة الأمد ، تخللتها الإقامة المتقطعة على

طول الطريق «(١٠٣) . وقد خرج القائد جوهر الصقلي على رأس هذه الحشود من القيروان في ١٤ ربيع الآخر سنة ٣٥٨ هـ (فبراير ٩٦٩ م) ، ودخل الاسكندرية بغير مقاومة ، وشرع في السير بحذاء النيل الى الفسطاط . ولما اتصل بأهل الفسطاط نبأ وصول جيوش الفاطميين الى الاسكندرية واستيلائهم عليها ، ندبوا الوزير جعفر بن الفرات لمفاوضة جوهر في الصلح وطلب الأمان على أرواحهم وأموالهم . ثم اتفقوا على أن يتكون وفد المفاوضة برئاسة الشريف العلوي أبي جعفر مسلم الحسيني والقاضي أبي طاهر الذهلي . وقد التقى الوفد بجوهر عند تروجة - من نواحي البحيرة - في ١٨ رجب سنة ٣٥٨ هـ (يونية ٩٦٩ م) واستصدر منه كتاب الأمان الذي كتبه جوهر وأعلنه للمصريين (١٠٤) .

وباستثناء بعض المقاومات البسيطة التي أبدتها زعماء الكافورية والإخشيديّة عند منية شلقان - شرقي القناطر الخيرية - واستطاع القائد الكتامي جعفر بن صلاح أن يقضي عليها ببطولة فدائية ، يمكن القول بأن دخول جوهر مدينة الفسطاط في يوم الثلاثاء الموافق ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (يوليو ٩٦٩ م) قد تم دون معارضة (١٠٥) .

وعلى هذا النحو تم للفاطميين الاستيلاء على مصر ، وابتدأ بذلك عصر جديد صارت مصر فيه مركزا للخلافة الفاطمية الآتية من المغرب .

الهوامش

(١) عن ذلك انظر : البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق وتعليق الأستاذ محمد كرد علي ، دمشق ١٩٣٩ ، ص ٦١ ، والكندى : ولاية مصر ، ص ٢٣٩ .
وراجع : د . عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية ، ص ٩٢ .

وقد سبقت ثورة بغا الأصغر ، أخرى قام بها أحمد بن إبراهيم بن عبد الله ابن طباطبا العلوى ، المعروف ببغا الأكبر ، فى سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) . وقد انتهت فى تلك السنة ، وقبيل ولاية أحمد بن طولون على مصر . عنها انظر : البلوى : ص ٦١ ، والكندى : ص ٢٣٨ ، ود . البرى : صفحة ٩٢ .

(٢) البلوى : ص ٦٢ - ٦٣ ، والكندى : ص ٢٤٠ . وراجع : ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٩٣ .

(٣) المصادر السابقة والصفحات . وراجع : د . البرى : المرجع السابق ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٤) والعمرى ، هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد بن عبد العزيز ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب . بدأ حياته فى جهاد البجة بجنوب مصر ، ولجج فى ذلك الى جد كبير . منذ سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٩ م) الى سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٣ م) . ثم آل أمره الى زوال بتدبير أحمد بن طولون الذى أحفظه نزايد لغوذ العمرى فى جنوب مصر . وانتهت حياته على أيدي بعض أعوانه . عن ذلك انظر : البلوى : ص ٦٤ و ٦٦ - ٦٧ ، والكندى : ص ٢٤٠ - ٢٤١ . وراجع : دكتور البرى : المرجع السابق ، ص ٧٨ ، ود . الشاطر بصيل عبد الجليل تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط ، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٦٢ - ١٦٥ ، ودكتور عطية القوصى : تاريخ دولة الكتوز الاسلامية ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٩٨١ ، صفحة ٣١ - ٣٥ .

(٥) البلوى : ص ٦٤ - ٦٥ ، الكندى : ص ٢٤١ .

(٦) عن ثورة أبي الروح سكن ، انظر : البلوى : ص ٦٩ - ٧٠ .

(٧) المصدر نفسه : ص ٧٠ - ٧٢ .

(٨) د . محمود اسماعيل : المرجع السابق ، ص ٨٧ ، ود : محمد أحمد عبد بلوى
أضواء على عصر الأمير ابراهيم الثاني الأغلبى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة طنطا ،
العدد الأول ١٩٨٢ ، ص ٩٨ .

(٩) عن تفاصيل خروج العباس على أبيه وانسياحه بقواته فى إقليم برقة .
وحصاره لمدينة طرابلس ، ثم انتهاء أمره - انظر : السلوى : ص ٢٤٤ - ٢٥٦
و ٢٦٠ - ٢٧١ ، والكندى : ص ٢٤٦ - ٢٥٠ ، وابن سعيد المغربى : المغرب فى
حلى المغرب ج ١ من القسم الخاص بمصر ، ص ١١٨ - ١٢٣ ، وابن عذارى :
البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١١٨ - ١١٩ . وراجع كذلك : دكتور سعد رطلول :
تاريخ المغرب العربى ، ج ٢ ، ص ١٢٠ - ١٢٥ .

(١٠) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٢ - ٥٣ . وسيل تفصيل لذلك فى الفصل
الثقافى .

(١١) انظر فى ذلك : د . أحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى
مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٨٢ ، ص ١٣٤ .

(١٢) عن ذلك انظر : مؤلف مجهول : أخبار مجموعته فى فتح الأندلس وذكر
أمرائها تحقيق ابراهيم الايبارى ، ط ١ ، سلسلة المكتبة الأندلسية رقم (١) ،
مطبوعات دار الكتاب المصرى - اللبنانى ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .
راجع : دكتور محمود على مكى : التشيع فى الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة
الأموية ، مقال فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمديرية المجلد الثانى
عدد ١ - ٢ ، مدريد ، اسبانيا ١٩٥٤ ، ص ١١٢ .

وسيل تفصيل عن أبى اليسر ودوره الأندلسى ، وقاملة الحج التى أحضره
الى مصر ، وتاريخ قدومه على وجه الدقة ، وكذلك العالم المصرى الذى ربما كان
قد شفع فيه ، كل ذلك فى الفصل الثقافى .

(١٣) الكندى : ص ٢٦٤ ، ابن تغرى بردى : ج ٣ ، ص ٦٤ .

(١٤) الكندى : ص ٢٦٥ .

(١٥) المصدر نفسه : ص ٢٦٦ • وراجع : المقرئى : خطط ، ج ١ ، ص ٦٠٦ ، وابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٣ ، ص ٩٩ - ١٠٠ •

(١٦) الكندى : ص ٢٦٨ • وقد فتحت هذه السياسة المجال أمام مغامرين آخرين من بربر البحيرة للالتحاق بخدمة الدولة لقاء أجر معلوم ، ولحق منهم القائد حبشى بن أحمد ورفاقه قبيل ولاية محمد بن طنج الاخشيد على مصر كما سترى بعد قليل •

(١٧) ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، قام على نشره د • عزيز سوريال عطية وآخرون ، مطبوعات جمعية الآثار القبطية قسم النصوص والوثائق ، الجزء الثانى من المجلد الثانى ، ١٩٤٨ ، ص ٧٧ • ويلاحظ أن الأمر لم يكن لمزوا عسكريا بالمعنى المفهوم وإنما قصد به قلاقل واضطرابات شهدتها المدينة نتيجة التشاير جواسيس الفاطميين فى المنطقة •

(١٨) المصدر نفسه والجزء ، ص ٧٧ - ٧٨ •

(١٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ١٩٠ - ١٩١ ، ابن سعيد : المغرب ج ١ من القسم الخاص بمصر ، ص ١٤٥ •

(٢٠) الكندى : ص ٢٦٨ - ٢٦٩ •

(٢١) نفسه : ص ٢٨٥ •

(٢٢) ولاية مصر : ص ٢٨٦ • وانظر : د • محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٥١ •

(٢٣) ولاء : ص ٢٨٥ •

(٢٤) نفسه : ص ٢٨٦ •

(٢٥) انظر فى ذلك : د • محمد أحمد عبد المولى : القوى السنية فى المغرب من قيام الدولة الفاطمية الى قيام الدولة الزيرية ، ط ١ ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٨٥ ، ج ١ ، ص ١٣٠ - ١٣١ وهامش رقم ٤ ، ص ١٣١ - ١٣٣ حيث الاشارة الى أن أبا القاسم كان ابنا روحيا للخليفة المهدي •

(٢٦) هناك اختلافا عاما حول هذه الحملة : فسعيد بن بطريق يجعل تاريخ قدومها برقة هو سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) • (انظر : التاريخ المجموع على التحقيق

والتصديق ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٩ م . ومدقق به تاريخ يحيى ابن سعيد . ص ٧٩) . واعتبرها البعض حملتين منفصلتين وان أبا القاسم هو الذى خرج أولا على رأس حملته الى برقة فى سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) ثم دخل مصر وخرج منها مهزوما ، ثم تلاه حياسة على رأس حملة أخرى منفصلة عن الأولى ، دخلت مصر فى سنة ٣٠٢ هـ (٩١٤ - ٩١٥ م) ولحققتها الهزيمة كذلك . (انظر : عريب بن سعد القرطبي : حملة تاريخ الطبرى ، ضمن مجموعته ذيول تاريخ الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، المجلد الحادى عشر ، دار المعارف بمصر ١٩٨٢ ، صفحة ٤٨ و ص ٥١ ، والمقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء . تحقيق فون هيوغو بونز ، طبعة دار الأيتام السورية ، القدس ١٩٠٩ م ، ص ٤١ - ٤٢ ، وتحقيق د . جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٩٨ - ١٠٠) . بينما يذكر الكندى أن القائد حياسة هو الذى اضطلع بمهام هذه الحملة ولم يشر الى وجود أبى القاسم بن المهدي . (انظر : ولاية مصر ، ص ٢٨٧ - ٢٨٩) . وقد حاول د . لقبال موسى بن علاوة التوفيق بين كل هذه الآراء على نحو مقبول . (انظر : دور قبيلة كتامة فى تاريخ الدولة الفاطمية ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٩٧٢ ، ص ٤٨١ - ٤٨٢) .

(٢٧) ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ١٧٢ . وراجع : د . لقبال موسى : دور قبيلة كتامة ، ص ٤٨٢ .

(٢٨) مجهول : أخبار البربر ، ص ٥٠ .

(٢٩) الكندى : ولاية مصر ، ص ٢٨٧ . ويلاحظ ان انقسام القيادة المصرية لى برقة كان سببا فى استيلاء أبى القاسم على المنطقة ، ومن قبلها حدث ذات الشيء عند مدينة سرت .

(٣٠) ابن عذارى : ج ١ ، ص ١٧١ - ١٧٢ . ولم يجد أبو القاسم كذلك صعوبة فى الاستيلاء على مدينة الاسكندرية التى « حرب أهلها فى البحر بما خف من أموالهم ، وأسلموا سائر أئقالتهم فاحتوى أبو القاسم وحياسة على جميع ذلك » .

(٣١) الكندى : ص ٢٨٨ وابن عذارى : ج ١ ، ص ١٧٢؛ ومشتول من ثرى الجيزة على مقربة من القاهرة .

(٣٢) ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ١٧٣ . ود . لقبال : دور قبيلة كتامة ص ٤٨٣ .

(٣٣) الكندي : ص ٢٨٦ - ٢٨٧ ، وابن تغرى بردى : ج ٣ ، صفحة ١٧٢ - ١٧٣ . ولاحظ ان ابن تغرى بردى يلقب أحمد بن صالح بابى اليمنى او أبى اليمن . وتبدو أهمية الدور الذى لعبه أعوان الفاطميين ، آنذاك فى أنهم حصلوا على معلومات من مصر الامارة بالفسطاط تفيد عزل القائد أبى النمر عن منصبه واستطاعوا كذلك بوسيلة ما أن يحصلوا على صورة من القرار ، وأرسلوه للقائد حباسة الكثامى المرباط بقواته أمام مدينة سرت حيث كان القائد أبو النمر مقيما وسط جنوده بالمدينة ولم يكن يعلم بنبا عزله . ولهذا كانت صدمة شديدة عندما أظهر له حباسة قرار عزله . وجعله هذا يفادر المنطقة مخاضيا حيث عاد أبو النمر الى الفسطاط تاركا قواته تنسحب الى الأخرى .

(٣٤) الكندي : ص ٢٩٠ - ٢٩٢ وقد صور أحد الشعراء المصريين المعاصرين للحملة الفاطمية الأولى دور هؤلاء الأتباع فى التمهيد لهذه الحملة وذلك فى إحدى قصائده التى جاء فيها : .

وقد وافى حباسة فى كسـام	بكل مهنة وبكل خطى
وقد حشدوا مصر ودون مصر	له خرط القتاد واى خرط
واقبيل جاهـلا حتى تخطى	وجاز بجهله حسـد التخطى
بكسب جماعة قد كاتبوه	من اقبساط بمصر وغير قبلى
وكل كاتبوه وناقـسونـا . .	وكل فى البلاـد له موطنى

(٣٥) نفسه : ص ٢٩٢ .

(٣٦) ابن عدادى : البيان ، ج ١ ، ص ١٧٠ و ١٧٣

(٣٧) الكندي : ص ٢٩٢ ، والمقرئى ، خطه ، ج ١ ، ص ٣٤٢ .

(٣٨) البكرى : المغرب ، ص ١ .

(٣٩) يشير الكندي (ص ٢٨٩) الى موشة قالها أحد الشعراء المصريين ، فى قتل أهل مصر أثناء هذه الحملة . وقد ظهر من خلالها أن العدو كله انما هو كتمانهم وأنهم حزب الكفر ، وذلك فى القصيدة التى منها :

ألا شقى جيب الصبر ان كنت موجعا	ولا يلف لاح فيك للمدل مطمعا
لما دهم الاسلام من فجع حاد	تهم له أركانه ان تضعفـما
لمصر اخوان على الدين صرعوا	لنصرة دين الله ، يالك مصرعـما

ومنها :

قولى بخبرى طوقته كتابه ولاد سقيت كاسسا من الموت مترها

(٤٠) نفسه : ص ٢٩٢ - ٢٩٤ . وراجع كذلك : عريب بن سعد : ص ١ تاريخ الطبرى ، صفحات ٧٣ ز ٧٥ و ٧٨ ، المقرئى ، اتعاط الحنفا ، ج ١ تحقيق د . الشيال ، ص ١٠٣ ، ابن قفرى بردى : النجوم ، ج ٣ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ . وانظر : د . لقبال : دور قبيلة كتامة ، ص ٤٨٣ - ٤٨٥ .

وعن القائد أبى العباس خليل بن اسحاق الذى تولى حامية الأموال فى مدينة الاسكندرية بعد استيلاء أبى القاسم بن المهدي عليها وذلك لاشتجار أبى العباسى بالقسوة فى معاملة أهالى المدن ، انظر : ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ١ صفحة ٣٠٢ ترجمة رقم ١٠٩ .

(٤١) سبلى الحديث عن ذلك بعد قليل .

(٤٢) الكندى : ص ٢٩٥ .

(٤٣) نفسه : ص ٢٩٤ .

(٤٤) سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع ، ص ٨٠ .

(٤٥) الكندى : ص ٢٩٤ ، ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ١٨٢ . وراجع : د . لقبال : دور قبيلة كتامة ، ص ٤٨٤ - ٤٨٥ .

(٤٦) ابن عذارى : ج ١ ، ص ١٨٧ .

(٤٧) نفسه والجزء ص ١٨٨ - ١٨٩ - ود . لقبال : ص ٤٨٦ . ولاحظ أن ذكر اسم عامل الواحات - الذى تولى مقاومة حملة مسرور الفاطمى - على أنه يدعى الكرمازى وأنه عين على المنطقة من قبل حكومة الفسطاط ، ربما يوحى بأن ثمة اتفاقية دفاع مشعرك عقدت بين حكومة الفسطاط وبين آل عبدون اللواتي يحكم الواحات « من أول ما فتحها المسلمون » ، لتتسبب الجهد بينهما فى مقاومته أطماع الفاطميين وتغلغلهم حتى صعيد مصر . ولا بأس من أن يكون الكرمازى قد تم تعيينه فى الواحات - طبعا لهذه الاتفاقية - كحاكم عسكري أقام فى المنطقة بفرقة من الجنود ، من قبل حكومة الفسطاط . ومن المرجح أن الذى عقد هذه الاتفاقية مع آل عبدون هو الوالى الكفاء أبو منصور تكين أثناء ولايته الأولى فى مصر (٢٩٧ - ٣٠٢ هـ = ٩١٠ - ٩١٥ م) كمحاولة منه الى جانب محاولاته

المغاربة ج ١ - ١٤٥

السابقة في مقاومة الحملة الفاطمية الأولى . وقارن : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٥٤ .

(٤٨) ويكفى للدلالة على هذا التدهور ان تشير الى تعاقب ستة أشخاص على منصب الولاية في مصر بواقع مرة أو أكثر لبعضهم . وذلك خلال الفترة من سنة ٣٠٩ هـ الى سنة ٣٢٣ هـ (= ٩٢١ م - ٩٣٤ م) . ووصل الأمر بأحدهم - وهو أبو القاسم محمود بن حنك - الى أن أقام « على الولاية أياما » (من ١٣ ربيع الأول سنة ٣٠٩ هـ حتى ٢٥ من الشهر نفسه = ٢٣ يولية - ٤ أغسطس ٩٢١ م) . عن ذلك انظر : الكندي : ولاية ، صفحات ٢٩٥ الى ٣٠٤ .

(٤٩) يطلق الكندي (ص ٢٩٩ وما بعدها) على حبشى بن أحمد ورفقته كلمة « المغاربة » مثلما اعتبر ابن سعيد (المغرب ، ج ١ من القسم الخاص بمصر ص ١٤٥) ان فرقة بربر البحيرة التي برزت في أخريات أيام الطولونيين في الجيش والأسطول ، ألهم كانوا من « المغاربة » كذلك . وهي على ما يبدو صفة أطلقت على هؤلاء البربر ، على سبيل التعميم ، وكذا للدلالة على تمايز أصولهم عن باقي جنود الجيش المصري . الأمر الذي جعل فربق من المؤرخين المحدثين ينظرون الى حبشى ورفاقه على أنهم من بقايا جنود الحملات الفاطمية ، أو ألهم كانوا يمثلون حملة فاطمية مستقلة أتت الى مصر في ذلك الحين . انظر على سبيل المثال : د . سيدة اسماعيل أكاشف : مصر في عصر الأخشبيديين ، مطبعة جامعة القاهرة (فؤاد الأول) ١٩٥٠ ، ص ٧٢ ، ود . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ط ٢ القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١١٦ - ١١٧ ، ود . جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر ، ص ٦٢ ، ود . سالم : تاريخ الاسكندرية ، ص ١٧٣ - ١٧٤ ، ود . محمد عبد المولى : القوى السنية ب ٢ ص ٧٠٦ - ٧٠٧ .

وربما كانوا مستندين في هذا الى أن بعض جنود الحملات الفاطمية السابقة كانوا قد وقعوا في الأسر وتم سجنهم بعض الوقت في القسطنطينية مثلما حدث مع القائد أبو حنك الكتامى وفرقته الخاصة التي قدر عددها بمائتي فارس خلال الحملة الأولى (مجهول : أخبار البربر ، ص ٥٠) ، وكذلك مع فرقة يعقوب الكتامى وسليمان بن كاني خلال الحملة الثانية (ولاية مصر ، ٢٩٦) . وربما أيضا كانوا مستندين في هذا الرأي الى ميل حبشى بن أحمد ورفاقه الى العمل بعد ذلك لحساب الفاطميين بالمغرب . الا أن هذا الرأي يتعارض مع روح الكراعية التي كانت سائدة في مصر شعبا وحكومة تجاه جنود الحملات الفاطمية وما أشاعوه من فساد وخراب في المدن والقرى التي مروا عليها . كما اننا سنلاحظ بعد قليل

ان اتجاه حبشى وفرقته من بربر البحيرة للعمل لحساب القاطمين - بالمغرب -
انما حدث بعد نجاح الاحتيد في طردهم من مصر الى ناحية برقة .
واخيرا فلعل سابقة اعتماد الطولونيين (وبخاصة هارون بن خمادوية على ما رجحنا)
على هؤلاء البربر في العمل كمرتزة في الجيش الطولوني والبحرية الطولونية :
مما يجعلنا نقر بهذا الترجيح الخاص بنسبة حبشى ورفاقه الى بربر الجانب الغربي
لمصر ، بشيء من الاطمئنان .

(٥٠) الكندى : ص ٢٩٩ .

(٥١) نفسه : ص ٣٠٠ .

(٥٢) نفسه : ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٥٣) نفسه : ٣٠١ - ٣٠٣ .

(٥٤) ابن سعيد : المغرب ، ج ١ من القسم الخاص بمصر ، ص ١٥٢ .

(٥٥) الكندى : ص ٢٩٩ .

(٥٦) نفسه : ص ٣٠٣ .

(٥٧) الكندى : ص ٣٠٣ ، وابن سعيد : ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٥٨) الكندى : ص ٣٠٣ .

(٥٩) نفسه والصفحة .

(٦٠) نفسه : ص ٣٠٣ - ٣٠٤ ، وابن سعيد : ص ١٥٨ - ١٥٩ .

والمقريري : خطط ، ج ١ ، ص ٦١٥ - ٦١٧ ، وابن تغرى بردى : النجوم ، جزء
٣ ، ص ٢٥٢ . وراجع : د . سيدة كاشف : مصر في عصر الأخشيديين ، صفحة
٧٢ - ٧٣ .

(٦١) الكندى : ص ٣٠٤ . مع ملاحظة ان ورود اسم على المغربى هذا لأول

مرة مع فرقة حبشى يوحى بأنهم بدأوا منذ ذلك الحين في العمل لصالح القاطمين -
بالمغرب . وان كان اتصالهم هذا قد بدأ بعد خروجهم من مصر ودخولهم برقة ،
كما سيتضح بعد قليل . مما يجعلنا نعتقد ان عليا المغربى انما هو من بربر البحيرة
الذين كان يتشكل منهم حبشى وفرقته ، وان الكندى قد درج على عادته في اطلاق
كلمة « المغاربة » عليهم عن ذلك النظر هامش رقم ٤٩ فيما سبق من صفحات
هذا الفصل .

(٦٢) المصدر نفسه والصفحة .

(٦٣) مصر في عصر الأخشيديين ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٦٤) عن ذلك مثلا ، انظر : (ولاية مصر ، ص ١٤٦ و ١٥١) خلال أحداث ثورة دحية بن مصعب الأموي بصعيد مصر . و (ص ٣٠١) حيث يصف الكندي رحلة العودة التي قام بها حبشى بن أحمد ورفاقه من صعيد مصر الى القسطنطينية ، قائلا : « ثم عدى حبشى النيل وأصحابه الى الشرقية ، وأقبلوا على القسطنطينية » .

(٦٥) اتجه حبشى بن أحمد ورفاقه الى صعيد مصر - في المرة الأولى - اثر هزيمته أمام فريق الأتراك بقيادة حبكويه في شهر ذي الحجة سنة ٢٢١ هـ (نوفمبر ٩٣٣ م) والثانية في شهر ربيع الأول سنة ٢٢٢ هجرية (مارس ٩٣٤ م) كنوع من المناورة ضد أعدائهم . راجع : الكندي : صفحة ٣٠٠ و ٣٠١ .

(٦٦) وقد ترتب على ذلك نتيجة هامة تمثلت في أن ابن طفح شرع في تحويل دار الصناعة من موضعها بجزيرة القسطنطينية الى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان بساحل القسطنطينية ، بعد أن أدرك مدى الخطأ في اتخاذها بداخل الجزيرة . وقال في ذلك : « صناعة يحول بيننا وبينها الماء ليست بشيء » . عن ذلك انظر : الكندي : ص ٣٠٥ ، وابن سعيد : المغرب ، ص ١٦٠ ، والمقرئى . خطط ج ٣ ، ص ١٧ - ١٨ . وراجع : د. سالم : تاريخ البحرية الإسلامية ، جزء ١ ، في مصر والشام ، ص ٥٩ و ٩٠ - ٩١ .

(٦٧) ولاية مصر ، ص ٣٠٥ ، والمغرب ، ج ١ من القسم الخاص بمصر ، ص ١٦١ ، والنجوم الزاهرة . ج ٣ ، ص ٢٥٢ .

(٦٨) الكندي : ص ٣٠٥ ، ابن سعيد : ص ١٦١ ، ابن عذارى : ج ١ ، ص ٢٠٩ ، ابن تغرى بردى : ج ٣ ، ص ٢٥٢ . وراجع : د. لقبال : دور فييلة كتامة ، ص ٤٨٦ .

(٦٩) الكندي : ٣٠٥ - ٣٠٦ . ويلاحظ ان ابن طفح - الذى وعى جيدا الدروس المستفادة من الحملات الفاطمية السابقة - قد أعد كذلك قوة أخرى سارت الى الصعيد كاجراء وقائى ضد ما يمكن أن تشهده عمليات القتال مع الفاطميين من تطورات . وربما كان ابن طفح قد عهد الى قائد هذه القوة بالاعتناء ببيروت الواحات من أجل تنسيق الجهود بينهما فى مواجهة العدو المشترك . ويعد هذا تفسيرا لقول د. سالم (تاريخ الاسكندرية ، ص ١٧٦) بصدد تسخير ابن طفح

لقواته في محوري الاسكندرية - الصعيد ، اما كان لانهما د طرفا مصر من الغرب ، . اذ الواحات - نخل وجه الدقة - هي بمثابة الطرف الثاني لمصر من جهة الغرب .

(٧٠) الكندي : ص ٣٠٦ - ٣٠٧

(٧١) نفسه : ص ٣٠٦ :

(٧٢) عن ذلك انظر : ابن عذاري : البيان ، ج ١٠ ، ص ٢١٦ - ٢١٨ ، وراجع : دكتور محمد عبد المولى : القوى السنية في المغرب ، ج ١ ، ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٧٣) الكندي : ص ٣٠٦ .

(٧٤) د . سرور : الدولة الفاطمية ، ص ٦٣ .

(٧٥) الكندي : ص ٣٠٦ (.)

(٧٦) ابن سعيد : المغرب ، ج ١ من القسم الخاص بمصر ، ص ١٧٥ .

(٧٧) نفسه : ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٧٨) نفسه : ص ١٧٧ وهامش رقم (١) للمحقق .

(٧٩) نفسه : ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٨٠) الكندي : ص ٣١٢ . وراجع : د . عطية مصطفى مشرفة : نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين ، ط ٢ ، دار الفكر العربي بالقاهرة ، ص ١٢١ .

(٨١) صورة الأرض ، ص ٩٩ .

(٨٢) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٤ القاهرة ١٩٦٤ ، ج ٢ ، ص ٢٦ ، والمقريزي : خطط ج ١ ، ص ٤٤١ .

(٨٣) صورة الأرض ، ص ١٥٤ . وسنلاحظ فيما بعد ان ابن حوقل يعد شاهد عيان على ذلك ، فقد زار منطقة الواحات حوالي سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) وعاصر اثنين من افراد هذه الأسرة : تولى الاول قبيل وصول ابن حوقل ، وخلفه الثاني في الحكم فيما يشبه الملكية الوراثية . وسنرى كذلك ان رواية ابن حوقل بشأن آل عبيدون واستقرارهم في حكم الواحات متعلقين بعض التأييد بمقارنتها برواية

يحيى بن سعيد (تاريخ يحيى الملحق بآخر كتاب التاريخ المجموع لسعيد بن بطريق
ص ٢٩٥) عن الأحداث التي شهدتها المنطقة خلال سنة ٣٥٥ هـ . (٩٦٦ م ، ،

(٨٤) راجع ما سبق ، ص ١١٨ وهامش رقم ٤٧ .

(٨٥) عن سياسة الخليفة الناصر الأموي في مناوأة الفاطميين بالمغرب ، انظر :
د . محمود علي مكي : التشيع في الأندلس ، ص ١٢٠ ، ود . أحمد مختار العبادي :
سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمطرد ،
المجلد الخامس عدد ١ - ٢ ، سنة ١٩٥٧ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٨ ، ود . سالم : تاريخ
المغرب ، ص ٥٢٣ - ٥٢٩ ، ود . محمد عبد المولى : القوى السنية في المغرب ،
ج ٢ ، ص ٦١١ وما بعدها

(٨٦) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٧ . وقد التقى المسعودي
- أثناء زيارته لمصر - بالمبعوث الخاص لابن مروان اللواتي عند باب الإخشيد ،
وذكر انه حصل منه على المعلومات التي احتواها مؤلفه من الواحات .

(٨٧) من الثابت أن الإخشيد بذل غاية جهده في ضم الشام الى حوزته
وخاض من أجل ذلك عدة حروب ضد محمد بن رائق الوالي العباسي على الشام ،
وكذلك ضد الحمدانيين في شمال الشام . عن ذلك انظر : الكندي : ولاية مصر ،
ص ٣٠٦ - ٣١٠ . وراجع : د . سيدة كاشف : مصر في عصر الإخشيديين ،
ص ٧٩ - ٩٢ .

(٨٨) المصدر نفسه : ص ٣٠٩ و ٣١١ - ٣١٢ . وراجع : د . سيدة كاشف :
صفحة ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٨٩) انظر في ذلك : ساويرس : تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية ج ٢ من
المجلد الثاني ، صفحة ٨٦ حيث يطلق على ابن السراج اسم « حنابنا » وهو على
ما يبدو بمعنى « ابن حنا » التي تقابل في النطق العربي « ابن يحيى » .

(٩٠) راجع ما سبق : صفحة ١٢٩ وهامش رقم (٨١) .

(٩١) الكندي : ص ٣١٢ ، ابن تفرى بردى : النجوم ، ج ٤ ص ٢ .

• (٩٢ ، ٩٣) الكندى ، ص ٣١٢ .

(٩٤) المصدر نفسه : ص ٣١٢ - ٣١٣ . وراجع : د . سيدة كاشف : المرجع

السابق ، ص ٣٣٩ .

(٩٥) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٤١ .

(٩٦) استندنا فى هذا الترجيح الى وصف ابن حوقل (صورة الأرض ، ص ١٥٤) لمن عاصروهم من أفراد أسرة آل عبدون وسياستهم الداخلية التى اتبعوها فى حكم الواحات . فقد بدا من خلالها انهم « يرجعون الى مروزة فاشية ، ومظاهرة بالحرية ورغبة فى القاصدين . ومحببة للمتبعين على جميع صروب القصد » .

(٩٧) المقرئى : الخطط ، ص ٦١٨ ، وابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٣ ، صفحة ٣٢٦ .

(٩٨) يحيى بن سعيد : تاريخ يحيى ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٩٩) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ (تحقيق د . الشيال ، طبعة ١٩٦٧) ، ص ٩٦ - ٩٧ ، والخطط ، ج ٢ ، ص ٢٦ . وانظر : د . حسن ابراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٣٥ - ١٤٠ ، وبالإشتراك مع د . طه أحمد شرف : المعز لدين الله ، ط ٢ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٣ ، صفحة ٨١ - ٨٤ .

(١٠٠) المقرئى : اتعاظ ، ج ١ ، ص ١٠٢ . وانظر فى ذلك حادثة أخرى أوردها المقرئى (خطط ، ج ٢ ، ص ٢٧ - ٢٨) عن اشتغال أحد المغاربة - وكان يعمل وكيلا تجاريا لوالدة المعز - بالتجسس على شئون مصر تحت ستار التجارة . وكان التقرير الذى رفق به الى المعز بما شاهدته وعاينه من أحوال مصر ، أحد أسباب التعجيل بخروج حملة الفتح .

(١٠١) يحيى بن سعيد : المصدر السابق ، ص ٢٩٥ . وراجع : د . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٢٥ ، والمعز لدين الله ، ص ٨٢ .

(١٠٢) يحيى بن سعيد : ص ٢٩٥ . ولعل تكملة اسم هذا الحاكم تكون على النحو التالى : « أبو الحسن مكبر بن عبد الصمد بن عبدون » . وذلك طبقا لرواية ابن حوقل (صورة الأرض ، ص ١٥٤) الذى تحدث عن أبي الحسن

هذا ، وأشار الى انه تولى قبيل زيارته للمنطقة . ومن ناحية أخرى لعل ابن عبدون هذا هو الذى كان قد تولى الحكم فى الواحات عقب خروج البشير النوبى من المنطقة فى سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م) ، كما سبقنا الإشارة الى ذلك (هامش رقم ٩٦) .

(١٠٣) د . لقبال موسى : دور قبيلة كتامة ، ص ٤٩٠

(١٠٤) المقرئى : اتعاظ ، ج ١ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(١٠٥) المصدر نفسه والجزء ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

الباب الثاني

**« الدور السياسي للمغاربة والأندلسيين في مصر
في العصر الفاطمي »
(٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م)**

الفصل الثالث :

« المغاربة والأندلسيون في مصر في العصر الفاطمي الأول »

الفصل الرابع :

« المغاربة والأندلسيون في مصر في العصر الفاطمي الثاني »

الفصل الثالث

« المغاربة والأتراك في مصر

في العصر الفاطمي الأول »

(٣٥٨ - ٤٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١٠٧٤ م)

تمهيد :

(أ) المغاربة من موالى الدولة :

- في أعقاب الفتح الفاطمي وعصر المعز لدين الله .
- أيام العزيز بالله .
- أيام الحاكم بأمر الله .
- أيام الظاهر لأعزاز دين الله .

(ب) المغاربة المستقرون في نواحي غرب مصر .

(ج) المغاربة الوافدون .

(د) المغاربة في النصف الأول من خلافة المستنصر بالله :

- أوائل خلافة المستنصر ووزارة الجرجرائي .
- من وفاة الجرجرائي الى وزارة اليازوري .
- أثناء وزارة اليازوري .
- أثناء الشدة العظمى .

آلت مصر أخيراً إلى الفاطميين الذين نجحوا في الاستيلاء عليها بفضل براعة المغاربة أتباعهم في تنفيذ مخططات الخلفاء الفاطميين على نحو يدعو للاعجاب . فكان هذا إيذاناً ببدء عصر جديد شهدت مصر فيه تغلغلا مغربيا في شتى نواحي الحياة ، مما يعد بحق ذروة الوجود المغربي في مصر .

ذلك أن جماعات المغاربة من موالى الدولة استمروا يشكلون قوام الوجود الفاطمي في مصر ، منذ اليوم الأول للفتح (الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ / يولية ٩٦٩ م) حتى سقوط الخلافة الفاطمية في مصر (يوم الجمعة ٧ محرم سنة ٥٦٧ هـ / ١٠ سبتمبر ١١٧١ م) . سواء في ذلك جيل الفتح ، أم النجدات العسكرية التي أعقبته ، أم العناصر المغربية الأخرى التي حرص الخلفاء الفاطميون على استجلابها من المغرب بهدف انعاش الدماء المغربية القديمة .

كما أن نواحي غرب مصر (في برقة والبحيرة والواحات) استمرت تشهد أنشطة متصلة قام بها المقيمون من بربر لواتة وهوارة وغيرهم ، ذوو الغلبة العددية على من عداهم من جيرانهم بالمنطقة . ثم أنها أصبحت موئلا لهجرات بربرية أخرى تمت في هذا العصر .

ومن ناحية أخرى ، استمر وفود جماعات الحجاج والدارسين المغاربة والأندلسيين إلى مصر طوال ذلك العصر . حيث تسنى للكثير منهم المشاركة في الحياة السياسية من خلال تمسكهم الشديد بمذهبهم السني المالكى ومقاومتهم محاولات الفاطميين نشر دعوتهم الشيعية .

وسيتضح اسهام هذه الجماعات المغربية في الحياة السياسية في مصر من خلال دراستنا لهم سواء من ناحية سياسة الخلفاء الفاطميين في مصر تجاههم ، أم من ناحية علاقتهم بالمصريين ، أم مع بعضهم البعض .

(١) المغاربة من موالى الدولة :

وضحت منذ البداية سياسة الفاطميين في الاعتماد على المغاربة الذين هم قوام جيش الفتح ، سواء المصاحبين للقائد جوهر الصقلى أم الذين قدموا مع الخليفة المعز لدين الله في شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ (يونية ٩٧٣ م) ، وذلك في الحفاظ على المكاسب التى تحققت لهم بالاستيلاء على مصر . وكانت وسائل الفاطميين فى ذلك الإبقاء على طابع الجهاد قائما لدى هذه الفرق العسكرية حتى يتيسر لهم الاستمرار فى خوض المعارك فى بلدان المشرق الاسلامى ، تحقيقا لفكرة عالمية الدعوة الفاطمية ، والذي عد استيلاؤهم على مصر إحدى حلقاتها .

ولهذا حرص القائد جوهر الصقلى - منذ اليوم الأول لدخوله الفسطاط على اختيار مكان جديد يكون سكنا لهؤلاء المغاربة كي يعيشوا بمعزل عن طبقات المجتمع المصرى ، ويكون أيضا مقرا للحكم وعاصمة جديدة للخلافة الفاطمية فى مصر . وكان الموضع الذى اختاره جوهر عبارة عن سهل رملى فسيح يقع الى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط ، ويبعد عن النيل بحوالى ميل . وكانت مساحته - اذ ذاك - تبلغ ستة وثلاثين فدانا بمقياسنا اليوم (١) . ثم اذن جوهر لفرق الجيش المرابطة فى الجيزة بالانتقال الى ذلك المكان الجديد ، فبدأوا فى عبور الجسر الواصل بين الجيزة والفسطاط - عصر يوم الفتح - وأقبلوا للإقامة فى المعسكر « أفواجا أفواجا » (٢) .

وحول موقع القصر الذى اختطه جوهر فى مساء ذلك اليوم ليكون مقرا لمولاه المعز لدين الله عند وصوله الى مصر ، شرعت فرق الجيش الفاطمى من بربر كتامة وحامية برقة وعبيد زويلة وفتيان الصقالبة ومن انضاف اليهم بعد ذلك ممن حضر صحبة المعز ، فى اتخاذ احياء سكنية عرفت فيما بعد بالحارات ، ونسبت كل حارة الى من نزل بها :

١ - فنزلت فرقة كتامة فى الحارة التى سميت باسمها الى الآن . وتقع فى الركن الجنوبي الشرقى من الجامع الأزهر ، الذى بدأ جوهر فى انشائه بعد ذلك بنحو تسعة أشهر (جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ / مارس ٩٧٠ م) . وكانت أعداد هذه الفرقة من الكثرة بحيث أدى ذلك الى انهيار نفوذ كتامة فى موطنها ببلاد المغرب (٣) . واشتهر فى هذه الحارة : خط قصر ابن عمار . نسبة الى أبى محمد الحسن بن عمار ، أحد شيوخ كتامة الآتى ذكره (٤) .

٢ - ونزلت حامية برقة فى حارة البرقية ، وموضعها اليوم حى الدراسة ، ونسب اليها باب البرقية (٥) .

٣ - بينما استقرت اخلاط من سكان مدينة زويلة المهدية فى الحارة التى عرفت - الى الآن - بحارة زويلة ، وتقع فى الجزء الجنوبي من القاهرة . وكانت أعدادهم كثيرة بشكل جعل هذه الحارة واسعة عظيمة (٦) . ونسب اليها البابان الواقعان فى الضلع الجنوبي من سور القاهرة المعروفان ببابى زويلة (٧) . وقد عرف المراكشى سكان مدينة زويلة المهدية بأنهم « اخلاط من سائر الناس من الرعية والسودان وأراذل كتامة وغيرهم من أتباعهم » (٨) .

٤ - واشتهرت عناصر الصقالبة بين طوائف الجيش الفاطمي في مصر بكثرتهم العددية وبراعتهم في القتال . وكان للفاطمين ثقة كبيرة بهم ، فجعلوا لهم قيادة جيش الفتح في شخص القائد جوهر الصقلي ، والذي عرف بالصقلي نسبة الى جزيرة صقلية منسقط رأسه (٩) . ومن الحارات التي سكنوها في القاهرة :

- حارة قائد القواد نسبة الى الحسين بن جوهر الصقلي ، الملقب بقائد القواد ، الذي سكنها بعد أبيه . وصارت تعرف بدرب ملوخيا نسبة الى أحد خدام القصر في الدولة الفاطمية ، وذلك الى زمن المقرئ (ق ٩ هـ / ١٥ م) (١٠) . ويعرف مكانها اليوم باسم حارة قصر الشبوق المتفرعة من شارع قصر الشوق بالجمالية (١١) .

- حارة الجوزرية نسبة الى فرقة الجوزرية ، ومكانها الآن عطفة وحارة وشارع الجوزرية بالغورية قسم الدرب الأحمر . والجوزرية نسبة الى الأستاذ جوذر الصقلي موضع سر الخليفة المعز لدين الله ، واليه تنسب سيرة الأستاذ جوذر . وصحب المعز الى مصر ، لكنه توفي بالقرب من مدينة برقة في مكان يعرف بمياسر في سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) (١٢) . وهو غير جوذر الصقلي الذي ضربت عنقه ونهب ماله في سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) (١٣) . وقد آل أمر الجوزرية - وكانوا أربعمائة - الى أبي علي منصور الجوزري « الذي كان في أيام العزيز بالله ، وزادت مكانته في الأيام الحاكمة (أي الخليفة الحاكم بأمر الله ٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ م) (١٤) .

٥ - واستقرت طائفة من الجيش الفاطمي - يقال لها الباطلية - في الحارة التي نسبت اليهم ، وعرفت هذه الطائفة

بذلك لأنهم « سألوا الخليفة المعز لدين الله عطاء ، فلما قيل لهم :
فرغ . قالوا : رحنا نحن في الباطل » (١٥) .

٦- واستقرت طائفة أخرى من الجيش الفاطمي بحسابة
المحمودية نسبة اليهم . ولا يعرف على وجه التحقيق الى من تنسب
هذه الطائفة (١٦) .

٧- وسكنت جماعة الحمزيين الحارة التي نسبت اليهم .
وكانت تقع خارج باب زويلة (١٧) .

ثم أدار جوهر حول معسكرات الجيش الفاطمي مسورا كبيرا
من الطوب اللبن (١٨) . وقد بلغت مساحة الأرض المحصورة داخل
ال سور ثلاثمائة وأربعين فدانا (١٩) ، وقيل ثلاثمائة وخمسين
فدانا (٢٠) . وسمى المدينة كلها باسم المنصورية ، تميना بمدينة
المنصورية التي أنشأها الخليفة المنصور والد المعز لدين الله
خارج مدينة القيروان (٢١) . وظلت هذه التسمية حتى قدم
المعز لدين الله الى مصر بعد أربع سنوات - في شهر رمضان
سنة ٣٦٢ هـ (يونية ٩٧٣ م) - فسمها بالقاهرة تفاؤلا بأنها
ستقهر الدنيا (٢٢) .

وحتى يظل الطابع العسكري هو الغالب على فرق الجيش
الفاطمي المعسكرة داخل حارات المدينة الجديدة ، شرع جوهر في
اتمام سلسلة الخنادق المحيطة بالمدينة من جوانبها الثلاثة :
الشرقية والجنوبية والغربية . فحفر الخندق الرابع في الناحية
الشمالية ، من جهة الشام . ابتدء بحفره في يوم السبت الموافق
١١ شعبان سنة ٣٦٠ هـ (يونية ٩٧١ م) ، وفرغ في أيام يسيرة ،
وكان مرضه عشرة أذرع في عمق مثلها (٢٣) ، « فصارت (القاهرة)
بين أربعة خنادق » (٢٤) .

والى جانب هذه الصفة العسكرية التى رغب الفاطميون فى الإبقاء عليها لدى فرق الجيش ، فقد عولوا فى ذات الوقت على الاعتماد على هؤلاء العسكريين فى إدارة شئون البلاد على حساب الموجودين فى سلك الوظائف الادارية . وقد بدأ جوهر الصقلي فى تنفيذ هذه السياسة منذ الأيام الأولى لاقامته بمصر ، وشمل بتغييراته جميع القطاعات . حتى قيل فى ذلك انه « لم يدع عملاً الا جعل فيه مغربياً شريكاً لمن فيه » (٢٥) . وسنرى بعد ذلك أن الخليفة المعز لدين الله قد أقر هذه السياسة ، وزاد على ذلك بإجراء بعض التعديلات ، مما ستلى الإشارة اليه فى حينه .

وفى إطار محاولات قرض النفوذ الفاطمى على سائر جهات مصر اعتمد الفاطميون على شخصيات مغربية ذات عصبية من بين فرق الجيش الفاطمى فى حكم تلك النواحي . بعد أن فشلت سياسة تجريد حملات التأديب فى معالجة الثورات المتكررة التى قامت هناك :

ففى الوجه البحرى استمر أهل مدينة تنيس فى ثوراتهم ضد الحكم الفاطمى ، رغم مسير القائد أبى محمد الحسن بن عمار اليهم على رأس نجسده الكتامية — فبور حضوره الى مصر من المغرب — أواخر شهر ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ (ديسمبر ٩٧٢ م) وتمكنه من اخضاع ثورتهم (٢٦) . فطلب الأمر خروجه اليهم مرة ثانية فى العام التالى ، حيث تمكن هذه المرة من القبض على زعمائهم ، وعاد الى القاهرة « ببضع وتسعين أسيراً » (٢٧) . ثم قام نفر من أهل تنيس بقتل عدد من جنوده الحامية الفاطمية المقيمة بالمدينة . فأحضرهم جوهر الى القاهرة فى سلخ ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ (سبتمبر/أكتوبر ٩٧٣ م) « وطالبهم بديات المغاربة الذين قتلوا عندهم . والزموا بمائتى ألف دينار . ثم استقر أمرهم على ألف ألف درهم » (٢٨) .

أما الصعيد ، فقد خرج فيه عبد العزيز بن إبراهيم الكلابي في محاولة لارجاع النفوذ العباسي الى البلاد . وكانت ثورة عارمة اضطر معها جوهر الى ان يسير وحدات من الأسطول الفاطمي في النيل الى جانب القوة البرية التي تمكنت في النهاية من القضاء عليها . وجيء بعبد العزيز الكلابي أسيرا الى القاهرة حيث طيف به مغلولا في قفص وبمن معه (٢٩) .

فالتجأ المعز لدين الله الى جموع كتامة ذات المنعة والعصبية بين فرق الجيش الفاطمي كي ينتدب منهم ولاية على هذه الأقاليم الثائرة . فسير أحد القادة الكتامين ، ويدعى مشعلة ، على رأس حامية كتامية كثيرة العدد ، لتولى الحكم في مدينة تنيس ومعالجة أمر ثورة قام بها أهلها في ذلك الوقت أيضا . وقد اضطر مشعلة الى حصار المدينة أكثر من ثلاثة أشهر حتى أذعن الثائرون ، بعد أن نفذ الماء العذب من الصهاريج « وضجت المدينة من العطش » . ويشير ساويرس - صاحب هذه الرواية - الى أن الجنود الكتامين - مع ذلك - لم يتمكنوا من دخول المدينة إلا بعد انضمام نفر من نصارى أهلها الى قائدهم مشعلة ، وانهم دبروا له أمر اقتحام الأسوار . لذلك كان انتقام مشعلة من أهل تنيس مروعا ، إذ فتك بعدد كبير منهم ، ثم أمر بهدم سور مدينتهم ، فهدم واستمر على ذلك بعض الوقت (٣٠) .

كذلك عهد المعز بتأمين الصعيد وجنوب مصر الى القائد حمزة الكتامي بعد أن ولاه على مدينة أسوان وزوده بسلطات استثنائية واسعة الى جانب القوة العسكرية التي سيرها معه (٣١) .

ويعد ظهور دور كتامة في مصر على هذا النحو استمرارا لما قام به رجال هذه القبيلة في خدمة الدولة الفاطمية سواء في

المغرب أم أثناء الحملات العسكرية التي سبها الفاطميون على مصر : مما يجعلنا نعتقد أن بربر كتامة كانوا يشكلون الجناح المتطرف بين فرق الجيش الفاطمي ، وتمثل في اختيار جوهر الصقلي لجعفر بن فلاح « قائد بني قومه الكتامين » في اخماد حركة المقاومة التي ابداهها الجنود الكافورية والاششيدية أثناء مسير جيش الفتح الى الفسطاط (٣٢) . وعهد اليه أيضا بقيادة حملة فتح الشام في شهر ذي القعدة سنة ٣٥٨ هـ (سبتمبر ٩٦٩ م) (٣٣) . كما كان لازدياد تيار الهجرة الكتامية الى مصر من ديار كتامة بالمغرب الأوسط - وبالتحديد من جبل اوراس جنوبا الى حد البحر المتوسط شمالا . ما بين بجانة وبونة - خلال العصر الفاطمي ، في شكل نجدات عسكرية قام بها القادرون على حمل السلاح وذووهم ، اثره في اعتبار مصر « الوطن الثاني لقبيلة كتامة » (٣٤) . وكانت مصر بالنسبة لقيادة كتامة هي مركز الجذب والانطلاق لكل من أراد منهم الشهرة والمجد في ميادين السياسة والحرب . ولهذا « ظهرت قبيلة كتامة هنا على غيرها من قبائل المغرب ، وطوائف المشرق أيضا ، حتى عصر المستنصر بالله الخليفة الفاطمي (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ = ١٠٣٦ - ١٠٩٤ م) ووزارة بدر الجمالي (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ = ١٠٧٤ - ١٠٩٤ م) » (٣٥) .

ويلاحظ أنه على الرغم من حظوة أفراد هذا التيار المغربي وسيطرة قاداته على قطاعات هامة في الادارة المصرية منذ الفتح ، وان كان ينسجم مع سياسة الخلفاء الفاطميين في الاعتماد عليهم ، إلا أن الأمر لم يخل من فتور في العلاقات بين الطرفين . سيما بعد أن أدرك الخلفاء الفاطميون ميل بعض المغاربة الى التدلل على الخلافة ، وعدوا ذلك اتجاها من جانب هؤلاء المغاربة نحو الاستبداد بالأمر : فيشير د. لقبال الى انه ثمة تنافس اشتد فيما بين

القائد الكتامي جعفر بن فلاح والقائد جوهر الصقلي ، وذلك عقب الفتح مباشرة . وأن جوهرًا — بعد أن استشعر الخطر من جعفر الذي تطلعت نفسه إلى الرئاسة — « رماه مع قلة من عصبيته إلى ميدان الشام حيث كان يرجو أن يتحطم كبرياؤه وتنكسر حدة طموحه » (٣٦) . ويبدو أن جعفرًا كان مستندا في ذلك إلى دوره المغربي الذي أهله لأن يكون مركزه في قيادة حملة فتح مصر على درجة لا تقل عن درجة جوهر القائد العام لهذه الحملة (٣٧) . وربما كان جعفر بن فلاح مستندا كذلك إلى عصبيته القوية من بربر كتامة المشهورين بكثرة عددهم وشدة بأسهم . وقد ازداد التنافس حدة بين القائدين أثر نجاح جعفر في فتح جنوب الشام ودخوله مدينة دمشق في شهر المحرم سنة ٣٥٩ هـ (نوفمبر ٩٦٩ م) (٣٨) . ولم يخفف من وطأته اشتراك جوهر الصقلي في تشييع جنازة أحد أبناء جعفر الذي توفي بمصر في أواخر ذي الحجة سنة ٣٥٨ هـ (أوائل نوفمبر ٩٦٩ م) (٣٩) . فنجد جعفر يحاول — من الشام — أن يبرهن للخليفة المعز — بالمغرب — على أنه أشد من غيره إخلاصا للنظام ، وذلك بتعمده تجاهل المراسلة مع جوهر — قائده المباشرة — وإصراره على مخاطبة الخليفة مباشرة بتطورات فتح الشام (٤٠) . ورغم أن المعز رفض هذا الأسلوب من جعفر وحثه على الكتابة إليه عن طريق جوهر القائد العام ، إلا أن جعفرًا لم يمتثل . وكسائت النتيجة أنه راح ضحية 'عناده' ، حتى بعد أن تخرج مركزه أمام القرامطة ، وقتل جعفر أخيرا أمام مدينة دمشق في شهر ذي القعدة سنة ٣٦٠ هـ (سبتمبر ٩٧١ م) (٤١) .

وعلى الرغم من أنه أمكن تلافي الخطر الذي نتج عن انقسام القيادة المغربية على نفسها ، وعاد النفوذ الفاطمي مرة أخرى على الشام (٤٢) ، فقد أدرك المعز لدين الله — فور حضوره إلى

مصر - ضرورة التدخل في الأمر ومباشرة مهام الحكم بنفسه .
وكان قراره بتنحية جوهر عن الإدارة ، واستعانته ببعض الموظفين
على رأسهم : أبى الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس (٤٣) وأبى
على عسلوج بن الحسن الدنهاجى (٤٤) ، بدعوى تفرغ جوهر
للاشراف على شئون الجيش ، وذلك فى شهر المحرم من
سنة ٣٦٣ هـ (أكتوبر ٩٧٣ م) (٤٥) .

ومما زاد هذا الشعور فى نفس المعز لدين الله تعمد هؤلاء
المغاربة الاساءة الى طبقات المجتمع المصرى بدعوى التقرب
للمخلاة . وذلك عندما تطاول بعض رجال كتامة على بعض الاشراف
من الحسينيين والحسينيين الذين كانت لهم الحظوة فى المجتمع
المصرى لانهم من آل البيت ، وهددوا بقتل كل من يزعم أنه
شريف وقال قائلهم : « وفى الدنيا شريف غير مولانا ؟ ! » فلما
سمع المعز ذلك أنكره وتوعد المتطرفين بالعقاب الشديد ان عادوا الى
مثل هذا ، واعتذر للاشراف وطيب خواطرهم بقوله : « لقد أخطأ
من تكلم بما قيل لنا ، لكم بحمد الله الشرف العالى والرحم
القريبة » (٤٦) .

كذلك تعمد بعض المتطرفين من المغاربة الشيعة اثاره الشغب
والاضطرابات فى نواحي مصر اثناء احتفالاتهم بالمناسبات
الشيوعية - مثل يوم عاشوراء (١٠ محرم) ويوم الغدير (١٨ من
ذى الحجة) (٤٧) . فكان يتخلل تلك الاحتفالات أعمال السلب
والنهب والاعتداء على حرمان الناس ومساكنهم تحت ستار الخلاف
المذهبي بينهم وبين الأهالى ، الأمر الذى أدى الى حدوث فتن
عديدة وصل بعضها الى الاقتتال . وقد زاد من خطورة هذه المواقف
توافق حدوث بعضها مع فترات الخطر القرمطى (٤٨) ، حتى ان
قادة الجيش أنفسهم تدخلوا لفض هذه الاشتباكات لصالح
المصريين . وذلك مثلما حدث فى آخر ذى الحجة سنة ٣٦٠ هـ

(أكتوبر ٩٧٢ م) « عندما نهب المغاربة مواضع بمصر (الفسطاط)
فثارت الرعية ، فاقتتلوا قتالا شديدا . وركب اليهم سعادة بن
حيان . . وغرم جوهر للناس ما نهب منهم ، وقبل قولهم في
ذلك (٤٩) » . وتخلل الاحتفال بذكرى عيد الغدير الموافق ١٨
ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ (سبتمبر ٩٧٣ م) ان « نهبت المغاربة بعض
الرعية ، فركب جوهر في طلب النهابة واخذهم وجلدهم » (٥٠) .
وفي ذكرى العاشر من محرم سنة ٣٦٣ هـ (اكتوبر ٩٧٣ م) خرج
نفر من الشيعة « ومعهم جماعة من فرسان المغاربة ورجالتهم »
في موكبهم ينوحون ويبكون على الحسين ، وصاروا يعتقدون على
كل من لم يشاركهم في مظاهر الأسى والحزن ، وترتب على ذلك ان
تسلط الأسواق وحدثت بعض القلاقل . فخرج اليهم الحسن بن
عمار ومارس ضغطا على المعتدين ، فتراجعوا « ولولا ذلك لعظمت
الفتنة » (٥١) .

وحقيقة الأمر ، فان حالة الفوضى الأخيرة - هذه - التي
شارك فيها بعض فرسان المغاربة ورجالتهم كانت حلقة من حلقات
الشغب المستمر الذي استغرق شهر المحرم كله من تلك السنة .
فقد تخلل هذا الشهر تسلط المغاربة على نواحي الفسطاط « فنزلوا
الدور ، وأخرجوا الناس من دورهم ، ونقلوا السكان وشرعوا في
السكنى في المدينة » (٥٢) . ومن المؤكد ان المغاربة هؤلاء كانوا
مستندين في هذا الى تأييد الحكومة الفاطمية التي سيطر عليها
عدد كبير من المغاربة منذ ذلك الحين . ولا ننسى ان اشتراك
عسلوج بن الحسن الدنهاجى في الاشراف على دواوين الحكومة -
الى جانب ابن كلس - انما كان في ذلك الشهر .

وقد حنق المعز لدين الله على المغاربة ، حين اتصل به تسلطهم
على الفسطاط ، ومخالفتهم أوامره بسكنى « أطراف المدينة » (٥٣) ،
فأمر بترحيلهم الى نواحي عين شمس وحدد لهم بنفسه المواضع

التي سينزلون فيها ، وأقر المال المطلوب لبناء المعسكرات الخاصة بهم هناك بعيدا عن المدينة . هذه المواضع هي التي عرفت بالخندق أو الحفرة ، كما عرفت بخندق العبيد ، ربما تغليبا لوجود عبيد زويلة ضمن الجيش الفاطمي ، مع كتامة وغيرهم . كما عين المعز مشرفا خاصا بالمغاربة في هذا المكان الجديد . وكان يراقبهم مراقبة دقيقة ، حتى كان مناديه - كل ليلة - يذكرهم جهارا أمام الملأ من السكان بما قرره من منعهم من المبيت بالفسطاط (٥٤) .

ولم يقلل هذا الاجراء من تعسف المغاربة ضد السكان ، لأن عناصر مغربية بقيت داخل الفسطاط (٥٥) . كما أن المعز لدين الله تراجع تحت ظروف خاصة - تمثلت في هجوم القرامطة على مصر للمرة الثانية في شهر رجب سنة ٣٦٣هـ (ابريل ٩٧٤م) - وسمح للمغاربة بسكنى القاهرة ، وعهد الى أحد القادة الكتاميين ، ويدعى جبر بن القاسم المسالتي ، بأن يشرف بصفة استثنائية على حشد سائر المغاربة في القاهرة ، حتى الذين تسربوا الى الفسطاط (٥٦) . فاستمرت حوادث الشغب فيما بين المغالين في التشيع من هؤلاء المغاربة والاهالي ، كما حدث في شهر شوال من سنة ٣٦٤هـ (يولية ٩٧٥م) عندما ثارت فتنة بين الطرفين . ويبدو أن الاهالي كانوا البادئين بالعدوان هذه المرة ، ان يذكر المقرئ أن الفتنة كانت « بين المصريين والمغاربة » . وقد تم معاقبة الجناة من الجانبين (٥٧) .

- وعلى أية حال يمكن القول بأن عصر المعز لدين الله قد انتهى بغير تطورات حاسمة في العلاقات بينه وبين المغاربة من موالى الدولة ، ويكفي أنهم استمروا مهيمنين على الأمور في مصر ، ولم نسمع عن اصطفاء المعز لآخرين عليهم . حتى ولى العزيز بالله الخلافة - في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ (يناير

٩٧٦م) - وعندئذ بدأت العلاقات تسوء فيما بينه وبين هؤلاء
المغاربة ، على نحو ما سنشير إليه .

ويرجع السبب في تغير العلاقة بين الخلافة الفاطمية - زمن
العزیز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٦ - ٩٩٦ م) - وبين المغاربة
من موالى الدولة الى أن العزیز بالله سيطر عليه شعور بفقد الثقة
تجاه أكثر فروع المغاربة اخلاصا للدولة الفاطمية - وأعنى بهم
الكتاميين - نتيجة ما بدر منهم في حق الدولة على التسعديين
الخارجي والداخلي :

فقد اعتبر العزیز بالله ان الفرقة الكتامية التي كانت تشكل
معظم حملة جوهر الصقلي على الشام - اواخر سنة ٣٦٥ هـ
(٩٧٦ م) - لاعادة النفوذ الفاطمي عليه بعد أن سيطر أفتكين
وجنوده الاتراك على معظم مدن الشام التابعة للفاطميين ،
والقرامطة على فلسطين ، هي المسئولة عن فشل هذه الحملة
وعودة جوهر منسحبا الى مصر اواخر سنة ٣٧٦ هـ (٩٧٨ م) .
ولم يلتفت الخليفة العزیز الى اعتبارات أخرى أدت الى هذه
الهزيمة ، مثل : تحالف قوات أفتكين مع القرامطة ضد الجيش
الفاطمي ، وطول مدة القتال ، ونفاد الأموال ، وهلاك معظم الرجال
بسبب الظروف الطبيعية السيئة (٥٨) . فقط اعتمد العزیز بالله التقرير
الذي رفعه اليه جوهر عن تبرير أسباب هزيمة الجيش وانسحابه
على نحو مشين من مدينة عسقلان الى مصر ، بانها ترجع الى
« تخاذل كتامه » . ويعلق د . لقبال على خذلان كتامة للقائد
جوهر الصقلي داخل مدينة عسقلان بقوله ان ذلك كان « بمثابة
المثار الذي استوفاه رجال هذه القبيلة منه لموقفه المعادي لأكبر
قاداتهم في بلاد الشام (جعفر بن فلاح الكتامي) » (٥٩) . وايماء
كانت الأسباب ، فان العزیز بالله غضب غضبة شديدة ، ولم
يستثن حتى جوهر نفسه من ذلك ، الا أنه أسرها في نفسه ولم

يبيدها لهم حتى تمكن من معالجة أمر الشام بنفسه ، فى شهر المحرم من سنة ٣٦٨ هـ (أغسطس ٩٧٨ م) (٦٠) .

وكانت النتيجة التى خلص بها العزيز من هذا الموقف ان هذا الجيل المغربى قد بدأ يستنفذ طاقته الواجب بذلها فى خدمة الدولة ، ومن ثم وجب عليه - أى الخليفة العزيز - أن يبدأ سياسة جديدة مؤداها اصطناع وجوه جديدة تكون عوضا عن هؤلاء القادة القدامى . وتمثل هذا الجيل الجديد فى جماعات الأتراك والديلمة الذين سموا بالمشاركة نسبة الى موطنهم الأصلي فى بلاد ما وراء النهر (نهر جيحون) من بلدان المشرق الاسلامى (٦١) .

وابتدا العزيز بالله باصطفاء القائد التركى افتيكى ورفاقه - أعداء الأمس القريب - وعاد بهم الى مصر بعد أن هزمهم بالشام وكان ذلك مشار دهشة المقربين من العزيز أمثال الشريف أبى اسماعيل ابراهيم بن أحمد الرسى الحسنى ، الذى علق على مسير افتيكى - عقب هزيمته - مكرما فى موكب الخليفة الى مصر بأن « هذا الكافر انما يستحق كل عذاب ، والعجب من الاحسان اليه » . ولم يجب الخليفة مكتفيا بأن ذلك وقاء لعهد قطعه على نفسه اثناء حربه مع افتيكى (٦٢) . وأصبح الاتراك منذ ذلك الحين عنصرا هاما فى الجيش الفاطمى ، واشتهر منهم قادة لعبوا دورا هاما فى تاريخ الدولة الفاطمية ، مثل : منجوتكين الذى قام بأعمال هامة لصالح الدولة فى الشام (٦٣) .

وثمة موقف آخر جعل العزيز بالله يتمسك بسياسته الجديدة فى محاربة الأتراك والد يلم ، فقد حدث أن ثار حمزة الكتامى - متولى مدينة أسوان - على الخلافة الفاطمية وحاول الاستقلال بناحيته عن سلطانها ، فى سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٩/٧٨ م) ، أى فى أعقاب خذلان كتامة وانهزامها فى جبهة الشام مباشرة . وإذا كانت ثورة حمزة الكتامى قد أخمدت فى ذات السنة على يد أحد القادة

الذين يمثلون التيار المغربي الموالي للدولة الفاطمية وهو جعفر بن محمد بن أبي الحسين الصقلي الذي «أخذه» (أي أخذ حمزة) وأتى به وبأمواله ، فان العزيز بالله أنعم بهذه الأموال على أفتكين التركي ، وعهد إليه بقتل حمزة «فقتله شر قتلة» (٦٤) .

ويمكن تفسير تدليل العزيز بالله للقائد أفتكين — مرة أخرى — وتعدد إخراجهم على الناس في موكب مهيب ردا على استنكارهم منحه هذه المنزلة (٦٥) حتى بدا وكأنه هو الذي سحق تمرد حمزة ، بأن ذلك كان بمثابة رد فعل نفسي معاكس لما بدر من كتامة في حق الدولة .

وجدير بالذكر أن استحداث العزيز بالله الفاطمي للأتراك والديالة — أو المشارقة — لم يكن يعنى أنه أعطى ظهره للمغرب ، أصل الخلافة الفاطمية . بل على العكس نجده قد فكر في المغرب كمستودع لأجيال مغربية جديدة تنتفع الدولة بجهودها البناءة التي لا ريب ستبذلها فور استقدامها إلى مصر . فانتهر العزيز بالله في سنة ٣٧١ هـ (٩٨١ م) فرصة وجود أحد أمراء بني زيري الصنهاجيين نوابه بأفريقية (أو المغرب الأدنى) (٦٦) في مصر — ربما في طريق عودته إلى المغرب بعد أدائه فريضة الحج أو إنه قدم بالهدية السنوية المعتادة للخليفة الفاطمي في مصر — وكان يدعى باديس بن زيري ، فأرسل العزيز معه رسالة إلى أمير أفريقية أبي الفتوح المنصور بن يوسف بلكين (٣٧٤ — ٣٨٦ هـ / ٩٨٤ — ٩٩٦ م) يأمره فيها بتخير ألف فارس من أبطال صنهاجة ، مع ذويهم طبعاً . وحدد له في هذه الرسالة أسماء بعض القادة المشاهير ، منهم : حبوس وماكسن وزاوى وحمامة بنو زيري ، وبنو حمامة بن مناد ، وزاوى بن مناد ، ونظراًؤهم (٦٧) . على أن أمير أفريقية أرسل معذراً عن تنفيذ مطلب الخليفة العزيز بسبب ظروف المغرب المضطربة وحاجته لجهود هؤلاء القادة

— الذين عناهم العزيز ، وهم في ذات الوقت من أقاربه — في مواجهة أطماع بنى أمية — حكام الأندلس — في المغرب (٦٨) .

وإذا كانت هذه الخطوة لم يكتب لها النجاح في عهد العزيز « الذى لم يعد اليه جوابا فيهم » فقد تم تنفيذها في عهد الخليفة المستنصر بالله الذى استجلب أعدادا كبيرة من المصامدة صارت تشكل قوة كبيرة في الجيش الفاطمى في مصر ، واشتهرت بأسلوبها المميز في القتال ، كما سنبين فيما بعد (٦٩) .

ويبدو كذلك أن الخليفة العزيز بالله قد أعطى الضوء الأخضر لوزيره يعقوب بن كلس كى « يذل كتامة » !! وان الوسيلة التى اتبعها ابن كلس في ذلك كانت تتمثل في تقديم الأتراك عليهم في العطاء (٧٠) . بحيث أسفر الأمر عن ضيق الحال ببعض وجوه كتامة ، حتى أن أحدهم ، ويدعى أبا على منصور بن محمد بن على ابن سلمان الكتامى ، لم يجد غير الشكوى الى الخليفة العزيز « لما هو فيه من العلة وقلة ذات اليد » وانه ما له شىء يدفعه للطبيب (٧١) .

ويقينا أن الخليفة العزيز بالله لم يكن ينوى القضاء تماما على وجود أفراد هذا التيار المغربى في دولته ، فقط أراد بإجراءاته السابقة أن يحد من محاولات بعضهم الاستبداد بالأمر . ولعل العزيز أدرك أن سياسة الاعتماد على عنصر بعينه — حتى وإن أخلص كل الاخلاص في خدمة الخلافة — إنما هى في غير الصالح النعم ، فرغب في حفظ توازن القوى في الدولة عن طريق استحداث عناصر جديدة الى جانب العنصر المغربى . يدلنا على ذلك محاولته استجلاب العدد السابق من قادة صنهاجة الى مصر ، واستمرار وجود هؤلاء المغاربة — على اختلاف طوائفهم — كعلامة بارزة في تاريخ الدولة الفاطمية في مصر ، حتى سسقوطها على يد

صلاح الدين الايوبي ، وهو الشيء الذي سنلمسه بوضوح بعد ذلك . . .

ومن الملاحظ أن الخلفاء الفاطميين — الذين حكموا مصر بعد العزيز بالله — قد ساروا على سياسة تعدد الطوائف في دولتهم ، مما أثر كثيرا على نفوذ العنصر المغربي الذي سار في خطوط بيانية متضاربة ما بين صعود وهبوط تبعا لسياسة الفاطميين المتقلبة تجاه أفرادهم .

على أن مثل هذه الاجراءات التي اتخذها العزيز بالله لم تكن لتمر دون أن يكون لها وقع في نفوس هؤلاء المغاربة ، وبخاصة الذين أضرروا منها مثل الصقالبة والكتاميين . وقد اختلف رد الفعل فيما بين هذين الفريقين تبعا للظروف الخاصة بكل . وفي هذا الصدد عقد د . لقبال مقارنة بينهما قائلا : « أن كتابة يدلون على الخلفاء بسبب دورهم التاريخي في نصرة الحركة الاسماعيلية وكونهم أقدم عهدا بها إذا قيسوا بطبقة الفتيان الصقالبة الذين كانوا غرباء عن البيئة ومفتقرين الى التاريخية والى العصبية . ومن ثم كانت لا تطمح نفوسهم الى شيء مما تطمح اليه نفوس الكتاميين . . » (٧٢) .

وبخصوص الصقالبة لم نسمع عن القائد جوهر سوى الامثال لأمر الخلافة رغم أن سلطانه تلاشى على دفعتين : الأولى : أيام المعز لدين الله ، حينما سحبت اختصاصاته الادارية ، بدعوى تفرغه للاشراف على شئون الجيش في شهر المحرم سنة ٣٦٣ هـ (أكتوبر ١٧٣ م) (٧٣) . والثانية : حينما غضب العزيز بالله عليه — اثر عودته من الشام على رأس الجيش مهزوما الى مصر في اواخر سنة ٣٦٧ هـ (١٧٨ م) — واطهر له التنكر ، وولى يعقوب ابن كلثوم موضعه في المحرم سنة ٣٦٨ هـ (أغسطس ١٧٣ م) .

٩٧٨ م) « (٧٤) . حتى استشارة العزيز بالله لجوهر « من الباطن »
 في أمور الحكم انقطعت كذلك منذ سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) ، تلك
 السنة التي « تمكنت فيها حال يعقوب بن كلس مع العزيز » (٧٥) .
 فأوى جوهر الى الظل منذ ذلك الحين مواسيا نفسه بأن « لكل
 زمان دولة ورجال » . ولعل أوضح دليل على انصراف العزيز
 عنه وضالة شأنه أنه أمر كفيره من القادة بالترجل لمنجوتكين التركي
 الذي أصطفاه العزيز بالله . وقد شعر جوهر بما لحقه من مهانة
 وذل ، فكان يدمو على نفسه بالموت ، قائلا : « . . . وها أنا اليوم
 أمشي راجلا بين يدي منجوتكين . أعزونا وأعزوا بنا غيرنا . وبعد
 هذا فأقول : اللهم قرب مدتي ، فقد نيمت على الثمانين ، أو أنا
 فيها » . فتوفي عقب ذلك مباشرة ، في يوم ٢٣ ذي القعدة ، وقيل
 ٦ ذي الحجة من سنة ٣٨١ هـ (في خلال شهر يناير ٩٩٢ م) (٧٦) .
 وينطبق مثل هذا التصرف أيضا على القائد جعفر بن محمد بن أبي
 الحسين الصقلي الذي أخذ فتنة حمزة الكتامي بمدينة أسوان
 (٣٦٨ هـ / ٧٨ — ٩٧٩ م) وسأقه أسيرا الى القاهرة . فكان
 زد العزيز بالله على ذلك يتسم بالغرابة ، إذ أنه عهد الى أفتكين
 بقتل حمزة وأنعم عليه بأمواله ، بدلا من أن يكافئ بها جعفر الصقلي
 صاحب الفضل في ذلك (٧٧) . ومع ذلك لم يبد منه أية شعور
 بالاستياء ازاء هذا الجحود .

وكان شفق الضعفالية بتواضع طموحاتهم سببا في استمرار
 اعتماد الخلفاء الفاطميين عليهم : فكان رشيق الصقلي على شرطة
 الفسطاط — أو البغلي — في سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) (٧٨) . وإشار
 ابن سعيد الى المكانة الكبيرة التي تمتع بها أبو سعيد ميمون الخادم
 المعروف بذية عند العزيز بالله ، حتى أنه توطيط لديه في إطلاق
 الأعطيات لأبي علي منصور الكتامي لمواساته في مرضه (٧٩) :
 وترقى أبو الحسن ياتس الصقلي في الخدمة زمن العزيز بالله
 والحاكم بأمر الله . فولاه الأول شرطة الفسطاط سنة ٣٨٠ هـ

(٩٩٠ م) ، وعهد اليه الثانى بحراسة القصور الخليفة فى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) ثم خلع عليه ووصله بأموال كثيرة وولاية برقة فى سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م) (٨٠) . وتمتع أبو عبد الله الحسين بن جوهر الصقلى بمكانة كبيرة أيام العزيز بالله الذى خلع عليه وجعله فى رتبة أبيه جوهر كقائد شرف على وحدات الجيش الفاطمى ، ولقبه بالقائد ابن القائد (٨١) . وازداد نفوذه أيام الخليفة الحاكم بأمر الله حتى اتخذه وزيراً أول فى الدولة وجعله قائداً عاماً للجيش الفاطمى ولقبه بقائد القواد (٨٢) . ولا ننسى برجوان الذى ارتفعت منزلته أخريات أيام العزيز بالله حتى تولى الوصاية على ولّى عهده الحاكم بأمر الله ، ودوره الخطير بعد ذلك (٨٣) .

وبالنسبة للكتاميين ، فقد كان رد فعلهم — حتى هذه اللحظة — هادئاً على غير المتوقع ، مما يوحي بأنهم لم يكونوا خلال مواقفهم السابقة — أيام المعز وأوائل أيام العزيز بالله — فى حالة عصيان جماعى . ولكن مع توالى ايقاعات ضرب العزيز بالله نفوذهم وتأثيرهم بذلك ، يمكن القول بأنهم بداوا فى التحرك الجماعى منذ ذلك الحين . ولاحقاً ارهاصات غضب الكتاميين من خلال روح الاستياء التى بدأت تغلب على تصرفات قادتهم ازاء محاولات العزيز بالله الحط من شأنهم . فعندما بلغ أبا على منصور بن محمد بن على بن سلمان الكتامى أن العزيز قد استنكر ما أنفقته عليه أثناء مرضه وأنه متعجب لاستمراره فى شكاية سوء حاله ، غضب وقال : « الذى فعلناه نحن معه ومع أبيه وآبائه ، أكبر . بذلنا أرواحنا ودماعنا وأخرجنا أنفسنا من ديارنا وأنفقناها على إقامة ملكهم . نحن لنا الفضل عليهم » (٨٤) . وحينما أمر الحسن بن عمار — زعيم كتامة : فيمن أمر من قادة الدولة — بالترجل لمنجوتكين التركى ، فعل ذلك على مضض . على أن شعوره بالغيظ غلب عليه « فزمر زفرة كاد أن يثشق لها ، وقال : لا حول ولا قوة الا

بالله العلي العظيم» (٨٥) . وربما كانت محاولة اغتيال الوزير ابن
 كلس التي دبرها المغاربة — يتزعمهم قادة كتامة فيما يبدو — بمثابة
 انذار مبدئي للعزیز بالله (٨٦) . وقد اختار المغاربة ابن كلس للتنفيذ
 عن مكنون صدورهم رداً على مبالغته في الحد من نفوذهم . فهو
 لم يكتف باذلال كتامة ، بل سعى كذلك لاستغلال نفوذه في التخلص
 من بعض الشخصيات المغربية الهامة مثل : القاضي على بن النعمان
 ابن حيون المغربي الذي « كان الوزير يعاكسه في أموره ، وعلى
 يصبر عليه » (٨٧) . وتمثلت هذه المعاكسة في ان ابن كلس كان
 يستغل بعض صنائعه في الانتقاص من سلطات القاضي ابن النعمان :
 ففي آخر شهر شوال من سنة ٣٦٨ هـ (مايو ٩٧٩ م) استدعى ابن
 كلس ابا طالب أحمد بن أبي القاسم محمد بن أبي المنهال — قاضي
 مدينة تونس ، وقيل مدينة المنصورية — الى مصر . فقدم بأهله
 وأولاده ، وعهد اليه « بالنظر في المظالم بمصر وأعمالها ..
 وصارت الأحكام في الغالب لا يرد منها الى ابن النعمان شيء » (٨٨) .
 وفي سنة ٣٦٩ هـ (٩٧٩ م) اصطنع ابن كلس عليا بن سعيد
 الجلولي ، وفوض اليه الشرطة السفلى — أو شـرطة
 الفسطاط — « فنظر فيها وفي الأحكام » (٨٩) . ولما أنكر القاضي ابن
 النعمان تدخل ابن سعيد الجلولي — ومن قبله ابن أبي المنهال —
 في شئونهم وأظهر اعتراضه على ذلك ، استصدر ابن كلس
 أمرا كتابيا جاء فيه : « ان كل من حكم بحكم من المستخدمين (أي
 الموظفين التابعين له) فليس للقاضي أن يعترض عليه ، كما انه
 ليس لأحد منهم أن يعترض على القاضي فيما حكم فيه » (٩٠) .
 ويشير د . سرور الى أن ابن كلس كان قد دبر أمر خروج القائد
 جواهر الصقلي على رأس جيش التماس كي يتخلص من
 منافسته (٩١) .

وإذا كانت مؤامرة اغتيال ابن كلس — على أيدي المغاربة —
 قد فشلت الا ان ذلك كان مدعاة لأن يكف العزیز بالله عن سياسته

المناهضة للمغاربة ، سيما بعد أن أدرك جدى الخطأ فى . المبالغة فى تنفيذها . فهو من ناحية . على وشك أن يخسر المغاربة - عصب الخلافة - كعنصر بناء فى الدولة ، إذ من غير المعقول أن يستمر المغاربة العاملون فى دواوين الحكم وفى الجيش الفاطمى على إخلاصهم للدولة ، وضربات العزيز بالله تتوالى عليهم مسرعة . ولا تنسى فى هذا المجال التنويه بأن العمل على افساد ما بين المغاربة والخلافة الفاطمية - فى ذلك الوقت - لم يكن يتفق مع مصالح الفاطميين فى المغرب ، بعد أن بدأ بنو زيرى نوابهم هناك فى التطلع آنذاك نحو الاستقلال (٩٢) .

ومن ناحية أخرى كان اطمئنان العزيز بالله الى جهود وزيره ابن كلس فى تنفيذ متطلبات الخلافة بشأن الحط من نفوذ المغاربة المتزايد فى مصر ، دافعا لابن كلس كي ينفذ هذه السياسة مع العنصر الجديد الاثير لدى الخلافة ، وهم الاتراك والديالة (٩٣) . الامر الذى اظهر ابن كلس فى صورة السامعى نحو الانفراد بالحكم والهيمنة على شئون البلاد فى وجود الخليفة العزيز . واذا كان العزيز بالله لم يرض من ابن كلس المبالغة فى اثاره المغاربة ، لانه بلا شك لم يقبل منه اقدامه على التحرش بالاتراك والديالة . ومن ثم اصدر الخليفة العزيز بالله قراره الفجائى بالقبض على وزيره ابن كلس واعتقاله فى حبس منفرد مع مصادرة امواله . وكان ذلك فى اوائل شهر شوال سنة ٣٧٣ هـ (مارس ٩٨٤ م) (٩٤) .

واذا كان المقرئ قد اشار الى أن القبض على ابن كلس وصرفه عن الوزارة انما كان بسبب اتهمه بدس البسم لافتكين - فتى العزيز المدلل - الذى توفى فى تلك السنة (٩٥) ، الا انه من المناسب أن نفسر ذلك على انها محاولة من العزيز بالله لقرضية المغاربة . والدليل على ذلك أن الخليفة العزيز بالله عهد بالاشراف على الادارة فى مصر - عقب اعتقال ابن كلس - الى

جبر بن القاسم الكتامي المسالتي (٩٦) . وهو واحد من الكتاميين القلائل الذين لم تثر حولهم الشكوك ، فقد عرفناه منذ يوم الفتح على شرطة القاهرة (٩٧) وظهرت كفاءته حينما عهد اليه المعز لدين الله بالعمل على اجلاء المغاربة عن مدينة المنسطاط وتجميعهم في القاهرة في اطار الاستعداد لصد هجوم القرامطة على مصر (٩٨) .

أما في عهد العزيز بالله فقد بقي لفترة طويلة يتصرف في شئون مصر كلها — أثناء الحرب ضد المتكين — من خلال منصبه في شرطة القاهرة ، لدرجة جعلت ابن منجب الصيرفي يؤكد على أنه كان بمثابة نائب الخليفة العزيز بالله في حكم مصر . وأشار في ذلك الى أن الكتب التي كانت ترد الى مصر من الشام كانت تقرأ باسمه على المنابر « رغم انه لم يكن له لقب » (٩٩) . وكان لجبر بن القاسم الفضل في كشف الغمة التي احاطت بالقاضي علي بن النعمان أثناء سفره مع العزيز بالله الى الشام سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) .

اذ قضي على الشائعات التي قيلت عن صرف القاضي علي من منصبه وان اخاه ابا عبد الله محمد بن النعمان — نائبه في الحكم — قد ولى عوضه . ولكي لا يفسد ما بين الاخوين عمل جبر من ناحيته على « تقوية يد محمد بن النعمان » ، الأمر الذي ساعد الأخير في تولى القضاء بعد وفاة أخيه في شهر رجب من سنة ٣٧٤ هـ (ديسمبر ٩٨٤ م) (١٠٠) .

كما أن العزيز بالله عمل على رد اعتبار القاضي علي بن النعمان الذي « أبطل الجلوس بالجامع لمبالغة الوزير في اضعاف يده » بأن رده الى سابق مكانته — عقب القبض على ابن كلس — وزاد العزيز على ذلك بأن لقبه بقاضي قضاة الديار المصرية « فكان أول من لقب بذلك » (١٠١) .

ولا شك أن مثل هذه الاجراءات الأخيرة التي اتخذها العزيز بالله قد ساهمت الى حد كبير في تلطيف حدة الغضب التي انتابت

هتادة المغاربة . الا انها لم تقض تماما على المبراة التى علقت
بنفوسهم . سيما أن العزيز بالله أفرج عن ابن كلس وأعادته الى
سابق مكانته كوزير أول بعد شهرين فقط من اعتقاله (ذى الحجة
٣٧٣ هـ / مايو ١٨٤٤ م) واحاطه بهالة من التكريم ، مما لم يعط
لأحد قبله (١٠٢) . حقيقة أن جبر بن القاسم — الذى خلف ابن
كلس فى رئاسة الدواوين — لم يستبعد تماما عن الحكم ، وإنما
عهد اليه العزيز بالله بتدبير شئون الخراج فى مصر مشاركا لعل
ابن عمر العداس وعبد الله بن خلف المرصدى ، وذلك طوال سنة
٣٧٤ هـ (١٨٤٤/٨٥ م) (١٠٣) . الا أن محاولة إبعاده عن العاصمة
— حينما عهد اليه بالولاية على عدة أقاليم منها تنيس ودمياط
والفرما — أكدت للمغاربة استمرار سياسة العزيز بالله المناوئة
لهم . ويذكر لجبر بن القاسم انه رد على ذلك بأن استمر مقيما فى
القاهرة واستخلف ابنه وكاتبه للنظر فى شئون هذه النواحي (١٠٤) .
لمعله أثر أن يكون قريبا من بلاط العزيز بالله خشية أن تحاك
ضده مؤامرة أو تروج عنه شائعة .

كذلك استمر ابن كلس فى مناوئته لقاضى مصر — آنذاك —
محمد بن النعمان النى ولى القضاء عقب وفاة أخيه على فى شهر
رجب سنة ٣٧٤ هـ (ديسمبر ١٨٤٤ م) . مما جعل ابن حجر يصفه
بأنه « كان كثير المعارضة لبني النعمان فى أحكامهم » ، وذلك
فى رواية — أورد تاريخ حدوثها فى سلخ جمادى الأولى سنة ٣٧٥ هـ
(أكتوبر ١٨٥٥ م) — نخلص منها الى أن ابن كلس اتخذ صناعا له
من بين موظفى القاضى . وأنه علم من أحدهم — وكان
شاهدا — أن القاضى محمد أخطأ فى أحد أحكامه التى قضى فيها
باتهام عقد زواج أحد المصريين من فتاة لم تكن بلغت سن الزواج .
فانتهزها ابن كلس فرصة ليغامل القاضى معاملة مهينة ، وعزل
معاونيه بعد أن بالغ فى الإنكار عليهم (١٠٥) .

وعلى الرغم من المهابة التي أضفاها العزيز بالله على هذا القاضي — تعويضا له فيما يبدو عما لحقه من تجريح على يد ابن كلس — حتى قيل منه : « ما شهدنا لقاض من القضاة بمصر ما شاهدناه لـ محمد بن النعمان ، ولا بلغنا ذلك عن قاض بالعراق » (١٠٦) ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن نفوس المغاربة لم تصف تماما ، لاعتقادهم أن الخليفة مستمر في الانقباض عنهم إلى غيرهم . فبدلا من أن تكون وفاة الوزير يعقوب بن كلس — في شهر ذي الحجة سنة ٣٨٠ هـ (أبريل ٩٩١ م) (١٠٧) — فرصة لظهور قيادات مغربية على رأس الإدارة المصرية ، وجد المغاربة أن العزيز بالله انصرف عنهم إلى آخرين (١٠٨) . بشكل أثر كثيرا على مركز بعض الشخصيات المغربية التي لها ثقلها ، مثل الحسن بن عمار الذي « أمر بالنظر في الظلمات وحوائج الناس وتدبير الأموال ومحاسبة أرباب الدواوين » في شهر المحرم من سنة ٣٨٣ هـ (فبراير/مارس ٩٩٣ م) ، واستمر في منصبه الجديد مدة أيام من هذا الشهر (١٠٩) . وحيد بن المفلح المحتسب الذي استبدله العزيز بالله بشخص يدعى الوبرة النصراني (١١٠) . ثم كانت الصدمة الكبرى للمغاربة من موالى الدولة الفاطمية حينما عهد الخليفة العزيز بالله بالإنشراف على دواوين مصر جميعها إلى عيسى بن نسطورس النصراني ، وذلك في شهر رمضان من سنة ٣٨٣ هـ (أكتوبر ٩٩٣ م) (١١١) . ذلك أن هذا الواسطة مال لمحاباة بني ملته « فقلدهم الأعمال والدواوين ، واطرح الكتاب والمتصرفين المسلمين » (١١٢) . فكان من الطبيعي أن يضبج الجميع بالشكوى . والغريب أن الخليفة العزيز بالله قبض على ابن نسطورس مدة ، ثم أطلقه بشفاعة ست الملك — ابنة الخليفة — بل أنه رده إلى منصبه . فقط اشترط عليه أن يستخدم المسلمين في دواوينه وأعماله (١١٣) .

وضح — إذا — لقيادات المغاربة مدى تعنت الخليفة العزيز بالله ، وميله لتغليب مصلحته الشخصية ولو على حسابهم ، إذ

ظهر لهم ان المال الذى دفعه ابن نسطورس الى الخزانة وقدره
ثلاثمائة ألف دينار قد انماذ بغير شك — مع وساطة ابنة العزيز —
فى ارجاعه لمنصبه ، مع وضوح مدى تعصبه لبني ملته (١١٤) .
فلم يعد كافيا أن يستهدف المغاربة ابن نسطورس وحده بكيل
الاتهامات والدسائس له ، أو حتى قتله . ولكن كان عليهم أن
يقوموا — هذه المرة — بعمل أكبر من ذلك يلفتوا من خلاله نظر
الخليفة الى ضرورة الحفاظ على نفوذهم كعنصر مميز فى الدولة .
وكان من الضرورى أن يعيدوا حساباتهم وينظموا صفوفهم بحيث
يظهر من بينهم من له القدرة فى التعبير عن مطالبهم . وكان هذا
الشخص هو الحسن بن عمار ، زعيم كتامة فى مصر (١١٥) .

ويعد اختيار الحسن بن عمار للقيام بذلك عملا موفقا ، إذ
كان أكثر القادة المغاربة استيعابا للأحداث السابقة . كما وضح
مدى اعتداده بنفسه وثقل مركزه منذ اللحظة الأولى التى قدم فيها
بمصر على رأس نجدته الكتابية أواخر شهر ربيع الأول سنة
٣٦١ هـ (ديسمبر ٧١ / يناير ٩٧٢ م) وما تلى ذلك من مواقف أبلى
فيها بلاء حسنا من أجل تأمين الجبهة الداخلية فى مصر أثناء هجمات
القرامطة على البلاد (١١٦) . حتى اننا نرجح أن يكون سبب حضور
ابن عمار الى مصر ، بعد جوهر الصقلى وتأخره عن الاشتراك
معه فى حملة الفتح انما يعزى الى رغبة ابن عمار فى أن يكون مقدما
على الجميع ، فى حين كانت شخصية القائد جوهر تتضاءل الى
جوارها أية شخصية أخرى . ويبدو لنا صحة هذا الزعم من
خلال رد فعل ابن عمار ازاء أول اهانة لحقت به واعتبرها موجهة
لشخصه ، حينما أمره الخليفة العزيز بالله — فيمن أمر من القادة
— بالترجل للقائد التركى منجوتكين . أثناء خروج الأخير لاستعراض
الجيش قبل ذهابه الى الشام ، فى سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) .
فقد أنكر هذه المهانة بطريقة جعلت جوهر الصقلى — الواقف الى
جواره — يسارع بتقديم النصيح له بأن يكف عن ذلك والا انتهى

الأمر به نهاية غير محمودة (١١٧) . ثم وضحت رغبة ابن عمار في التعرف على حقيقة هذا التغير من جانب الخليفة العزيز بالله تجاههم وإبعاد ذلك حتى يستوعب الأمور تماما ، ولهذا تطلب الأمر أن يستدعى الحديث مرة أخرى مع جوهر الذي أخبره أن هذا التصرف يعد تنفيذا لسياسة رسمها الخليفة المعز لدين الله قبل وفاته ، وأنه ليس من المستبعد أن يلتزم بها أيضا من قد يأتي بعد العزيز بالله من الخلفاء الفاطميين (١١٨) . أثر ذلك كثيرا في نفس ابن عمار رغم أنه استمر ضمن عليّة القوم . وإذا كانت محاولة العزيز بالله ترصّصية المغاربة في شخص ابن عمار حينما عهد إليه بالنظر في المظالم وغير ذلك من الوظائف الكثيرة التي تولّاها في شهر المحرم سنة ٣٨٣ هـ (فبراير/مارس ٩٩٣ م) ، فإن صصره منها بعد أيام من ذات الشهر قد حرك في داخله الكثير تجاه الخلافة . ولهذا كان المرشح الأول لتزعم المغاربة في التعبير عن مطالبهم الجماهيرية التي بدأوا في المناداة بها فور وفاة العزيز بالله في آخر شهر رمضان سنة ٣٨٦ هـ (أكتوبر ٩٩٦ م) (١١٩) .

تشير الروايات إلى أن المغاربة تأخروا عن الحضور لمبايعة الحاكم بأمر الله فور تولّيه الخلافة ، وتجمعوا في المصلى - في شبه مؤتمر عام - واشترطوا لإعلان ولائهم للخليفة الجديد مجموعة من الشروط . بتحقيقها تعود الأمور إلى طبيعتها ويسترجعون مكانتهم وهيبته في الدولة التي نال منها ادخال عناصر الترك والديلم وديسائس ابن كلثوم وابن نسطورس . ومن هذه الشروط : أن يعيد عيسى بن نسطورس عن المسئولية ، وأن تكون الوساطة (١٢٠) لرجل من المغاربة ، وأن تصرف لهم مخصصات مالية تقسط على ثمان مرات في السنة ، على أن يبدأ الاتفاق فوراً وبحضور الخليفة (١٢١) .

وإذا كان الكتّاميون هم أظهري من نادى بتلك المطالب في هذا المؤتمر ، فإن ابن عمار - وفقاً للمخطط على ما يبدو - لزم جانب

القصر . حتى انه خرج اليهم واجتمع بشيوخهم مستوضحا حقيقة موقفهم ، أو ما يكن تسميته بالمتحدث الرسمي باسم القصر الفاطمي (١٢٢) .

وبعد أخذ ورد ، تحقق الاتفاق ، وأعطى الحاضرون ما يخصهم من أموال وكذا باقى المغاربة الفائيين (١٢٣) . وحصل المغاربة — كذلك — على موافقة القصر بشأن انتداب الحسن بن عمار للوساطة (١٢٤) . ويكفى للدلالة على خطورة هذا الاجتماع المغربى أن الاعلان العام عن تولى الحاكم بأمر الله الخلافة قد صدر فى نفس اليوم الذى شهد تولية ابن عمار رئاسة دواوين الحكم فى مصر (٣ شوال سنة ٣٨٦ هـ / ١٨ أكتوبر ٩٩٦ م) (١٢٥) .

وعلى هذا النحو ابتدا المغاربة بهذه البداية الساخنة مع الخليفة الفاطمى الجديد . وهن المؤكد أنهم اعتمدوا فى ذلك على أن الحاكم ما يزال صغير السن (١٢٦) . بيد أنه صاحب هذه الخطوة اجراءات خطيرة من جانب المغاربة أولا ، ثم من جانب الخليفة الحاكم بأمر الله كرد فعل مضاد لها . الأمر الذى أثر كثيرا على مكانة هؤلاء المغاربة ودورهم فى تاريخ مصر الفاطمية . ذلك أن القيادات المغربية التى شاركت فى صنع هذا الموقف اعتبرت موافقة الحاكم على طلباتهم اذانا بيد تسلطهم واستبدادهم بشئون الحياة فى مصر . وتولى الحسن بن عمار تنفيذ هذه السياسة المؤسسية الجديدة مستغلا ثقة الخليفة البصبى فيه وفى اخلاصه للدولة . حتى انه — أى الحاكم — أحاطه بهالة من التكريم أثناء حفل تنصيبه واسطة ، وضمن المرسوم الخاص بذلك — والذى تولى قراءته القاضى محمد بن النعمان المغربى — تلقيب ابن عمار بلقب « أمين الدولة » ، فكان ابن عمار أول من لقب فى الدولة الفاطمية . وزاد الحاكم بأمر الله على ذلك بأن ألزم سائر الناس وكبار رجال الدولة بالترجل لابن عمار أينما سار (١٢٧) .

فبدأ ابن عمار بالاستعانة بالمغاربية في تسيير شئون الخلافة ، واختص كتامة بمحabbاته ، حتى انه غرض الطرف أمام محاولة قادتهم الضغط من جديد على الخليفة الحاكم رغبة في المزيد من النفوذ . فقد حدث في شهر ذى القعدة من سنة ٣٨٦ هـ (نوفمبر ٩٩٦ م) ان تجمع — ثانية — نحو ألف رجل من كتامة عند المصلى للمطالبة بدفعة جديدة من العطاء . ورغم ان الخليفة الحاكم بعث اليهم مؤكدا انه لم يخل بالاتفاق المبرم بينهما ، وانه ما يزال يذكر باقى مستحقاتهم من العطاء الذى تقرر فى الاجتماع السابق ، الا انهم اصرروا على صرف الدفعة الثانية فوراً . فرضخ الحاكم بأمر الله لطلبهم ، وشرع فى النفقة فيهم ، وزاد بان أمر « فحمل راجلهم على الخيل » (١٢٨) .

وأردف ابن عمار بالتخطيط للتخلص من خصومه ، وأبدأ بالأتراك فى شخص القائد منجوتكين ، اذ لم ينس ابن عمار الاهانة التى لحقت بشخصه عندما أمر بالترجل لهذا القائد ، حسبما تقدم . فاستصدر ابن عمار فى ١٢ ذى القعدة سنة ٣٨٦ هـ (نوفمبر ٩٩٦ م) قراراً خليفياً بتعيين أبى تميم سليمان بن جعفر — أحد أبناء القائد الكتامى الشهير جعفر بن فلاح بن أبى مرزوق — قائداً عاماً على الجيش الفاطمى بالشام محل منجوتكين (١٢٩) . وقد وضحت رغبة ابن عمار فى التشفى فى الأتراك — وبخاصة منجوتكين — من خلال مبالغته فى الاحتفاء بابى تميم سليمان الكتامى قبل سفره الى الشام فى شهر ربيع الآخر من سنة ٣٨٧ هـ (ابريل ٩٩٧ م) . فقد عمد اخراجه أكثر من مرة لاستعراض الجيش وسط احتفالات عامة كبيرة ، تشهد بعضها الحاكم بأمر الله . كذلك وضحت هذه الروح العدائية فيما تضمنه سجل تعيين القائد الكتامى من مدح لكتامة واستئزال اللعنات على منجوتكين . ولا يفوتنا ان ابن عمار أمر بقراءة هذا السجل على سائر منابر المساجد بمصر ، وفى القصر ، فى يوم الجمعة الموافق ١٥ صفر سنة ٣٨٧ هـ (فبراير ٩٩٧ م) (١٣٠) .

كذلك عمل ابن عمار على التخلص من عيسى بن نسطور بن
— الذى جعله الحاكم على ديوانه الخاص اثر صرفه عن الوساطة —
فقبض عليه فى شهر المحرم سنة ٣٨٧ هـ (يناير ٩٩٧ م) ، وضرب
عنقه (١٣١) .

وكان من الطبيعى ان تستثير سياسة ابن عمار العدائية
جماعات الاثراك والنصارى ضد المغاربة . فحاول منجوتكين وفرقته
التركية مقاومة سليمان بن جعفر الكتامى فى الشام ، الا انه هزم
فى القتال الذى دار بينهما فى جمادى الاولى سنة ٣٨٧ هـ (مايو
٩٩٧ م) . واضطر منجوتكين الى العودة ذليلا الى مصر بعد
ان امنه سليمان على نفسه وماله . ويشير المقرئ الى ان ابن
عمار كان « ينزله (أى منجوتكين) ادون المراتب وغير رسومه
كلها » (١٣٢) . ولا شك ان منجوتكين صبر على هذا وراح
يتحين الفرص للنيل من ابن عمار والمغاربة جميعا .

اما النصارى فقد أحفظهم ما فعله ابن عمار والمغاربة بعيسى
ابن نسطورس ، وسنراهم يحاولون الكيد — بعد ذلك — لشخصيات
مغربية أخرى لمعت خلال الفترات التالية . مثلما حدث لقائد القواد
الحسين بن جوهر الصقلى الذى صرف عن الوساطة فى
شهر شعبان من سنة ٣٩٨ هـ (أبريل ١٠٠٨ م) لأسباب كان
منها يسعى أبى نصر منصور بن عبدون النصرانى الملقب بالكافى
للدس عليه لدى الحاكم بأمر الله (١٣٣) .

وايت الأمر اقتصر على هذا الحد ، بل تجرأ المغاربة على
التطاول على سائر رجال الدولة والرعية ، وسعوا فى احداث
الفوضى واعمال النهب والسلب فى الطرقات . مستندين فى هذا
الى انفراد الحسن بن عمار بالأمر ، وأنه اصبح سيد الموقف
وتشجيعه لهم بعد أن اعتمد عليهم واتخذ منهم بطانته وجاشيته ،

وهي لهم مراكز نفوذ في القاهرة والأقاليم ، واتخذ لنفسه حرسا من الفرسان والأحداث الكتاميين (١٣٤) . وكانت الخطوة التالية أن تطلع ابن عمار — الذي خيل إليه أنه أصبح غير مراقب — وجماعات المغاربة الى شخص الخليفة الحاكم بأمر الله وممتلكاته . فاطلق ابن عمار يده في أموال الخلافة يتصرف فيها كيفما شاء . ففرق جوارى القصر على رجاله ، واعتق عددا منهم وباع بعضهم ، وقطع أرزاق ورسوم بعض منافسيه ، كما خسب على الأتراك ليرضى أحداث المغاربة في الجيش ، وسلك سبيل التقشف حتى في المطابخ الخاصة (١٣٥) . وصار ابن عمار يدخل القصر راكبا ويشق الدواوين حتى يصل الى الباب الذي يجلس عنده الخدم المختصون بالخليفة ، ثم يعدل الى باب الحجرة التي بداخلها الحاكم . فينزل على بابها ويركب من هناك (١٣٦) . وفي هذا ما يدل على قمة استخفافه بهيبة الخلافة .

ثم وصل استبداد المغاربة من موالى الدولة الى حد أن فكر بعضهم في قتل الخليفة الحاكم بأمر الله ، وحملهم على ذلك صفر سنة وضالة شأنه . ومن الغريب أن ثقة ابن عمار الزائدة بنفسه الى حد الفرور هي التي أنقذت الحاكم من الهلاك على أيدي المتطرفين من هؤلاء المغاربة . ففي حوار دار بين ابن عمار وبعضهم ، قالوا : « لا حاجة بنا الى امام نقيمه ونتعبد له » . فرد عليهم قائلا : « وما قدر هذه الوزغة حتى يكون منها ما نخاف » (١٣٧) . يعنى بالوزغة (مفرد أوزاغ) هنا الضعيف الفاشل اشارة الى احتقاره للخليفة وتصغيره لقدره .

ومن الملاحظ ان تطور الأمور على هذا النحو الخطير لم يستغرق العام ، وسرعان ما بدأت معاول الهدم تعمل اثرها في مخططات ابن عمار والمغاربة منذ أوائل شهر شعبان سنة ٣٨٧ هـ (أغسطس ٩٧٧ م) حتى ثلاثست أحلامهم في السابيع والعشرين

من ذات الشهر . ويرجع السبب في ذلك الى كثرة الخصوم والى حدوث الفرقة داخل صفوف المغاربة . فبينما كان ابن عمار مشغولا بالتمهيد لنفسه ولاعوانه ، كان الأتراك — ومقدمهم منجوتكين — يعملون في الخفاء للتخلص من استبداد المغاربة ، وسعوا الى برجوان الصقلي — الرجل الثاني في دولة الحاكم بأمر الله والوصي عليه منذ أخريات أيام العزيز بالله — لتنفيذ مآربهم (١٣٨) . ومع أن برجوان لم يكن شيخ طائفة من طوائف الجيش كابن عمار ، إلا أنه اشتهر بالدهاء والسياسة . فظهر أثناء فتنة ابن عمار بمظهر الحريص على صالح الخلافة وبالح في ذلك حتى أنه كان « يحرس الحاكم ويلزمه ويمنعه من الزكوب ولا يفسح له في مفارقة الدور والقصور » (١٣٩) . وقد استفاد برجوان من عداوة الأتراك للمغاربة ، فبدأ بتحريض أعداد منهم على المجيء الى مصر من الشام لمحاربة المغاربة ، وقد لبى دعوة برجوان بعض القادة الأتراك منهم منجوتكين ، وشكر العاضدي (١٤٠) . وإذا كان ابن عمار قد رد على ذلك بتسيير القائد الكتامي سليمان ابن جعفر وأخيه على بن جعفر على رأس حملة هزمتهم قبل أن يدخلوا مصر — على نحو ما رأينا . فإن برجوان أثار هم الأتراك من جديد كي يعيدوا الكرة على المغاربة ، مستغلا خلو القاهرة من معظم قوات ابن عمار . كما استمال اليه عبيد الشرى أو الشراء ، وهم طائفة من الجند ممن جلبوا من السودان بطريق الشراء (١٤١) .

وفي إطار استعدادات ابن عمار للقضاء على هذا التحالف سعى في قتل زعماء الترك وبرجوان ، عن طريق التآمر عليهم (١٤٢) . ولكن برجوان علم بأمر هذه المؤامرة عن طريق جواسيسه المنتشرين بين رجال ابن عمار . ولا نستبعد أن بعضا من أنصار ابن عمار قد نقل تفاصيل المؤامرة الى برجوان الأمر الذي أدى الى هزيمة ابن عمار وأعوانه المغاربة خلال المعارك التي دارت بينهم وبين

قوات الحلف المعادي بزعامة برجوان وكان يضم الأتراك والديلم مع
العبيد السودان ، وذلك منذ الغاشر من شهر شعبان ٣٨٧ هـ
(أغسطس ٩٩٧ م) حتى اليوم السابع والعشرين منه (١٤٣) .

والذى يدعونا الى القول بأن الخلاف قد دب بين صنفوف
المغاربة — آنذاك — أن بعض شيوخ كتامة كرهوا إبعادهم عن
السلطة وتقريب الأحداث . ولعل بعضهم — والمعتدلين منهم
خاصة — كرهوا كذلك تطرف ابن عمار فى سياسته ، فكانوا
بمثابة عيون عليه . والدليل على ذلك ما بدر من القائد الكتامى
جيش بن محمد بن الصمصامة — حفيد جعفر بن فلاح
لابنته (١٤٤) — فى حق ابن عمار ، إذ حنق عليه حينما استبدله بآخر
على حكم مدينة طرابلس الشام ، فعاد الى مصر « واتصل سرا
برجوان » (١٤٥) . كذلك وضح مدى التخبیط فى سياسات ابن
عمار حينما انقلبت عليه طائفة الباطلية المغربية ، التى شاركت
العامه فى انتهاب ممتلكات ابن عمار اثر هزيمته أمام المشاركة وعبيد
الشراء ، واضطراره الى الاستتار (١٤٦) .

وعلى هذا النحو انتهت محاولات المغاربة بقيادة الحسن بن
عمار السيطرة على مجريات الأمور فى مصر ، أوائل عصر الحاكم
بأمر الله . وكان الذى تولى افشال مخططاتهم تلك — فى غيبة
الحاكم صغير السن — الأستاذ برجوان الصقلبى كبير الخدم فى
القصر الفاطمى ، حسبما تقدم . ثم عهد برجوان — الذى انفرد بإدارة
شئون البلاد منذ ذلك الحين — الى تهدئة خواطر المغاربة ، وحاول
أن يسترضيهم بالابقاء على مراكزهم فى القاهرة والأقاليم ، وأصدر
أمانا عاما لقادة كتامة ووجوه المغاربة الذين اشتركوا فى
الفتنة (١٤٧) بما فيهم خصمه ابن عمار — الذى ظهر من استتاره
واعتكف فى بيته بالقاهرة منعزلا عن القصر وعن الناس بأمر من
الحاكم — وأطلق له برجوان كل مخصصاته اليومية والشهرية (١٤٨) .

وفي شهر رمضان من ذلك العام (سبتمبر ٩٩٧ م) جمع برجوان غلمان الأتراك ونهاهم عن التعرض لأحد من «الكثامين والمغاربة»، وقبض على عريف طائفة الباطلية وألزمه بإحضار ما انتهبه اتباعه من ممتلكات ابن عمار (١٤٩). وحرص برجوان كذلك على زيارة قاضي القضاة محمد بن النعمان المفسري في كل خميس من أيام الأسبوع أثناء مرض الأخير (١٥٠).

عند هذا الحد بدا وكأن القائمين على رأس الإدارة الفاطمية — وبالأحرى برجوان — قد تناسوا ما اجتزمه المغاربة عامة وابن عمار خاصة في حق الخلافة الفاطمية. فهل حقيقة ساد هذا الشعور جو العلاقات فيما بين الخلافة الفاطمية والمغاربة زمن الحاكم بأمر الله؟

يتضح من سياق الأحداث التي تطلت عصر الحاكم بأمر الله أن شيئاً من ذلك لم يحدث، بل على العكس اتسمت فترة حكمه بجو من التوتر والقلق نتيجة الحساسية التي سيطرت على فكر الخليفة الحاكم أثناء تعامله — فيما بعد — مع القيادات المغربية في دولته، كرد فعل لما بدر منهم. أما تصرفات برجوان السابقة مع ابن عمار وأئصاره فيمكن اعتبارها قد صدرت بوازع داخلية من برجوان الذي لجأ إلى سياسة توازن القوى بين العناصر المتصارعة في الدولة الفاطمية (المغاربة، والأتراك والديلم، وعبيد الشراء، والنصارى) بهدف الجمع بين هذه المتناقضات في إطار عام يتفق مع مصالح الخلافة الفاطمية أولاً، ثم مع مصالحه الشخصية بعد ذلك.

ومما لا شك فيه أن برجوان — بسياسته السابقة مع المغاربة — قد استمالهم إلى جانبه، مع كون الأتراك والديلم حلفاءه، بينما لم يكن السسودان أو عبيد الشراء — حديثو العهد في

خدمة الدولة — يرضون بأكثر من الإبقاء عليهم آمنين كخدم في القصور الفاطمية أو جنود يخدمون في الجيش الفاطمي مقابل أجر معلوم ، وارتضى النصارى أن ينتدب أحدهم — ويدعى أبا العلا فهد بن ابراهيم — للعمل مساعدا لبرجوان وكاتبا له (١٥١) .

والدليل على أن برجوان تمكن من احتواء المغاربة تحت لوائه أنهم لم يعترضوا حينما سعى في اجراء تعديلات ادارية وعسكرية بين صفوفهم . ففي شهر ذى القعدة من سنة ٣٨٧ هـ (نوفمبر ٩٩٧ م) أصدر برجوان قرارا بتعيين جيش بن الصمصامة — حليفه أثناء الصراع ضد ابن عمار — قائدا عاما على الجيش الفاطمي بالشام ، وعقد له على مدينة دمشق بدلا من خاله أبي تميم سليمان بن جعفر بن نلاح . فسلم الأخير القيادة لابن اخته جيش ، فور وصوله الى الشام ، ورحل بعسكره عن المدينة — في ١٧ ذى الحجة من تلك السنة (ديسمبر ٩٩٧ م) — الى مدينة الرملة . ثم آثر العودة الى مصر — بعد ذلك — مع أخوه على بن جعفر بن نلاح ، فوصلها في شهر بيع الآخر سنة ٣٨٨ هـ (ابريل ٩٨٨ م) دونما احتجاج (١٥٢) . وذلك على غير المتوقع ، اذ يعد موقف برجوان هذا تدخلا منه فيما بين المغاربة . حقيقة انه استبدل مغربيا بمغربي آخر من نفس الأسرة ، الا ان اختيار برجوان للقائد جيش بن الصمصامة — على وجه الخصوص — لتولى القيادة العسكرية في الشام وامرة مدينة دمشق كان لابد ان يحدث استياء أو نحو ذلك بين المغاربة عامة في مصر . وذلك بسبب تصرف ابن الصمصامة المالي لبرجوان أثناء صراعه ضد ابن عمار ، ولعله هو الذي اطلع برجوان والقائد شكر العاضدى على تفاصيل المؤامرة التي حاكها ابن عمار ضدهما .

ورغم هذه الاعتبارات ، من هذا الموقف بغير تعقيب . مما يجعلنا نعتقد بان برجوان حاول معالجة المغاربة عامة — والكثامين

خاصة - حينما أصدر في شهر المحرم سنة ٣٨٨ هـ (يناير ٩٩٨ م) قراره بتعيين أحد قادتهم - ويدعى أبا الحارث فحل بن اسماعيل ابن تميم بن فحل - على مدينة صور ، أحد الثغور الساحلية بالشام ، « وقيد بين يديه وحمل اليه » (١٥٣) . وعندما توفي قاضي القضاة محمد بن النعمان بن حيون المغربي في ٥ صفر سنة ٣٨٩ هـ (يناير ٩٩٩ م) ، سعى برجوان لدى الحاكم بأمر الله في تولية أبي عبد الله الحسين بن علي بن النعمان - ابن أخي القاضي المتوفى - بعد أن ظل منصب قاضي القضاة شاغرا مدة ١٩ ليلة (١٥٤) .

وضح - إذا - أن برجوان قد نجح في إرضاء كافة العناصر المتصارعة في الدولة بشكل جعلها جميعا متساوية في الانصياع له ، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في انفراد به إدارة شئون البلاد دون منازع من خلال منصبه كواسطة . كما عجل باظهار ميوله الحقيقية نحو الاستبداد بالأمر مستغلا - هو الآخر - صفر سنن الخليفة وأنه ما يزال عاجزا عن ادراك الأمور على حقيقتها . وشعر برجوان أن الوقت قد حان لكي يحقق ما كانت نفسه تتوق اليه من الولاية ، حسب تعبير المقرئ الذي وصف تصرفات برجوان الأخيرة بقوله : « لما بلغ النهاية قصر في الخدمة » حتى وصل به الأمر الى درجة الاستخفاف بالخليفة الحاكم (١٥٥) .

عند هذا الحد ، وصل الأمر الى درجة من الخطورة لا ينبغي لخليفة مصر الفاطمي - الحاكم بأمر الله - السكوت عليها ، مهما صغرت سنه . فمن الآن على مشارف سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) ومعنى ذلك أن عمره قد قارب ١٨ سنة (١٥٥ م) . ومن غير المعقول أن يستمر صغيرا هكذا ، أو غير واع لحقيقة الأمور ، كما ظن برجوان ومن قبله الحسن بن عمار .

وواقع الأمر أن فترة صنت الحاكم بأمر الله - بسبب صغر سنه - واعتماده على غيره من رجال الدولة في إدارة شئون البلاد ، قد أفادته كثيرا في التعرف على حقيقة نوايا المقربين إليه وسائر رجال الدولة ، ولهذا سهل عليه التعامل مع هذه النوعيات بالالتزم الكافي . أو كما أشار ابن سعيد الأندلسي في تحليل دقيق لذلك بقوله : « وكان الأمر في مدة العزيز فيه انحلال وعفو كثير عن الناس ، فظنوا أن ذلك يجوز في مدة الحاكم . وجروا على رسمهم . فتجرد لهم منه مطلع على جميع أمورهم ، غير مطرح لعقوبة ، فهلك الجرم الغفير منهم . » وكان في مدة أبيه الإمام العزيز قد تكشف على أقوام ممن يطعن في الدولة ويسىء القالة فيها . فلما صارت له الخلافة ، انتقم منهم أشد انتقام وعملهم بالعقوبة . » (١٥٦) ومع بعض التحفظات التي لنا على هذه الرواية بصدده الجزء الأول منها عن عصر العزيز بالله وما ارتآه ابن سعيد من سيادة العفو والانحلال خلاله (١٥٧) ، إلا أنها في مجملها تقدم لنا تحليلا صادقا لهذه المرحلة الهامة من مراحل العلاقات بين الخلافة الفاطمية وتيار المغاربة من موالى الدولة ، كما أنها تضع القاعدة التي سار عليها الخليفة الحاكم بأمر الله في التعامل مع سائر رجال الدولة ، بما فيهم المغاربة .

واختار الخليفة الحاكم « مريبه وجاضنه » السابق ، وواسطته الحالى ، الأستاذ أبا الفتوح برجوان - من بين رجال دولته - كي يفتتح به قائمة المضطهدين . فأوعز إلى أحد خدام القصر - ويدعى ريدان الصقلبي - بقتله . وقد تمت مؤامرة قتل برجوان أمام أحد أبواب القصر الفاطمي ، في ٢٦ ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ (أبريل ١٠٠٠ م) ، وأعقب ذلك بمصادرة أمواله (١٥٨) . ومع انتشار خبر مقتل برجوان ، سرت الشائعات بين سائر رجال الدولة أن الدور بسرعان ما سيحل عليهم ، واختص المغاربة بالجانب الأكبر منها . ولم لا ؟ وقد ترسم برجوان خطي ابن عمار في الاستبداد

بالأمور دون الخليفة . الا انهم — على ما يبدو — لم يتوقعوا ان عقاب الحاكم لهم سيكون بهذه الصورة القاتمة : شاملا لا يفرق بين مذنب وبريء ، قاسيا على غير المجهود .

ومن العوامل التي جعلت قادة المغاربة غير متوقعين لكل هذا : أن الحاكم بأمر الله بادر — صبيحة مقتل برجوان — باعلان وثيقة شفوية اعتبرها المغاربة وسائر رجال الدولة بمثابة عهد امان لهم . وزادهم اطمئنانا أن الحاكم خاطبهم خلالها « بنفسه من غير واسطة » ، أى مباشرة بغير حاجب ينقل اليهم أقواله . فبعد أن ألمح الحاكم فيها الى الأسباب التي دعت له لتدبير مقتل برجوان ، ابتداء بالالتفاف الى الكتامين — وكانوا أبرز الحاضرين — قائلا : « والآن فأنتم شيوخ دولتى ، وأنتم عندى أفضل مما كنتم فيه مما تقدم » . وهو على ما يبدو عتابا لهم من نوع رقيق . ثم التفت الى الأتراك مشيرا الى انه محال عليه أن يفكر فى الحاق الأذى بهم وهم « فى مقام الأولاد » (١٥٩) . وساعد على ازالة بعض كآبة هذا المشهد من نفوس المغاربة ان أحد كبرائهم وهو أبا عبد الله الحسين بن جوهر الصقل ، قد برز أثناء صدور هذا الاعلان فى حال عظيمة ، بتدبير الحاكم ومعرفته طبعا ، اذ « نزل وحده الى القصر وأذن للناس — الذين وقفوا بالبواب — فدخلوا الى الحضرة » . مما جعلهم ينصرفون جميعا ، فور انتهاء هذا الاجتماع غير العادى والسنتهم تلهج بالدعاء للخليفة وقد قبلوا الأرض أمامه (١٦٠) .

ويلاحظ أن الخليفة الحاكم لم يبدر منه — حينئذ — أى اتجاه عدوانى تجاه المغاربة ، وحتى اليوم الخامس من شهر شوال سنة ٣٩٠ هـ (سبتمبر ١٠٠٠ م) ، ذلك اليوم الذى شهد مقتل الحسين بن عمار فى صورة مشابهة تماما لحادثة مصرع برجوان (١٦١) ، وما تبع ذلك من اسراف الحاكم فى الفتك بقادة المغاربة . الأمر الذى يطرح علينا هذا التساؤل : علام يدل التأخير

فى معاقبة قادة المغاربة الذين شاركوا فى فتنة ابن عمار ؟ قد يتبادر
 الى الذهن ان الخليفة الحاكم بأمر الله اراد بسكوته هذا ان يعطيهم
 فرصة اخيرة للتعايش معه فى جو سلمى يسوده الود والاخلاص فى
 العطاء . ولكى يثبت لهم حسن نيته تناسى امر محاسبتهم عما
 اجتمروه فى حق الدولة والخليفة ، وابقى على المناصب التى تحت
 أيديهم فى قطاعات الجيش والادارة . كما انه زاد فى اختصاصات
 بعضهم : فالقائد أبو عبد الله الحسين بن القائد جوهر الصقلى -
 الذى كان على ديوان البريد والانشاء منذ شهر شوال سنة ٣٨٦ هـ
 (اكتوبر ٩٩٦ م) (١٦٢) - جعله الحاكم شريكا لأبى العلاء فهد
 النصرانى وعلى بن عمر العداس فى رئاسة الدواوين عقب مقتل
 برجوان مباشرة ، وخلع عليه الحاكم بالأموال والأنعام ولقبه بقائد
 القواد . (١٦٣) . وظل الحسين بن على بن النعمان متمتعا بكامل
 هيئته ومكانته فى الدولة كقاض لقضاة الديار المصرية ، منذ توليه
 هذا المنصب فى ٢٣ صفر سنة ٣٨٩ هـ (يناير ٩٩٩ م) اثر وفاة
 عمه محمد بن النعمان (١٦٤) . واثر وفاة القائد جيش بن
 الصمصامة - وهو على امرة دمشق فى شهر ربيع الآخر سنة
 ٣٩٠ هـ (ابريل ١٠٠٠ م) - عهد الحاكم الى القائد الكتامى فحل
 ابن اسماعيل بن تميم بحكم المدينة ، فانتقل اليها من صور ،
 واستمر حاكما لها الى حين وفاته بعد شهور قليلة من تلك السنة ،
 فخلفه على بن جعفر بن فلاح الكتامى فى حكم دمشق (١٦٥) .

على أننا نشك كثيرا فى صدق هذا الزعم من جانب الخليفة
 الحاكم بأمر الله ، ولا نملك الا القول بأننا أمام مخطط خليفى أحكمت
 حلقاته للايقاع بالمغاربة - من موالى الدولة - . وكانت الخطوة
 الاولى فيه تتطلب غض الطرف عما فعلوه آنفا وامرار الموقف على
 صورته الطبيعية ، مع الاكتفاء بهذا العتاب الرقيق الذى وجهه
 الحاكم لأكثر العناصر المغربية تورطا فى هذه الفتنة ، وهم الكتاميون .

ثم تلى ذلك اعطاء المغاربة المزيد من الثقة من خلال استثماره في الاعتماد عليهم في شغل وظائف الدولة المدنية والعسكرية . وربما قصد الحاكم من وراء ذلك ان يشعر المغاربة بالمزيد من الامان حتى يسيروا على سجايهم ويتخلوا عن حذرهم . ولا يخفى علينا ان الحاكم رغب كذلك في اعطاء نفسه بعض الوقت لدراسة ابعاد ونتائج سياسته الجديدة معهم ، بسبب حساسية العلاقة فيما بين الخلافة وهؤلاء المغاربة الذين — على الرغم مما سبق ما يزالون مصعب الخلافة . وقد كان من الصعب — بل محالا — على الحاكم ان يبدأ بالانتقام من هذا الجيل قبل ان يطمئن الى وجود آخرين من بين الصفوف التالية يخلصون في خدمة الدولة ، على الاقل في الجيش ان لم يكن في الادارة كذلك . وهو ما يؤكد لنا ان الحاكم بأمر الله — رغم حنقه على المغاربة واستعداده النفسى لاتخاذ اشد الوسائل ارهابا معهم — لم يكن ينوى استئصال شأفتهم تماما . فقط — وبصورة اكثر حزما عن ذى قبل — اراد ان يلقنهم درسا لا ينسونه في تعاملهم مع الخلافة مستقبلا ، حتى لا يظلوا تياهين على الخلافة بماضيهم معها ، ويعيشوا كفرهم من العناصر المستحدثة في خدمة الدولة الفاطمية . وأما مسألة وجوب تمييز الخلافة للعناصر المغربية القائمة في الخدمة ، فهي من قبيل الالتزام الأدبى ، ويكون للخليفة الفاطمى وحده حق النظر فيها : أما بالوصل في حالة الرضا ، وأما بالفصل في حالة السخط .

وثمة دليل على أن في الأمر مخططا روعى فيه دقة التنفيذ . يتمثل في أن الاعلان الرسمى الذى أعلنه الحاكم وأمر بإذاعته على منابر المساجد في الفسطاط والقاهرة وجزيرة الفسطاط والجزيرة ، بهدف تبرير مقتل برجوان ، قد خلا من الاشارة الى مضمون الاجتماع الطارىء الذى عقد صبيحة مقتل برجوان الذى أعلن الحاكم فيه خطبته الشفهية التى ضمنها طمأنة الكتامين — أبرز

الحاضرين — والأتراك الى عدم اتخاذ أية إجراءات معهم . ولذلك جاء هذا الاعلان العلنى فى صورة نشرة رسمية عادية تعلن للمصريين خبر مقتل برجوان ، وتطلب من فئات التجار وسائر الاهالى ان يفتبوا على معاشهم وينشغلوا بأمورهم وان « من كانت له منكم مطالبة أو حاجة فليحض الى أمير المؤمنين بها ، فانه مباشر ذلك لكم بنفسه ، وبابه مفتوح بينكم وبينه » (١٦٦) .

وهذا الخطاب فى حد ذاته يبرز لنا أمرين : أولهما ، أن الخليفة الحاكم بأمر الله قد قرر — منذ الآن فصاعداً — أن يباشر أمور الحكم بنفسه دون تعويل على أحد من موظفى الدولة . وثانيهما ، أن الحاكم ربما أراد أن يعطى نفسه الفرصة للاخلال بما جاء فى خطبته الشفهية طالما أنها لم تعلن على الملأ .

وجدير بالذكر أن سياسة الحاكم الصامتة ازاء التعليق على ما بدر من المغاربة أثناء فتنة ابن عمار ، قد بدأت تؤتى ثمارها بين الأوساط المغربية القائمة فى الخدمة . فقد فسر بعضهم هذا الصمت على أنه غفلة مستمرة وقع فيها الحاكم — صغير السن — وأصروا على استبدادهم . ومن هؤلاء : قاضى القضاة الحسين بن على بن النعمان الذى استغل اضطفاء الحاكم له ومواصلته بالعطايا والتكرمة الزائدة « فأفرط فى مجاوزة الحد فى التعاضم » . ولم يكتف بذلك ، بل شرع فى الاستيلاء على الأموال المودعة كإمانات فى ديوان القضاء (١٦٧) . ومن هؤلاء أيضا : القائد الكتامى جيش ابن محمد بن الصمصامة الذى زاد جوره وأسرف فى ظلمه لأهالى مدينة دمشق والقرى المحيطة بها ، حتى هرب كثير منهم عن البلد . ولولا وفاته المبكرة فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ (أبريل ١٠٠٠م) لكان للحاكم معه شأن آخر (١٦٨) . بينما فسر البعض الآخر — من قادة المغاربة — هذا الصمت على أنه مكيدة لهم ، وراحوا

يحترزون من غضب الحاكم ، مثلما فعل قائد القواد الحسين بن جوهر الذى منع أن يلقاه أحد في الطريق أو في داره كي يعرض عليه مسأله ، وأمرهم أن يعرضوا ذلك عليه في القصر » في موضع رسم له بالجلوس فيه . وحرصا منه على تنفيذ رغبة الخليفة في مباشرة أمور الدولة بنفسه امتنع عن مقابلة أصحاب الحاجات إلا بعد أن يدخلوا على الحاكم أولا « وتشدد في ذلك لخوفه من غيرة الحاكم » (١٦٩) . وحرص أبناء القائد جيش بن الصمصامة على استدرار عطف الحاكم ، وخافوا أن يسعى للانتقام منهم جراء ما فعله أبوه في حكم دمشق ، فحضروا الى مصر عقب وفاته وقدموا الأموال التي خلفها لهم ، هدية للحاكم زاعمين أن والدهم كتب وصية بذلك . إلا أنه رفض قبول هذه الأموال — وكانت تقدر بمائتى ألف دينار — وأعادها الى أبناء جيش وأظهر لهم امتنانه ودعا لهم بالبركة فيها (١٧٠) .

وعلى أية حال ، ما لبثت الأمور أن تكتشفت على حقيقتها منذ الخامس من شهر شوال سنة ٣٩٠ هـ (سبتمبر ١٠٠٠ م) عندما كثر الحاكم بأمر الله عن أنيابه وكشف عن حقيقة نواياه في الإيقاع بقيادة المغاربة جميعا سواء المحترزين منهم أم الذين ثبتت ادانتهم فعلا . فابتدأ برأس الفتنة والمتسبب في ذلك كله ، أبى محمد الحسن ابن عمار ، ولم تعفه عن العقاب السنون التي قضأها وحيدا في داره منعزلا عن مخاطبة أحد ، منذ انتهاء أمره في ٢٧ شعبان سنة ٣٨٦ هـ (أغسطس ٩٩٧ م) . ويشير المقرئى الى أسلوب الامتهان الذى اتبعه الحاكم مع ابن عمار قبيل مقتله ، اذ صار يستدعيه الى القصر « من غير تعويل عليه في النظر » وطوال عشرة أيام كاملة ، كان ابن عمار خلالها يحضر الى القصر « وينزل موضع نزول الناس » ويستمر في جلوسه ككم مهمل الى وقت العشاء ، ثم يخرج اليه الأمر بالانصراف . حتى كان اليوم الذى قرر فيه

الحاكم بأمر الله التخلص من ابن عمار ، فرصد له جماعة من الأتراك وقفوا له عند خروجه من القصر « فقتلوه » واحتزوا رأسه ودفنوه مكانه . وحمل الرأس الى الحاكم . ثم نقل الى تربته بالقرافة فدفن فيها « (١٧١) . واثار ذلك ارسل الحاكم بأمر الله الى ابن عم ابن عمار ، وهو ثقة الدولة الحاكمة يوسف بن أبى الحسين الكلبى والى صقلية ، يبرر قتله لكثرة ذنوبه وانحرافه عن العهد ، ويقول له : « الحمد لله قاطع الانساب بفاظع الاسباب اذ يقول وقوله هدى لاولى الالباب : يا نوح انه ليس من اهلك . » (١٧٢) .

ثم تلت ذلك فترة هدوء — يمكن أن نطلق عليها مرحلة جس النبض — قصد الحاكم خلالها أن يتعرف على ردود فعل المغاربة نتيجة مصرع زعيمهم السابق الحسن بن عمار . ومن الغريب أن قادة المغاربة لم يحركوا ساكنا ازاء هذا الحادث . ولعل السبب في ذلك يرجع الى :

١ — أن العديد من كبار القادة المغاربة كانوا قد انفضوا عن ابن عمار وقت توليه السلطة لتطرفه الشديد ، وبالفئة في الاعتماد على الناشئة من المغاربة .

٢ — أو أنهم كانوا قد اعتادوا اختفائه عن الاضواء خلال المدة التي قضاها محددة اقامته في داره ، بحيث سهل ذلك عليهم أن يتقبلوا في هدوء نبأ موته .

٣ — أو أن ابن عمار كان يمثل آخر القادة المغاربة الثائرين ، بحيث لم يظهر من بينهم ثائر آخر تنتظم حوله صفوف المغاربة للمطالبة بالثأر له . على العكس من ذلك نجد الآخرين وقد راح كل منهم يعيد حساباته — وبسلبية واضحة — مع نفسه حتى يغطي موقفه أمام الخلافة .

٤ - وربما كذلك يعود السبب في هذا الهدوء الى نجاح مخطط الحاكم بأمر الله الذي أغدق عطاياء على الكثير منهم أثناء الاعداد لمقتل ابن عمار .

وايها كانت الأسباب ، فان حادث مقتل الحسن بن عمار قد مر في هدوء وبغير تعقيب ، حتى ان الخليفة الحاكم لم يضطر الى اعلان ملابسات الحادث لغير أفراد أسرة القتيل من بنى أبى الحسين حكام صقلية . وتخلل فترة الهدوء تلك - والتي استمرت منذ ٥ شوال سنة ٣٩٠ هـ (سبتمبر ١٠٠٠ م) حتى مطلع سنة ٣٩٤ هـ (٣ / ١٠٠٤ م) بمبالغة الحاكم في اغداق منحه وعطاياء على الشخصيات المغربية القائمة في الخدمة . واختص بذلك قاضي قضاته الحسين بن على بن النعمان الذي زاد الحاكم في اختصاصاته منذ سنة ٣٩١ هـ (١٠٠١ م) ففوض اليه « الحكم بجميع المملكة ، وكذلك الخطابة والامامة بالمساجد الجامعة ، والنظر عليها وعلى غيرها من المساجد . وولاه مشارفة دار الضرب ، والدعوة وقراءة المجالس بالقصر وكتابتها » . فصار « أول من اضيفت اليه الدعوة من قضاة المبيدين (أى الفاطميين) » (١٧٣) . كما ان الخليفة الحاكم أفرد الحسين بن جوهر قائد القواد في منصب الوساطة منذ شهر رجب سنة ٣٩٣ هـ (مايو ١٠٠٣ م) ، حينما قتل شريكه : أبا العلاء فهد بن ابراهيم النصراني وأبا الحسين على بن عمر المداس ، خلال تلك السنة بفارق شهر بين الأول والثاني (١٧٤) .

ثم فجأة وبغير سابق انذار ابتدأ الحاكم بأمر الله في فتح ملف الحساب مع المغاربة القائمين في الخدمة في دولته ، وذلك مع حلول سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣/١٠٠٤ م) . فأوسع قادتهم قتلا . وشمل بعقوبته أعدادا ممن سبق لهم الخدمة في عهد المعز لدين الله والعزیز بالله . وكانت وطأته شديدة على الكتامين ، حتى انه

أحرق جثث بعضهم بالنار • وقد أورد المقرئى قائمة بأسماء من قتلهم الحاكم ، يهمن منها أسماء الضحايا المغاربة ، أمثال أبى على عسلوج بن الحسن الدهاجى ، وسليمان بن عزة ، ويخلف بن عبد الله ، ومحمد بن على بن غلاح ، ويحيى بن سلمان الكتامى ، وغيرهم • وقد أقدم يحيى بن سلمان — قبل مقتله — على إعطاء سما لأخيه على ، خوفا من أن يقتله الحاكم ويمثل بجثته ، واعترف بجريمته قائلا : « قتلته قتلة مستورة » (١٧٥) • ودفع هذا بأحد المؤرخين الى أن يصف فترة حكم الخليفة الحاكم بأمر الله بـ « عصر محنة كتامة » (١٧٦) •

وقد ضمت كذلك قائمة القتلى — الذين بلغ عددهم ١٩ شخصا — قلة من غير المغاربة ، أمثال : ابن أبى خريطة ، واسماعيل بن سوار من أصحاب برجوان ، وأبى إبراهيم سهل بن كلس أخى يعقوب الوزير ، وأبى غالب النصرانى أخى فهد بن إبراهيم (١٧٧) • وبالنظر الى الكيفية التى تمت بها هذه المذبحة يتضح لنا أن الخليفة الحاكم بأمر الله كان قد اتخذ جواسيسا له ، عرفوا بأصحاب الأخبار ، من بين رجال الدولة ، وأنه اعتمد عليهم فى مراقبة سائر الموظفين • وقد وضح ذلك من خلال الملابس التى أحاطت بمقتل أبى غالب النصرانى ، الذى حقد على الخلافة اثر مقتل أخيه فهد فى ٨ جمادى الآخرة سنة ٣٩٣ هـ (أبريل ١٠٠٣ م) « فرغ أصحاب الأخبار عن أبى غالب كلمة تكلم بها ، فقتل وأحرق بالنار » (١٧٨) •

فهل بدرت من قادة المغاربة — قتلى هذه المذبحة — أمور رفعها هؤلاء الجواسيس الى الحاكم خلال الفترة التى سبقت مقتلهم ، وبالتحديد منذ مصرع الحسن بن عمار ، وبالتالى أوجبت قتلهم ؟ ثم اليس من المفترض أن يكون من بين هؤلاء الجواسيس أشخاص مغاربة — ممن وصفوا بالسلبية — رضوا بأن يتجسسوا

على اخوانهم تقريبا للحاكم ورغبة في اتقاء شره ، اذ من غير المعقول أن يرتكن هؤلاء القادة - الذين قتلوا - الى غير بنى جلدتهم في التحدث بما يعتمل في صدورهم ازاء مقتل ابن عمار ؟ وثمة خيوط تتجمع من خلال الاجابة بنعم على هذه الاستفسارات ، وتقدم لنا - بالتالى - تعليلا منطقيا يغطى الفترة من ٥ شوال سنة ٣٩٠ هـ ، وحتى حدوث هذه المذبحة في سنة ٣٩٤ هـ .

فصمت المغاربة وامتناعهم عن التعليق على مصرع ابن عمار كان بمثابة الهدوء الذى يسبق العاصفة ، وتخلله أعداد بطيء للأخذ بالثار قام به قادة المغاربة - وبخاصة الكتامين - الذين حز في نفوسهم مقتل زعيمهم ابن عمار . وقد تزعم هذا الاعداد اشخاص ممن كانوا قد آووا الى الظل منذ زمن ، امثال عسلوج ابن الحسن وسليمان بن عزة . وعلى الصعيد الآخر كان الحاكم بأمر الله يتنسم اخبارهم ويتتبع تفاصيل اجتماعاتهم من خلال اشخاص مغاربة ، ممن خافوا مغبة منافرة الخلافة ، فرضوا بأن يخونوا رفقاءهم ويعملوا كجواسيس للحاكم تقريبا له وزلفى . وعند شعور الحاكم ببوادى اكتمال المؤامرة ، رغب فى أن يكون هو البادى ، فكانت مذبحة سنة ٣٩٤ هـ .

أما عن المؤامرة التى ألجأت الخليفة الحاكم لاستخدام كل هذا العنف من أجل اجهاضها ، ووصلت بالعلاقات فيما بينه وبين المغاربة من موالى الدولة الى منعطف خطير ، فتتمثل فيما رواه المقرئى من أن الحاكم بأمر الله كان قد استشعر خطرا على حياته من أحد أفراد الأسرة الفاطمية - ويدعى عبد الأعلى بن الأمير هاشم بن المنصور - فاهتم برصد تحركاته من خلال بعض جواسيسه الذين اخبروه فى اخريات سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٣ م) بما يؤكد شكوكه فيه . ذلك أن هؤلاء الجواسيس نقلوا الى الحاكم

وقائع حوار دار بين الأمير عبد الأعلى وجماعة من ندمائه الذين خاطبوه في أمر أحقيته بالخلافة ، وقال له أحدهم ما نصه : « لا بد لك من الخلافة ، فأنت امام العصر » . فما كان من الحاكم الا أن « بعث الى من حضر المجلس ، فقتلوا وأحرقوا بالنار » . وفيهم اولاد المغازلي ، وابن خريطة ، واولاد أبي الفضل بن الفرات (الوزير السابق) ، وفتيان من كتامة . وتتابع القتل في الناس من الجند والرعية بضروب مختلفة « (١٧٩) » .

ومما لاشك فيه أن الحاكم بأمر الله قد كسب هذه الجولة اذ انه بهذا العمل الانتقامي الجماعي تمكن من كسر شوكة المغالين من المغاربة - وأعنى بهم الكتامين - الذين لم يجدوا مفرا من بطش الحاكم الا أن يلجأوا الى أسلوب الاسترحام عسى أن يجدي في رفع الغمة . فخرجوا في شهر شعبان من تلك السنة (٣٩٤ هـ / مايو ١٠٠٤ م) الى باب الفتوح - في الجهة الشمالية من سور القاهرة - « فترجلوا وكشفوا رؤوسهم واستغاثوا بعفو أمير المؤمنين » . فاستجاب لهم « وكتب لهم سجلا قرىء بالقصر وبالجوامع ، بالرضا عنهم واعادتهم الى رسومهم في التكرمة » (١٨٠) . ونستطيع القول بأن الأمر قد تمهد كثيرا للحاكم بأمر الله في أعقاب الحادثة ، اذ بات الجميع يتوجسون خيفة أن تشملهم سياسته الانتقامية وصارت فعلة الكتامين الأخيرة مثالا احتذته بقية الطوائف المغربية مثل : الزويليين ، والبرقيين ، والجوذرية ، والضحناجين (١٨١) ، الذين تجمعوا في شهر ربيع الآخر سنة ٣٩٥ هـ (يناير ١٠٠٥ م) أمام القصر . وشاركهم المشاركة ، وعبيد الشراء ، وطوائف عديدة من المصريين في الحضور الى القصر . وراح الجميع يسألون الحاكم أن يصدر لهم عهدا بالأمان ، فأجابهم الحاكم الى ما طلبوا ، وأمر بكتابة سجلات أمان للجميع (١٨٢) .

وقد استمر الخليفة الحاكم بأمر الله في سياسته الجديدة القائمة على ردع كل من تسول له نفسه بالمخالفة ، حتى هؤلاء الذين لم تثبت ضدهم الأدلة الكافية على تورطهم في الخطأ . وراح يطبق هذه السياسة على باقى عناصر الدولة ، الأمر الذى جعل فترة حكمه توصف بأنها عصر التطرف والارهاب ، وكان ذلك مدعاة لأن تنسج حوله الأساطير وتنسب اليه من الأعمال ما هو منها براء (١٨٣) .

وبصدد علاقته مع المغاربة من موالى الدولة نلاحظ أن الحاكم رغب في إعادة الأمور الى طبيعتها مع قادتهم القائمين فى الخدمة ، فاستمر فى الاعتماد عليهم فى نواحي الجيش والادارة . إلا انه أراد أن يظهر لهم وبأسلوب عملى سريع طريقته فى ائابة المخلصين ومعاقبة المخطئين : فبينما أبقى على قائد القواد الحسين بن جوهر منفردا فى الاشراف على دواوين مصر من خلال منصبه كواسطة ، ولم يمسه بسوء فى أعقاب حملته الانتقامية ، عمل الحاكم على الاطاحة بقاضى قضاته ومتولى دعوته الحسين بن على بن النعمان المغربى حينما ثبت عليه بالدليل القاطع انه استولى على الأموال المودعة فى ديوان القضاء رغم ان الحاكم كان قد اختصه بعطايا منذ أن عهد اليه بمنصب القضاء « وشرط عليه العفة عن أموال الناس » . ولم يكتف الحاكم بعزل الحسين عن كافة مناصبه فى ١٦ رمضان سنة ٣٩٤ هـ (يولية ١٠٠٤ م) ، بل قتله بعد ذلك وأحرق جثته فى ٦ محرم سنة ٣٩٥ هـ (أكتوبر ١٠٠٤ م) فكان « أول قاض أحرق بعد قتله » (١٨٤) . وجعل الحاكم بأمر الله - عوض الحسين فى القضاء - ابن عمه عبد العزيز بن محمد بن النعمان الذى حاول أن يثبت للحاكم مدى اخلاصه فى عمله ، فتشدد فى أحكامه . وكان أول ما بدأ به القاضى عبد العزيز أنه « أوقف جميع الشهود

الذين قبلهم ابن عمه الحسين (١٨٥) . ورفض التستر على مخالفة أحد الكتامين لأمر العدالة وميل الأخير الى الصلف والتكبر حتى انه رفض الحضور الى مجلس القاضى لنظر احدى القضايا المرفوعة ضده وأهان رسول القاضى . فرفع القاضى عبد العزيز هذا الأمر الى الحاكم . ولما كان الوضع الراهن لا يسمح بمثل هذه التجاوزات فقد رد الحاكم على ذلك بأن أمر بإحضار هذا الكتامى « مسحوبا » الى مجلس القاضى بالفسطاط ، حيث ألزم بالتنازل عن كل ما ادعاه خصمه عليه . ثم أمر الحاكم فشهر به في شوارع القاهرة (١٨٦) . كذلك يذكر للقاضى عبد العزيز انه اجتهد قدر طاقته في منع الفتن التى ما فتئت تشهدها شوارع الفسطاط جراء مبالغة بعض غلاة الشيعة فى الاحتفال بالمناسبات الخاصة بالفاطميين . من ذلك انه جمع الأشخاص الموكل اليهم احياء ذكرى العاشر من المحرم (سنة ٣٩٦ هـ / أكتوبر ١٠٠٥ م) وأمرهم بعدم الاعتداء على الأهالى تحت ستار المبالغة فى الاحتفال « وأن من أراد ذلك فعليه بالصحراء .. خوفا من أن يجرى الأمر فيه على ما يجرى كل سنة من تعطيل الأسواق وخروج المنشدين الى الشوارع بالنواح والنشيد » . ثم ان القاضى عبد العزيز لم يكتف بذلك ، بل قبض على رجل خالف هذا التحذير ، وأمر بضرب عنقه على مشهد من الجمهور (١٨٧) . فكان من الطبيعى أن يهدد الحاكم بأمر الله لعبد العزيز بن محمد فى المدة التى قضاها فى منصب القضاء والدعوة حتى « ارتفعت كلمته » . واذن له الحاكم باستخلاف ابنائه فى مشاركته مهام منصبه . فصار ابنه الأكبر القاسم بن عبد العزيز يتصدر مجلس القاضى بالجامع لسماع الأحكام والفصل بين الخصوم ، واختص ابنه الأصغر بالجلوس فى مجلس القضاء الذى بمنزل القاضى عبد العزيز لتسجيل الوثائق القضائية (١٨٨) .

واذا كانت هي السياسة الجديدة التي أتبعها الخليفة الحاكم بأمر الله تجاه عنصر المغاربة في دولته ، فماذا كان رد الفعل المنتظر منهم إزاء ذلك ؟ •

تأثرت أوضاع هؤلاء المغاربة كثيرا بهذه الاجراءات التي اتخذها الحاكم بأمر الله ، بحيث يمكننا القول بأن نفوذهم كطبقة متميزة قد آذن بالانتهاء منذ ذلك الحين ، وساعد على ذلك شعورهم بالخوف إزاء استمرار الحاكم في الايقاع بقادتهم معتمدا على تأييد العناصر الأخرى التي كانت في حالة تنافس مع المغاربة مثل الأتراك والديلمة ، والعبيد السودان . في حين استمر عدم التفاهم قائما داخل فئات المغاربة حتى صار من الصعب التنسيق بين قادتهم من أجل القيام برد فعل حاسم ضد العقوبات التي أنزلها بهم الحاكم •

وقد تأكد هذا الاتجاه فيما بين هؤلاء المغاربة حينما خرج الكتاميون وحدهم - في أعقاب مذبحة سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣/١٠٠٤ م) - إلى باب النصر ورؤوسهم حاسرة لاستدرار عطف الحاكم وعفوه • حقيقة أن باقى الطوائف المغربية حذت حذو الكتامين والتفت حول القصر مع فئات عديدة من المصريين في شهر ربيع الآخر سنة ٣٩٥ هـ (يناير ١٠٠٥ م) مطالبة هي الأخرى بعهود أمان لها ، على نحو ما رأينا ، غير انها لم تضطر إلى فعل ذلك الا بعد أن سرت شائعات بأن الحاكم على وشك القيام بعملية إبادة جماعية لرجال الدولة ، وأنه أعد للأمر عدته من خلال الشؤون التي أمر ببنائها تحت الجبل وتجهيزها بالسنط والبوص والحلفاء (١٨٩) • فكان اتفاق الطوائف المغربية المتعددة فيما بينها - خلال هذه الفترة - انما كان على الأسلوب الذي سيتبعونه من أجل ابتغاء مرضاة الخليفة فقط • أما ما عدا ذلك ،

فقد رايضا طائفة الباطلية تشارك العامة في انتهاب ممتلكات
الحسن بن عمار . حتى الكتامين انفسهم فقد وضع ميل بعض
المعتدلين منهم - مثل جيش ابن الضمصامة - الى مخالفة
ابن عمار .

على أن الوضع الانهزامى الذى أمسى فيه المغاربة من موالى
الدولة خلال الفترة الباقية من عصر الحاكم بأمر الله لم يمنع
طائفة مثل كتامة من اللجوء الى أسلوب المقاطعة السلبية في
التعامل مع الخلافة والتقايس عن نصرتها أثناء الشدائد ،
وبخاصة عندما استفحل أمر الثائر الوليد بن هشام الأموى المعروف
بأبى ركة في ناحية برقة منذ منتصف سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م)
حتى منتصف سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٧ م) (١٩٠) . اذ تشير
الروايات الى عدم جدية الفرقة الكتامية التى كانت ضمن حملة
سيرها الحاكم الى برقة في القتال الذى دار ضد قوات أبى ركة
في شهر شعبان سنة ٣٩٥ هـ (مايو ١٠٠٥ م) . مما دى الى فشل
هذه الحملة ومصرع قائدها التركى ينال الطويل بعد أن وقع في
الأسر (١٩١) . وترتب على ذلك ان تعاظم خطر أبى ركة
وقواته بفضل ما غنموه من أموال وعتاد ، وبدأت سراياه تتردد
على الصعيد وسائر أراضى مصر (١٩٢) . ورغم أن هذه الهزيمة
كان لها وقع شئى في نفس الخليفة الحاكم ، الا انه كان مشغولا
بالاعداد للقضاء على هذا الخطر ، ولم يلتفت لعقاب هؤلاء
المارقين . فضلا عن أن خطته في الايقاع بأبى ركة كانت تعتمد
الى حد كبير في تنفيذها على جهود القيادات المغربية الموجودة في
الجيش . ففي أواخر شهر رمضان سنة ٣٩٥ هـ (يونية
١٠٠٥ م) استدعى الحاكم بأمر الله - من جبهة الشام - القائد
الكتامى على بن جعفر بن فلاح ، وخلع عليه وسيره على رأس فرقة
من الجيش الى ناحية الجيزة وأمره بالمرابطة فيها كخط دفاع

ثان • وقدر لابن فلاح أن يشارك ببعض الأعمال التي أدت الى
ترجيح كفة الخلافة (١٩٣) •

ثم ان الحاكم بأمر الله هوجيء - عقب القضاء على ثورة
أبي ركة في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٧ هـ (فبراير ١٠٠٧ م)
- بانتشار الشائعات التي تفيد بأن الحسين بن جوهر - واسطة
ال خليفة ورئيس جهازه الادارى - وكذا عبد العزيز بن محمد بن
النعمان - قاضى القضاة وداعى الدعاة - كانا على اتصال بالتأثر
أبي ركة (١٩٤) • مما جعل الحاكم يقلب ظهر المجن لهاتين
الشخصيتين المغربيتين ويعمل على الاطاحة بهما ومعاقبتهما بأشد
أنواع العقاب • فهل حقيقة ما حدث ؟ •

يبدو لنا أن الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز بن النعمان
قد راحا ضحية افتراءات كاذبة كادها لهما خصومهما الذين ترجح
أنهم اما كانوا من أصحاب الأخبار الذين استمروا في امداد الحاكم
أولا بأول بتقارير مفصلة عن نشاط سائر موظفى الدولة (١٩٥) •
أو من فريق النصارى الذين أضير زعمائهم من قادة المغاربة
مرتين : الأولى أيام الحسن بن عمار مع عيسى بن نسطورس في
شهر المحرم سنة ٣٨٧ هـ (يناير ٩٩٧ م) • والثانية حينما
قتل فهد بن ابراهيم في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٣ هـ
(ابريل ١٠٠٣ م) ، فقد ترتب على مقتله ان انفرد الحسين بن
جوهر بالاشراف على الدواوين (١٩٦) •

وثمة حقائق تدعونا الى القول بأن الأمر محض افتراء وكذب
على الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز بن النعمان ، منها :

١ - ان هذه الأقاويل تتنافى مع ما شاهدهناه من كل منهما
فور توليه منصبه • اذ من غير المعقول أن يبالغا في عملهما مراعاة

لهيبة الحاكم وخوفا من قدره وانتقامه ، ثم يتورطا في مثل هذا الامر الخطير ، وعلى نحو مكشوف يجلب عليهما غضبه . ثم أن تعاطف الكثيرين من اهل القاهرة والفسطاط معها عند شيوع خبر عزلها (١٩٧) ، لما يدل على انها استمرا نظيفى الايدى الى لحظة القبض عليهما .

٢ - أن اصحاب الاخبار هؤلاء كانوا قد تناولوا على الناس كافة ، وراحوا يفرضون الاتاوات عليهم لئلا يشوا بهم لدى الحاكم . حتى أن الحاكم نفسه « أمر بقتل اصحاب الاخبار عن آخرهم » وذلك في شهر دى الحجة سنة ٣٩٩ هـ (يولية ١٠٠٩ م) (١٩٨) تجنبنا لشروورهم ، وكى لا تزداد الحواجز النفسية بينه وبين سائر الرعية بسبب التقارير الكاذبة التى شرعوا فى تلفيقها .

٣ - أن الحسين بن جوهر أكد للحاكم - فى دفاعه - عن نفسه - أن أبا نصر منصور بن عبدون النصرانى هو المسئول الاول عن ترويج هذه الشائعات . واشترط الحسين لكى يعود الى سابق مكانته فى خدمة الدولة - عندما عرض عليه الخليفة ذلك - أن يبعد ابن عبدون عن منصب الوساطة الذى تولاه فى أعقاب صرف ابن جوهر بقليل . وكان مما قال الحسين : « انى احسنت اليه أيام نظرى ، فسعى بى الى أمير المؤمنين ، ونال منى كل منال ، ولا اعود ابدا وهو وزير » (١٩٩) .

وعلى الرغم مما سبق فقد بدا واضحا أن مروجى الشائعات نجحوا فى الكيد لابن جوهر وابن النعمان ، أو أن الخليفة الحاكم بأمر الله كان على استعداد لتصديق ما قيل عنهما . فلم يجد الحسين وعبد العزيز غير المجاهرة بالعصيان والفرار الى حيث ألهمهما الخصوم ، فكانت وجهتهما أرض البحيرة حيث استقوا

عند عرب بنى قرّة الحلفاء السابقين لأبى ركة (٢٠٠) . أو كما يقال : حتى تكون الميتة على حق !! فزاد ذلك التصرف من جانب الحسين وعبد العزيز في اقناع الحاكم بثبوت التهمة عليهما ، ودفعه بالتالى الى تناسى اخلاصهما في العمل ومبالغتهما في ارضائه . وشرح في الاعداد لقتلهما بأسلوب ملتو قصد من ورائه ايهاهما بأنه لم يضع هذه الأقاويل في اعتباره ، ولا امتصاص حماس أنصارهما من القيادات المغربية كذلك (٢٠١) . وخلال ثلاث سنوات كاملة — منذ أن عزلهما عن مناصبهما في شهرى رجب وشعبان من سنة ٣٩٨ هـ (مارس — ابريل ١٠٠٨ م) — اتبع الحاكم مع الحسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان أسلوب الترغيب والترهيب : فتارة يبالغ في الانعام عليهما وعلى أفراد أسرتهما ويصدر سجلات بالأمان لهما ، وتارة أخرى يأمرهما بأن يلزما داريهما أو يعتقلهما ويصادر أموالهما ، ثم يفرج عنهما ، وهكذا حتى قتلها دفعة واحدة في ١٢ جمادى الآخرة سنة ٤٠١ هـ (يناير ١٠١١ م) (٢٠٢) .

ويلاحظ أن حادثة مقتل الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز ابن النعمان قد مرت بغير تعقيب من أحد المغاربة ، الأمر الذى يؤكد أن الحاكم قد نجح في تقليم أطرافهم الى درجة يمكن القول معها بأنهم صاروا — منذ ذلك الحين — تماما مثل اية طائفة أخرى استحدثتها خلفاء مصر الفواطم في دولتهم . وساعد على تحقيق ذلك ما اتخذته الحاكم من اجراءات خلال شهر ربيع الأول من سنة ٤٠٣ هـ (سبتمبر/اكتوبر ١٠١٣ م) لاعادة تنظيم العناصر التى احتوتها دولته ، بشكل يحقق المساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات .

ففى اليوم التاسع عشر من هذا الشهر ، استدعى الحاكم بأمر الله الحسين بن طاهر الوزان (٢٠٣) ، وعرض عليه منصب

الوساطة . فأجاب الحسين بن الوزان بشرط أن يوافق أولا على طلبه الخاص بإعادة تنظيم طوائف الجند في الدولة ، بحيث يصير لكل طائفة ديوان خاص بها ، ويتولى النظر في هذه الدواوين أئمة منهم - أي مشرفين من داخل كل طائفة - ثم يكون عمل الحسين بن طاهر هو الاشراف على هؤلاء الأئمة (٢٠٤) ، بواقع يوم معين لكل طائفة . أو كما قال المقرئ : « أن يكون لكل قبيل من طوائف العسكر زمام عليهم ، يرجعون اليه . ويكون نظره (أي الحسين) على الأئمة . فيجعل لكل طائفة يوما ينظر في أمورهم وخاصة زمامهم فقط » (٢٠٥) . وقد وافق الحاكم على هذا الأسلوب لأنه يكفل للدولة مراقبة الطوائف من خلال أئمتها أو المشرفين عليها ، وخلع على الحسين بن طاهر واتخذ واسطة ولقبه بأمين الأمناء . ولا يخفى علينا أن الهدف الحقيقي من وراء هذا التنظيم كان يتمثل في رغبة الدولة في احكام سيطرتها على الطوائف جميعها عن طريق تفتيت وخذتها ، فلا يصير مثلا للفرق المغربية زعيما واحدا يجتمعون تحت امرته حتى لا يؤدي ذلك الى سهولة استبداده مثلما حدث مع الحسن بن عمار .

وكان من الطبيعي بالنسبة لطائفة مثل كتامة ان يكون زمامها في ظل هذا النظام الجديد هو ابو الحسن على بن جعفر بن فلاح الذي اتخذه الحاكم مقدما على جميع الكتامين ، منذ اليوم الثاني من ذات الشهر (ربيع الاول ٤٠٣ هـ / سبتمبر ١٠١٢ م) وخلع عليه ولقبه بقطب الدولة وجعل له « النظر في أحوالهم والسفارة بينهم وبين أمير المؤمنين » (٢٠٦) . فكان الحاكم بأمر الله قد بادى بتطبيق هذا الأسلوب مع الكتامين وحدهم ، ثم جاء الحسين بن طاهر الوزان وطلب تعميم هذه الفكرة بين سائر الطوائف ، واشترط أن يؤول اليه الاشراف على الجميع - اذ انه - أي الحسين - كره

إن يتولى الوساطة في الدولة وشئون الكتامين محبوبة عنه إلى
 علي بن جعفر بن فلاح . . وكانت موافقة الحاكم بأمر الله على ذلك
 متمشية مع رغبته في تحقيق التوازن بين جميع الطوائف ، على
 أساس أن اختصاص الخليفة بمتابعة شئون فريق بداته من
 شأنه أن يخل بهذه القاعدة . ومن أجل تحقيق المزيد من الانضباط
 في تطبيق هذه القاعدة ، أصدر الحاكم في شهر رمضان سنة ٤٠٥ هـ
 (مارس ١٠١٥ م) قرارا « بأن يكون ما يرفعه الناس من حوائجهم
 في ثلاثة أيام : يوم السبت للكتامين والمغاربة ، ويوم الاثنين
 للمشاركة ، ويوم الخميس لسائر الناس كافة ، وأن يتجنبوا لقاء
 أمير المؤمنين ليلا ونهارا بالرقاع (بمعنى أن ترفع هذه الحوائج
 إلى جهة الاختصاص أولا) وما استصعب من ذلك ينتهي إلى أمير
 المؤمنين » (٢٠٧) . ولهذا لم يكن غريبا أن نرى فئات المغاربة
 وقد تواضع بهم الحال لدرجة أنهم شاركوا الأتراك في مدافعة شرور
 العبيد السودان وعيشتهم الفساد في أنحاء مدينة الفسطاط
 خلال سنة ٤١٠ هـ (١٠١٩ م) الأمر الذي أدى إلى الاقتتال بين
 الجانبين واندلاع الحرائق في بعض نواحي المدينة . فاضطر الحاكم
 إلى التدخل لفض الاشتباكات وأمر بإبعاد العبيد عن
 الفسطاط (٢٠٨) . ومعنى ذلك أنهم لم تعد لهم القدرة على حسم
 المواقف بمفردهم . . .

وآخر أطمئنان الحاكم بأمر الله إلى نجاح سياسته تلك مع
 المغاربة من موالى الدولة ، عاد من جديد إلى الاعتماد على شخصيات
 منهم في النهوض بأمور البلاد فعهد إلى أبي الحسن علي بن
 جعفر بن فلاح الكتامي بالإشراف على دواوين الحكم من خلال منصب
 الوساطة ، وذلك في أوائل سنة ٤٠٦ هـ (منتصف)
 (١٠١٥ م) (٢٠٩) . ويلاحظ أن اختصاص علي بن جعفر - دون
 غيره من قادة المغاربة - بهذا المنصب إنما كان يسر وفق قاعدة
 الشواب والعقاب التي اتبعها الحاكم معهم ، في أعقاب مذبحة

سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣/١٠٠٤ م) . اذ كان ذلك مكافأة لابن فلاح على جهوده في خدمة الدولة والوقوف ضد المعارضين لها في مصر والشام : فالى جانب مشاركته في القضاء على ثورة ابي ركة ، قام ابن فلاح بجهود رئيسية في القضاء على فتنة امير طيء حسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح بمدينة الرملة ، حتى اخمدتها في سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣/١٠١٤ م) (٢١٠) . ولم يكتف الحاكم بتنصيب ابن فلاح واسطة له بل سعى في تكريمه على نحو زائد : فعاده في داره اثناء مرضه وحمل اليه هدايا جمة ، وفعل نفس الشيء في وقت لاحق . ومع حلول سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) زاد الحاكم في اختصاصات ابن فلاح وخلع عليه لقب « وزير » . بعد ان كان مجرد واسطة فصار لقبه « وزير الوزراء ، ذو الرياستين الامر ، المظفر ، قطب الدولة » . مما جعله يوصف بأنه « كان اوجه الامراء في الدولة الحاكمة » (٢١١) . ورغم هذا فقد بات واضحا عدم استعداد الحاكم بامر الله للتخلي عن سياسته المتشددة مع بعضهم الآخر ، الامر الذي اشترك في ادراكه قادة المغاربة جميعا ودون استثناء . غير ان ردود اعمالهم اختلفت ارائه :

فبينما فر بعضهم من وجه الحاكم ، مثل ابن الدابقية (٢١٢) . لجأ البعض الآخر الى أسلوب المداينة معه مثل الوزير ابن فلاح الذي اغرق نفسه في العمل محاولات اثبات حسن ولائه في مختلف المناسبات ، فحينما تساءل الحاكم في أحد مجالسه عن فرار ابن الدابقية وقال بتهكم للحاضرين : « متى تهربون ؟ » . اجاب ابن فلاح على الفور بلباقة تحسب له : « يا امير المؤمنين يهرب اليك لا عنك » (٢١٣) . في حين دفع الخوف والحذر من الاغتيال الفجائي بفريق ثالث من قادة المغاربة الى الامتناع عن الحضور الى القصر ، وان اقتضت الضرورة قبكامل سبلاتهم . وقد عبر هذا الاتجاه الأخير أحد قادة كتامة ، ويدعى سيف الدولة

ذو المجدين حسين بن علي بن دواس ، الذي نرجح انه خلف ابن
فلاح في الاشراف على ديوان الكتامين ، لانشغال الأخير بأمور
الوزارة . وذلك تعليلا لوصف ابن الأثير له بأنه كان « قائد
كبير من قواد الحاكم » (٢١٤) . فكان هذا القائد لا يرتاد القصر
أو يغشى المواكب الرسمية « حذرا على نفسه » (٢١٥) . ثم انه
حضر الى القصر ذات يوم ، وهو على ظهر فرسه ، بعد أن أصر
الحاكم على استدعائه ، وعندما عتب عليه الحاكم تأخره ،
صارحه ابن دواس بأنه خدم الدولة منذ عهد قديم وله حقوق يجب
أن تراعى وأن سلامته تقتضى منه أن يحترز قليلا ويتحفظ من مثل
هذه الدعوات المفاجئة ، وانه يفضل أن يبقى في بيته بين أهله
وعبيده مستور الحال . وأوضح الأمر للحاكم قائلا : « ... وقد
قام في نفسي أنك قاتلى ، فانا مجتهد في دفعك بغاية جهدى . وليس
لك حاجة الى حضوري في قصرك . فان كان باطن رأيك مثل
ظاهره فدعنى على حالى ، فانه لا ضرر عليك في تأخرى عن
الحضور الى قصرك . وان كنت تريد بى سوءا ، فلئن تقتلنى
في دارى بين أهلى وولدى يكفوننى أحب الى من أن تقتلنى في قصرك
وتطرحنى تاكل الكلاب من لحمى » . فلم يعلق الحاكم على
هذا الجواب ، فقط تبسم متعجبا من جرأة ابن دواس
وصراحته (٢١٦) .

وهذا يعنى أن الفترة الأخيرة من خلافة الحاكم بأمر الله
قد شابها الكثير من التوتر في العلاقات بينه وبين المغاربة القائمين
في الخدمة . ولم لا ، وهى تعد حصاد ما سبق من مواقف حاسمة
تخللت عصر الحاكم منذ بدايته . ومما زاد في حدة ايقاعاتها أن
أوجه أمراء الدولة الحاكمة — وهو وزير الوزراء على بن جعفر بن
فلاح — قد لقي مصرعه نتيجة حادث غريب وقع له في آخر شهر
شوال سنة ٤٠٩ هـ (فبراير ١٠١٩ م) . عندما ترصد له فارسبان

متنكران في أحد شوارع القاهرة ، ورماء أحدهما برمح فجرحه وألجأه إلى الرجوع إلى بيته حيث بقي فترة يسيرة ، توفي على أثرها متأثراً بجراحه . أما القاتلان ففرا ولم يعثر لهما على أثر (٢١٧) . وقد دفع الغموض الذي اكتنف الحادث بأحد المؤرخين لتأكيد أن الخليفة الحاكم كان وراء تدبيره . وذكر أن الدافع وراء هذه الجريمة يرجع إلى أن الحاكم « لم يطمئن إليه بسبب علو مقامه » (٢١٨) . ورغم ضعف هذا السند ، على أساس أن ابن فلاح لم تنسب إليه شبهة ما ، كما أن الحاكم - الذي كان سبباً في إعلاء شأن ابن فلاح - لم يكن مضطراً لاستعمال أسلوب القتل معه ، ورغم هذا فإن ظروف عدم الثقة المتبادلة بين الطرفين تجعلنا نميل إلى هذا الرأي . وذلك أمر كان له أكبر الأثر في نفوس باقي المغاربة - من موالى الدولة - الذين أدركوا أنه لا الفرار من وجه الحاكم ولا مهادنته قد كفلا لهم الأمان من بطشه ، وبات أمهم معقوداً على الوسيلة الثالثة التي عبر عنها سيف الدولة ابن دواس - أثناء حواره الفاضب مع الحاكم - بقوله : « وأنا مجتهد في دفعك بغاية جهدي » . وهذا في حد ذاته يعني أن محاولة جديدة لدفع هذا الاضطهاد على وشك أن تتم ، حتى لو أدت إلى التآمر على حياة الخليفة . وهذا بالفعل ما حدث في ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ (فبراير ١٠٢١ م) ، عندما فقد الحاكم بأمر الله أثناء إحدى جولاته التي اعتاد القيام بها في جبل المقطم مع حلول الظلام . وقد أجمعت الروايات على أن الحاكم راح ضحية مؤامرة دبرتها سبت الملك - أخت الخليفة - بالاشتراك مع سيف الدولة الحسين بن دواس زعيم الكتامين وناظر ديوانهم (٢١٩) .

فقد حققت سبت الملك على أخيها التضييق عليها بهدف الحد من تدخلها في شؤون الحكم واهتمامها بالسياسة ، وقيل

انه اتهمها في أخلاقها وبنائها تسمح ببذل نفسها الى الرجال حتى
انه قرر عرضها على القابلة للتثبت من عذريتها . وبادرت بالاتصال
بابن دواس الذي وطن نفسه على كره الحاكم « لانه (اى
الحاكم) رام قتله دفعات » ، ووصل الأمر بابن دواس الى انه
اعتصم مع نفر من أصحابه بداره ، واستعدوا بالسلاح للدفاع
عن أنفسهم اذا ما فكر الحاكم في أخذهم قسرا (٢٢٠) . وخلال
الحديث الذى دار بين ست الملك وابن دواس اتفقا على أن يعهد
الأخير الى نفر من أتباعه المخلصين بقتل الحاكم أثناء خروجه الى
الجبل . ومن الطريف ما أشار اليه ابن تغرى بردى من أن ست
الملك أعطت الرجلين الدين تم اختيارهما لهذه المهمة « سكينين
من عمل المغاربة ، تسمى الواحدة منهما يافورت ، ولها رأس
كراس الموضع الذى يفصد به الحجام » (٢٢١) . وقد تمت الخطة
وفق الترتيب السابق ، ولم يرجع الحاكم بأمر الله من جولته هذه
الليلة . ورغم أن دوريات البحث - التى خرجت لاقتفاء أثره - لم
تعثر على جثة الحاكم ، الا انهم استدلوا على مقتله من دابته
التى وجدوها مقطوعة اليدين وثيابه المخضبة بالدماء وآثار الطعنت
واضحة فيها (٢٢٢) .

والحق ان وقوع قصة التآمر هذه بين ردهات القصر
الفاطمى ، واضطلاع افراد من الأسرة الفاطمية بها ، لما يبرز حقيقة
هامة تتلخص فى أن قادة الفرق المغربية - حتى الفئات الأكثر
استعدادا للثورة منهم ، وهم الكتاميون - قد افتقدوا روح المبادأة
التى اشتهروا بها فى المطالبة بحقوقهم أو دفع الظلم الواقع بهم ،
على العكس مما رأيناه منهم أيام الحسن بن عمار . أو بمعنى
آخر : صار المغاربة - من موالى الدولة - تماما مثل الطوائف
الأخرى المستحدثة فى الخدمة (المشارقة والسودان) بمثابة
أدوات لتنفيذ رغبات أفراد البيت الفاطمى ، حتى فى الأمور التى
يجب تنفيذها - وفقا للمنهج الذى وضعه الحسن بن عمار - من

صرورات تأمين الوجود المغربى فى كيان الدولة الفاطمية فى مصر .
 فكان ابن دواس ، رغم حدة مزاجه وتقبله سياسة الحاكم بأمر الله
 معه بشكل اظهره فى صورة الزعيم الثائر بين صفوف المغاربة ،
 وميزه دون غيره كى تختاره ست الملك للتخلص من الخليفة ،
 (فكانه) لم يكن ليجرؤ على ما اقدم عليه بغير تشجيع من أخت
 الخليفة له ومكاشفته له فى هذا الأمر ، وتعهدا له بأن يصبح
 المتصرف الأول فى شئون الدولة ، ان هو نجح فى مهمته (٢٢٣) .
 وهذا التحول الخطير فى وضع هؤلاء المغاربة يدل على مدى نجاح
 الحاكم بأمر الله وسياسته فى كبح جماح قاداتهم والحد من
 تطبع بعضهم نحو الاستبداد . ومما زاد فى تثبيت هذا الاطار
 الضيق الذى فرض على هؤلاء المغاربة أن عدم التفاهم فيما بينهم
 استمر قائما بشكل جعل حركة ابن دواس الكتامى تبدو وكأنها
 حركة فردية . وقد وضع هذا عندما سمعت ست الملك فى التخلص
 من ابن دواس وأعوانه الذين قتلوا الحاكم ، بعد أن ضمننت استقرار
 الأمور لابن أخيها أبى الحسن على بن الحاكم ، الذى تولى الخلافة
 عقب مصرع أبيه ، وتلقب بالظاهر لاعزاز دين الله (٤١١ هـ -
 ٤٢٧ هـ / ١٠٢١ - ١٠٣٦ م) . فرغم أن ست الملك دبرت مقتل
 الحسين بن دواس على مرأى ومسمع من قادة الدولة جميعاً ،
 واستمرت جثته ملقاة على الأرض ثلاثة أيام حتى دفنه عبيده ،
 ولم تكتف بذلك بل أمرت مناديا ينادى فى الطرقات بأن « هذا
 جزاء من غدو مواليه » ، ثم أمرت بمصادرة أمواله وسائر
 ممتلكاته ، ورغم هذا كله « فلم يعترض فيه (أى فى حادث مصرع
 الحسين) معترض » (٢٢٤) .

ومن الملاحظ أن هذا الصمت - من جانب قادة الفرق
 المغربية ، حتى الكتامين - الذى كان دلالة على اهتزاز وضعيتهم
 فى الدولة آنذاك ، قد طال بحيث شمل فترة حكم الخليفة الظاهر

كلها ، نتيجة سياسة تقديم العبيد والمشاركة على حساب المغاربة .
وهو ما اتفق عليه القائلون على شئون الخلافة في عصر الظاهر .
ويكفى أن نعرف أن التي تولت تدبير أمور الدولة في مطلع حكم هذا
ال خليفة — لصغر سنه — هي السيدة الشريفة ست الملك صاحبة
الفضل في مأساة ابن دواس الكتامي . فقد صارت تتحكم في كل شيء
بحيث « لا ينفذ أمر جل أو قل الا بتوقيع يخرج عنها » ، حتى توفيت
أوائل سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤ م) وقد « عظمت هيبتها في نفوس الأبعد
والأقارب » (٢٢٥) . وأثر وفاتها سيطر على الدولة أربعة
أشخاص يتضح من أنسابهم أنهم ليسوا مغاربة (٢٢٦) ، حتى
استطاع أحدهم — وهو أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي — أن
ينفرد بالسلطة ، عندما أصبح وزيرا للخليفة الظاهر في شهر
ذي الحجة من سنة ٤١٨ هـ (يناير ١٠٢٧ م) (٢٢٧) . وقد أورد
المسبحي — أحد مؤرخي مصر الفاطمية المعاصرين لهذه الفترة —
أمثلة عديدة على تدهور أوضاع هؤلاء المغاربة في صفحات عديدة
من يومياته (٢٢٨) .

فمنذ البداية نجد إشارة هامة الى قيام أحد موظفي
الدولة — وكان يدعى أبا القاسم المرتجى المشرف على ديوان
الخارج — باختلاس مبلغ خمسة عشر ألف دينار من ديوان الكتاميين
وحده . ورغم ضخامة هذا المبلغ فإن أمره لم يفتضح الا على يد
أحد كتبة الديوان وحتى في ذلك فقد اكتفى بتنحية
أبي القاسم عن منصبه وعهد به الى ذلك الكاتب . وقد تمت هذه
الواقعة في يوم الثلاثاء الموافق ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٤١٤ هـ
(سبتمبر ١٠٢٣ م) (٢٢٩) . والأهم من ذلك أن ديوان الكتاميين
خضع لإشراف أشخاص ليسوا كتاميين ، أو حتى من باقي طوائف
المغاربة . فتشير الروايات الى أن مباشرة أمور هذا الديوان قد

انتقلت في يوم الثلاثاء ٢٣ صفر سنة ٤١٥ هـ (ابريل ١٠٢٤ م) ،
من يد الأمير شمس الملك مسعود بن طاهر الوزان - أخى الحسين
ابن طاهر واسطة الخليفة الحاكم - وجعلت في يد القائد
عز الدولة أبى الفوارس معضاد الخادم ، أحد الأربعة الكبار
الذين سيطروا على الادارة في عصر الظاهر (٢٣٠) . وقد استخدم
القائد معضاد في تدبير أموال هذا الديوان صنائع له ، أمثال :
أبى اليسر اصطفن - أو اصطخر - بن مينا الأسيوطى ، وصدقة بن
يوسف الفلاحى اليهودى ، وصاعد بن مسعود (٢٣١) . وقد
تمت هذه الاجراءات دونما اعتراض من الكتاميين ، رغم أنها من
صميم اختصاصاتهم .

وليت الأمر اقتصر على ذلك ، فقد خضعت القيادات المغربية
التي سمحت لها الظروف بتولى بعض المناصب الهامة في الدولة
لاشراف عناصر أخرى من طبقة العبيد السودان ، فيشير
المقرئزى الى أنه في يوم الخميس الموافق ٤ رجب سنة ٤١٥ هـ
(سبتمبر ١٠٢٤ م) تم تعيين بقى الخادم الأسود وأحد أتباع
القائد السودانى بدر الدولة نافذ في منصب الشرطتين العليا
والسفلى (أشرطة القاهرة والفسطاط) ، وكذا في منصب
الحسبة (٢٣٢) . وبالنظر الى من كان يشغل هذه المناصب من
الشخصيات الكتامية ومدى كفاءة كل منهم يتضح لنا أن هذا القرار
قد جانبه الصواب :

فمنصب الحسبة : كان قد تولاه دواس بن يعقوب الكتامى
قبل ذلك بعام (وبالتحديد منذ يوم الأحد ٥ رجب سنة ٤١٤ هـ/
سبتمبر ١٠٢٣ م) وظهرت كفاءته في ضبط المتلاعبين بالأسعار
من طوائف الخبازين وبائعى الدقيق والطحانيين الذين حاولوا
استغلال الأزمة الاقتصادية التي كانت تمر بها البلاد آنذاك .

مما ترتب عليه ان « ظهرت الأخباز ، واستقامت أحوال الناس » (٢٣٣) . ويتضح مدى الخطأ في تنحية دواس بن يعقوب عن الحسبة عندما نلاحظ أن بقى الخادم كان مفقدا لما لسلفه من لباقة وحزم في التعامل مع هؤلاء الحرفيين ، مما أدى الى أن « غلقت الطواحين والحوانيت جميعها ، وأصبح البلد في يوم الجمعة خامسه (أى خامس شهر رجب ٤١٥ هـ) على حال صعبة من تعذر الأخباز وعدم الدقيق » . فاتبعت الأنظار من جديد نحو ابن يعقوب الكتامى ليلى منصب الحسبة من جديد ، وتم استبعاد بقى الخادم عن هذا المنصب في يوم السبت السادس من ذات الشهر ، بعد أن « أقام يوما واحدا » (٢٣٤) .

وبدلا من أن يثير هذا التصرف سخط دواس بن يعقوب على الدولة ، نجده قد استمر على الطاعة والاخلاص في عمله ، مما ساعد على أن يتمهد له الأمر في منصب الحسبة حتى انه سمح له باستخلاف نصر بن أبى نصر الكتامى - زوج ابنته - في الاشراف على الحسبة (٢٣٥) . ويبدو أن القائمين على الحكم قد ائتمسوا الى طاعة ابن يعقوب وكفاءته وحزمه فعهدوا اليه بالاشراف على ديوان العرائف - وهو الديوان الذى ينتظم فيه مقدمو طوائف الدولة أو عرفاؤهم - وذلك في أواخر سنة ٤١٥ هـ (أوائل سنة ١٠٢٥ م) (٢٣٦) . ورغم خطورة المسؤولية التى أقيمت على عاتق ابن يعقوب الا أننا نلاحظ أن المعوقات التى حالت دون قيامه بمهام منصبه الجديد - على خير وجه - كانت أكبر . ففي يوم السبت ١٢ ذى الحجة سنة ٤١٥ هـ (فبراير ١٠٢٥ م) قسام العبيد السودان بعمليات نهب واسعة النطاق فى بعض نواحي الصعيد الأدنى - أو إقليم مصر الوسطى - وكانت من الخطورة بحيث « خصل لرجل واحد (منهم) تسعمائة رأس من البقر وثلاثة آلاف رأس من الضأن » (٢٣٧) . وعندما رفع دواس

ابن يعقوب الخبر الى الجهات العليا ، فوجيء برد القائد معضاد الخادم أن ذلك « متقبل من عبيد مولانا » . فآثر ابن يعقوب السكوت « ولم يجبه خوفا من سطوته » (٢٣٨) . ويعلق المسبحي على ذلك قائلا : « وكان في هذا الجواب ما فيه من فساد الأحوال واطماع العبيد في النهب » (٢٣٩) .

وبالنسبة لمنصب الشرطة : فقد كان شافي الدولة (أو سامي الدولة) أبو طاهر بن كافي الكتامي — متولى شرطة الفسطاط — مثالا للعامل المجتهد المخلص في عمله (٢٤٠) حتى احتيج لجهوده من أجل ضبط الأمن بمدينة تنيس ودمياط اللتين سار اليهما في شهر جمادى الأولى سنة ٤١٥ هـ (يولية ١٠٢٤ م) (٢٤١) . ومع ذلك فثمة إشارة تفيد أن وجوده في منصب شرطة الفسطاط انما كان من قبل بدر الدولة نافذ الخادم ، ومخدوم بقى الأسود (٢٤٢) . ويبدو أن الدولة كانت في حاجة الى جهود أفراد من أسرة ابن كافي الكتامين (٢٤٣) من أجل ضبط الأمن في العاصمة بعد خروج أبي طاهر الى مدينتي تنيس ودمياط الأمر الذي جعل بدر الدولة نافذ يستخلف جلال الدولة ابن كافي — أخا أبي طاهر — على الشرطتين العليا والسفلى معا ، فور خروج أخيه مباشرة (٢٤٤) .

فلما صدر قرار تولية بقى الخادم على الشرطتين — الى جانب الحسبة والذي صدر في ٤ رجب سنة ٤١٥ هـ — كان ذلك بمثابة اجحاف بجلال الدولة ابن كافي ، الذي يبدو انه أثبت كفاءة خلال الشهرين اللذين تولى فيهما هذا المنصب ، ولذا فضيل بدر الدولة نافذ اعادته مرة أخرى على الشرطتين . وذلك بعد أن ثبت فشل غلامه بقى في ضبط الأمن بالعاصمة ، كما فشل من قبل في النهوض بأعباء منصب الحسبة .

ومن العجيب أن جلال الدولة ابن كافى لم يفضب من هذا
الاجراء - تماما مثل دواس بن يعقوب المحتسب - واستمر على
طاعته واخلاصه فى مباشرة عمله . والذى وصل فيه الى درجة
من الاتقان جعلته يكشف عن سر مصرع أحد التجار المقيمين بمدينة
الفسطاط - وكان يدعى أبا الحسن السوسنجرى - وخادمه ،
فى نفس اليوم الذى وجد فيه مذبحين (الأحد مستهل ذى القعدة
سنة ٤١٥ هـ / يناير ١٠٢٥ م) (٢٤٥) . ونلاحظ أنه بعد أن تم لابن
كافى التوصل الى معرفة القتل ، وكانوا جماعة من اللصوص ،
وتمكن من القبض على أحدهم ، « استأذن فى ضرب رقبتة . فأمر
بذلك . فضربت رقبتة » (٢٤٦) . مما يدل على طاعة جلال الدولة
وحرصه على استطلاع رأى الدولة فى مثل هذه الأمور ، حتى
لا ينسب اليه أنه انفرد باتخاذ القرار . والذى يدعو للدهشة أنه
على الرغم من كل ذلك ، فإن التكريم فى كافة المناسبات كان من
نصيب بدر الدولة نافذ الخادم ، الذى كان يظهر اثناء الاحتفالات
الرسمية متكئا على « مرتبة ديباج ملكى ، وابن كافى قائما بين
يديه » (٢٤٧) .

وربما كانت هذه الطاعة ، وذاك الاخلاص من جانب هذه
القيادات الكتامية - مع ما لهذه العصبية من أهمية خاصة فى حماية
الدولة والنظام - دافعا للقائمين على الحكم فى عصر الظاهر على
الاستمرار فى الاعتماد على شخصيات كتامية فى مجال الادارة
المحلية وحكم الولايات . خاصة فى جبهة الشام الذى كان يعانى من
قلاقل واضطرابات سادته خلال هذه الفترة ، وكان مبعثها القبائل
العربية المقيمة هناك من فروع طيء وكلب وكلاب ، وكذا
الروم (٢٤٨) . بيد أننا نلاحظ أن المقصد من وراء هذه التعيينات ،
الى جانب الاستفادة من جهود الكتاميين ذوى العصبية القوية فى
تأمين الوجود الفاطمى فى الشام ، أن يتم استبعاد هذه العناصر

خارج العاصمة ، بل مصر ، تجنباً لاية قلاقل قد تصدر عنهم .
والدليل على ذلك أن الطوائف المغربية الأخرى مثل الباطلية والبرقية
وغيرهم ، قد أبقي عليهم في العاصمة وضواحيها . وقدموا يد
العون لمساعدة الدولة خلال الأزمات التي واجهتها آنذاك ، مثل
فتنة الشائر المعروف بالخارجي في الصعيد الأعلى ، إذ كان من بين
جنود الحملة التي سارت لأخضاعه في شهر المحرم سنة ٤١٥ هـ
(مارس ١٠٢٤ م) عناصر من البرقيين والباطلية وغيرهم (٢٤٩) .

وعلى أية حال فإن وجود شخصيات كتمانية في الخدمة لهم
يمنع من تردى الحال بجماعات المغاربة — بما فيهم الكتاميين أيضاً —
في مصر خلال عصر الظاهر لأعزاز دين الله . ووصل الأمر بهم
إلى درجة كبيرة من الشؤم بسبب تأخر صرف مستحققاتهم المالية ،
أو أنها لقلتها لم تعد توفر لهم سبل العيش الكريم . حتى أنهم
اضطروا في بعض المناسبات لأن يتقدموا بشكواهم إلى الخليفة
الظاهر آمليين أن يتدخل شخصياً في حل مشاكلهم . فعندما جلس
الظاهر في قصره — يوم الأحد ٥ شعبان سنة ٤١٥ هـ (أكتوبر
١٠٢٤ م) — ودخل الناس للسلام عليه انبرى الكتاميون في شرح
أحوالهم الاجتماعية السيئة ، وتولى الحديث نيابة عنهم شيخهم
المدعو أبو عيسى بلايان بن عساس بن ينوط الكتامي (٢٥٠) وجلال
الدولة ابن كافي المستخلف على الشرطتين . وقد أوضح ابن ينوط
كيف أن الكتاميين — والمغاربة جميعاً — صاروا على وشك الهلاك
بسبب الجوع والفقر وأنه « ليس لواحد منا حال يرجع إليها » ،
وأنهم إذا استمروا على ذلك فلن يستطيعوا القيام بواجباتهم
لصالح الدولة والانتصار لها عند الشدائد . وربما قصد ابن ينوط
أن يبالغ في حديثه لعله يلفت الأنظار إلى جدية شكواه ، ومع ذلك
فإنه لم يجب إلى طلبه (٢٥١) . فقط ، وعندما ألح ظروف الشتاء
على إدارة الظاهر أن تلجأ للكتاميين ، أعلن القائد عز الدولة

معضاد الخادم الأسود في ٢٩ شعبان ، السنة (نوفمبر) ، عن عزم الخلافة على استدعاء الكتاميين والاتراك وسائر الجند لاعدادهم بالسلاح اللازم . فكان رد الكتاميين على هذا : « قد شغلنا الجوع وطلب الخبز عن هذا » (٢٥٢) . وتلا ذلك محاولة أخرى لجذب انتباه الخليفة الظاهر الى سوء أوضاع المضاربة ، قام بها أبو عبد الله محمد بن جيش بن الصمصامة الكتامي ، الذي تدهور حاله بعد أن عاش منعما بالأموال التي كان أبوه جيش قد أوصى بأن تؤول الى الخليفة الحاكم بأمر الله ، وامتنع الحاكم عن قبولها . فقد تمكن أبو عبد الله محمد من دخول القصر في يوم الأحد ١٥ ذي القعدة سنة ٤١٥ هـ (يناير ١٠٢٥ م) وشهرع في شكاية سوء حاله الى الخليفة الظاهر . ورغم أن أبا عبد الله كان قد استحوذ على عطف حراس القصر وخدامه بعد أن ظهر في هيئة رثة ، وقال بعضهم لبعض : « رجل كانت الله عليه نعمة ، دعوه يتسال أمير المؤمنين ، فعسى الله أن يرزقه » ، ورغم ذلك فإن مصاولته باعت بالفشل ، على العكس عومل معاملة مهينة ، فضرب وأمر بحبسه في سجن دار الشرطة بالفسطاط ، بعد أن خانه شعوره ولم يتمالك أعصابه فاندفع في توجيه السباب للخليفة الظاهر وعلا صوته بأقبح الشتائم . وقد عز على جلال الدولة بن كافي - متولى الشرطة حينئذ - أن يعامل رفيقه ابن الصمصامة هذه المعاملة السيئة . فلم يضعه في زنزانة الحبس ، بل جعل له مكانا في مجلسه بدار الشرطة طيلة إقامته بالحبس . ثم سعى في العفو عنه لدى الخليفة الظاهر الذي أجاب وأمر بإطلاق سراح ابن الصمصامة بعد يومين من اعتقاله « لسالف حرمة أبيه » (٢٥٣) .

وامام استمرار الادارة الفاطمية في تجاهل الزد على مطالب الكتاميين أصر الاخيريون على التقاعس عن نصرة الخلافة أثناء الأزمات الداخلية التي واجهتها . مثلما حدث في يسوم الاثنين

الموافق ٢١ ذى الحجة سنة ٤١٥هـ (فبراير ١٠٢٥م) عندما تعرضت بعض نواحي الجيزة مثل سبط ونهيا لاغارات عرب بنى قرة . ووصل الأمر الى انهم قتلوا قاضى سبط وتعرضوا لممتلكات بعض الشخصيات الهامة التى بتلك النواحي . اذ عندما بدأت الاستعدادات فى اليوم التالى لاجراء حملة لتأديب المشاغبين وجرى الأمر باستدعاء بعض فرسان كتامة للاشتراك فيها ، اعتذر شيوخ كتامة بأن « ليس لهم دواب ، وانه أى شىء انفق فيهم ضاع (لشدة حاجتهم) ، وسألوا ان يحملوا وتزاح عليهم فيها ينفق فيهم » (٢٥٤) . وقد يبدو للذهان ان الكتاميين اعتذروا - هذه المرة - من مقدرة وانهم بخلوا بجهودهم ، ولكنهم فى الحقيقة كانوا صادقين لسبب بسيط هو انه كانت لدى البعض منهم ممتلكات فى تلك النواحي التى تعرضت لاغارات بنى قرة ، وقد راحت هذه الممتلكات أيضا ضحية الاعتداء (٢٥٥) . ومن غير المعقول ان يتقاعسوا عن الانضمام لحملة التأديب بغير سبب اجتماعى دعاهم لذلك واعداد منهم قد اضررت اثناء هذه الحادثة . وجدير بالذكر ان اعتذار الكتاميين عن الاشتراك فى حملة التأديب سالف الذكر كان سببا فى الغاء فكرة تكوينها ، واثار بالتالى استياء قيادة الدولة الذين طالبوا الكتاميين بهذا المطلب . ويصور المسبحى الحالة التى انفض عليها الاجتماع قائلا : « . . . فنهض الجماعة الى القصر المعمور ، وانصرفوا من المضرب (الخيمة) اقبح منصرف ، ونزعت الخيمة المضروبة لهم عقب انصرفهم ، وكان يوما قبيحا » (٢٥٦) . مما يدل على ان وضع المغاربة عامة - والكتاميين خاصة - ظل على نفس أهميته فى الدولة ، رغم انهم لم يعودوا بنفس المستوى الذى كانوا عليه أيام الخلفاء الفاطميين الثلاثة الأول .

وخلاصة القول ان أوضاع المغاربة من موالى الدولة استمرت على هذا النحو المتدهور دون ان يطرأ عليها تغير ملحوظ خلال

الفترة المتبقية من عصر الظاهر لإعزاز دين الله ، سيما أن الاتجاه السياسي لم يعد في صالحهم . ويكفى الإشارة إلى أنه في الوقت الذي تراخت فيه إدارة الظاهر عن معاقبة العبيد الذين أثناعوا الذهب والسلب في نواحي مصر الوسطى (في ١٢ ذى الحجة سنة ٤١٥ هـ / فبراير ١٠٢٥ م) كما سبق القول ، حدث أن شهد ذات الشهر إجراءات تأديبية علنية لشيوخ كتامة الذين طولبوا بتسليم واحد منهم يقال له سلمان - أو سليمان - بقصد ضرب رقبته . وبالفعل تم تنفيذ حكم الإعدام فيه في يوم الجمعة ٢٥ ذى الحجة . وكان الجرم الذي استحق سلمان أن يعدم من أجله أنه « ضرب بيده حمارا مملوء دقيقا ، فأخذه وأدخله إلى منزله » (٢٥٧) .

على أن الأمر لم يخل من بعض ردود الفعل التي تمت على أضيق نطاق ، ودل حدوثها على مدى تواضع طمسوح القيادات المغربية . فإلى جانب أسلوب المقاطعة السلبية والتقايس عن نصره الخلافة ، بدأ المغاربة هؤلاء يثيرون المتاعب في وجه الدولة سواء عن طريق الشغب مع العناصر الأخرى مثل المشاركة والعبيد ، أو المطالبة من آن الآخر بالانتظام في دفع مستحقاتهم المالية . ومما يذكر في هذا الصدد ما حدث في سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) عندما جرت فتنة في شوارع الفسطاط بين المغاربة والأتراك ، راح ضحيتها خلق كثير من الطرفين . وعند تتبعنا لتفاصيل المناوشات التي حدثت بينهما نلاحظ أن الأتراك - حديثي العهد في خدمة الدولة إذ ماقورنوا بالمغاربة - قد فاقوا المغاربة كثرة وعدة لدرجة أنهم أحرزوا النصر في البداية . ثم ما لبثت كفة المغاربة أن رجحت وألحقوا بالأتراك هزيمة ساحقة ، واضطروهم إلى الخروج عن الفسطاط . على أنه لم يتم للمغاربة المظفر إلا « بمعاونة العامة لهم » (٢٥٨) . معنى ذلك أنهم لم يعد لهم ذلك الثقل العسكري الذي ميزهم عن غيرهم من طوائف الدولة خلال العهود السابقة .

كما اننا نلاحظ ان ثمة تقارب بدأ يحدث بين هذه العناصر المغربية وبين عامة الشعب ، وربما كان ذلك يرجع الى تعاطف الراى العام المصرى فى الفسطاط والعاصمة مع هؤلاء المغاربة فى قضيتهم ضد الخلافة . كذلك يذكر لهؤلاء المغاربة انهم انتهزوا فرصة وفاة الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله - فى منتصف شهر شعبان سنة ٤٢٧ هـ (يونية ١٠٣٦ م) فقاموا بمطالبة الخليفة الجديد أبى تميم معد الذى تلقب بالمستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٦ - ١٠٩٤ م) بأرزاقيهم ، وزاد من خطورة الموقف انضمام العبيد اليهم . واذا كان الوزير الجرجرائى قد أنهى الأمر بوعدده بتقديم الأموال لهم من جيبه الخاص ، لخلو الخزانة من الأموال ، وتمكن بذلك من ارضائهم وتهدة ثائرتهم (٢٥٩) ، فان هذا الموقف ترك فى ذهن الخليفة الجديد انطبعا معينا من أن هؤلاء المغاربة قد استنفدوا طاقاتهم ، ولم يعودوا صالحين للقيام بدورهم كمعصر أول فى الدولة . وشرع بالتالى فى اتخاذ العديد من الاجراءات التى نتج عنها تغير الخريطة العامة للوجود المغربى الموالى للدولة . ونلاحظ ان هذه الاجراءات كذلك اثرت على افراد وجماعات التيارات المغربيين الآخرين ، بشكل جعل من فترة خلافة المستنصر بالله مرحلة هامة فى تاريخ الوجود المغربى عامة فى مصر الفاطمية .

وهذا ما سنوضحه بعد الحديث عن الأوضاع الخاصة بفريق المغاربة المستقرين فى اراضى الجانب الغربى لمصر ، وكذا الوافدين الى مصر من اهل المغرب والاندلس ، وسياسة الخلفاء الفاطميين السابقين نحوهم ، وذلك منذ الفتح الفاطمى لمصر وحتى بداية عصر المستنصر .

(ب) المغاربة المستقرون فى نواحي غرب مصر :

كان من الطبيعى ان تحظى منطقة الحدود الغربية لمصر بأهمية خاصة لدى خلفاء مصر الفاطميين منذ أن نجح جوهر

الصقلي في دخول البلاد . ويرجع ذلك الى كون هذه المنطقة همزة وصل بين الفاطميين في مصر وبين المغرب أصل خلافتهم . فضلا عن غلبة العنصر البربري المغربي على سكان هذه النواحي وميلهم الدائم الى العمل لحسابهم الخاص ، وهو ما أدركه الخلفاء الفاطميون - بالمغرب - قبل ان تخضع مصر لسلطانهم . غير اننا نلاحظ هدوءا عجيبا خيم على جو الأحداث في نواحي المنطقة منذ بدايات الوجود الفاطمي في مصر وحتى منتصف سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) ، عندما ذاع أمر الثائر ابي ركوسة . وان اختلفت الدوافع وراء ذلك الصمت بالنسبة لكل ناحية :

ففي برقة : ربما كان مرد ذلك الى حرص الحكومة الفاطمية في القاهرة على اختيار ولايتها على هذه الناحية بعناية ، سواء من بين فرق الجيش ذات العصبية القوية مثل الكتاميين ، أم من بين الأشخاص المشهود لهم بالكفاءة . وتجلي ذلك في استمرار افلح بن ناشب الكتامي واليا على برقة خلال عصر المعز لدين الله والعزيز بالله (٢٦٠) . ومنذ سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) ولى برقة صندل الأسود الذي قام بجهود كبيرة لفائدة الدولة من أجل إعادة بناء الأسطول الذي أحرقه عملاء الروم في ميناء المقس (٢٦١) . وربما كان السبب كذلك يرجع الى ارتكان أهل برقة الى الهدوء ايشارا للسلم حتى لا تتكرر معهم مأساة سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) (٢٦٢) . وآية ذلك استمرار وصول الهدايا السنوية مع النصاب المالي المقرر عليهم للخزانة العامة في العاصمة (٢٦٣) .

وفي البحيرة : يبدو أن السكان هناك ، وغالبيتهم من بربر لواتة ، كانوا قد اعتقدوا أن أمنيتهم تحققت باستئثار بني جلدتهم بربر المغرب بالنفوذ في مصر ، بحكم وجودهم في معية

الفاطميين (٢٦٤) . وربما كان السبب كذلك يرجع الى تشدد المعز لدين الله وخليفته العزيز بالله معهم ، وعدم السماح لهم بممارسة هوايتهم التقليدية في العمل لحسابهم الخاص . واذا كانت ثمة قلاقل بدأت تشهدها هذه المنطقة - أوائل حكم الخليفة الحاكم بأمر الله - وبالتحديد منذ سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) فان السبب في ذلك يرجع الى عصيان عرب بنى قرة ، أقوى الفروع العربية التى سكنت المنطقة . ومن الملاحظ أن حملات التأديب التى استمرت تخرج من القاهرة كانت كافية لردع هذه القلاقل (٢٦٥) .

أما فى الواحات : فيمكن تصور الوضع على النحو التالى :
أن الفاطميين سعوا - منذ الأيام الأولى لوجودهم فى مصر - لبسط سيطرتهم على هذه المنطقة النائية ، وذلك فى إطار محاولاتهم تأمين جنوب مصر . ولما كان الفاطميون على علم بحقيقة الأوضاع هناك - منذ أن شرعوا فى تسيير حملاتهم على مصر (٢٦٦) - فقد ارتأوا أن أفضل وسيلة للتعامل مع حكام الواحات ، من أفسراد أسرة آل عبدون اللواتيين ، هو أن تستمر العلاقات فيما بين الطرفين وفقا لما كان سائدا قبل مجيء الفاطميين الى مصر . أى أن يستمر آل عبدون متمتعين باستقلالهم الداخلى ويكون لهم نصيب من خراج المنطقة وجزية النصارى بها ، فى مقابل أن يستمروا على الطاعة لحكومة القاهرة الفاطمية ، ويسهموا بنصيبهم فى تأمين المنطقة ضد اخطار سكان النوبة (٢٦٧) . ويمكن لنا أن نعتبر زيارة ابن حوقل للمنطقة فى مطلع العهد الفاطمى فى مصر سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) قد تمت لتحقيق هذا الغرض . إذ من المعروف عن هذه الرحالة أنه كان جاسوسا للفاطميين (٢٦٨) .

ونرجح أن حكام الواحات المعاصرين لوقت الزيارة ، من آل عبدون اللواتيين (٢٦٩) ، كانوا على استعداد لقبول هذا التطور

الجديد فى علاقتهم بالفاطميين . اذ انهم بذلك سيجنبون امارتهم التعرض لأخطار الحملات الفاطمية التى كثيرا ما أشاعت الفوضى والدمار فى نواحي المنطقة . هذا الى جانب امكان الاستفادة من قدرات الدولة الفاطمية الفتية فى مدافعة خطة سكان النوبة . الأمر الذى يتيح فى النهاية قدرا من الهدوء كان حكام الواحات فى حاجة اليه كى يتفرغوا للعناية بالشئون الداخلية لامارتهم ، وهو ملاحظه ابن حوقل . والدليل على تقبل آل عبدون لهذه السفارة السياسية ، تلك الحفاوة التى قوبل بها ابن حوقل عند زيارته للمنطقة ، وأشار اليها بوضوح (٢٧٠) .

ويبدو أن الفاطميين لم يكونوا مطمئنين تماما الى اخلاص حكام الواحات وركونهم الى الطاعة ، فعمدوا الى مراقبتهم عن طريق واليهم على مدينة أسوان ، حمزة الكتاسى ، الذى كان اختياره لهذا المنصب — استنادا الى عصبية الكتامية القوية وتدعيمه بمزيد من السلطات الاستثنائية الى جانب القوة العسكرية التى سارت معه (٢٧١) — دليلا على تخوف الفاطميين من احتمال قيام آل عبدون بعصيان فجائى . على اننا ، من ناحية أخرى نلاحظ أن حكام الواحات — خلال هذه الفترة — كانوا مشغولين بسياستهم الداخلية أكثر من أى شىء آخر . فيذكر ابن حوقل أن أبا الحسن مكبر بن عبد الصمد بن عبدون ، الحاكم السابق للواحات وخليفته عبدون بن محمد بن عبدون ، قد صرفا كل جهودهما من أجل بعث نهضة جديدة فى أمور الحكم والاقتصاد ، مستعينين فى ذلك بجهود أعداد من الوافدين الى المنطقة من أعماق الصحراء الافريقية الكبرى بغرض التجارة . وكان أشهرهم مصبح ابن ميمون المغربى الأصل ، الواحى المولد ، حسبما المع ابن حوقل الذى يفهم من كتابته عن ابن ميمون انه كانت له بصماته الواضحة فى تنظيم بلاط بنى عبدون حتى انه صار من كبار مستشارى الأمير عبدون بن محمد (٢٧٢) .

وذلك يعنى أن حكام الواحات من آل عبدون اللواتيين لن يعودوا — ولو الى حين — مصدر خطر على النفوذ الفاطمى فى جنوب الصعيد . ومن المفارقات التى تدعو للدهشة ان تخوف الحكومة الفاطمية فى القاهرة ومباغتتها فى التحرز من آل عبدون كان سببا فى تعرض نفوذها فى تلك المنطقة للخطر ، حينما سعى حمزة الكتامى — النائب الفاطمى على مدينة أسوان — فى الاستقلال بناحيته عن سلطان الخلافة ، من منطلق السلطات الاستثنائية التى خوله اياها الخليفة المعز لدين الله . وكانت ثورته فى سنة ٣٦٨ هـ (٧٨ / ٩٧٩ م) أيام الخليفة العزيز بالله . وقد آل أمره الى زوال ، على نحو ما رأينا (٢٧٣) .

ويبدو أن تصدع الجبهة الداخلية لمنطقة الواحات استمر بشكل عقبة كبيرة امام آل عبدون — وربما امام من تلاهم فى حكم المنطقة من الأسر البربرية المغربية الأخرى من فروع لواتة (٢٧٤) — بحيث استمرت العناية باصلاح ذلك الوضع شاغلا لهم عن التفكير فى اعداد قوة عسكرية ذات شأن ، أو التفكير فى مناورة الفاطميين بالقاهرة . وساعدهم على ذلك حرص الفاطميين على تحمل عبء الدفاع عن جنوب مصر ضد اخطار سكان النوبة (٢٧٥) .

واذا كان ذلك الهدوء الذى شهدته نواحي غرب مصر قد تحول الى ثورة عارمة هددت كيان الخلافة الفاطمية فى عهد الحاكم بأمر الله ، عندما استفحل أمر الثائر الأموى الوليد بن هشام المعروف بأبى ركة — منذ منتصف سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) — فى منطقة برقة وامتد نفوذه الى أرض البحيرة وشرع فى التوغل فى عمق الأراضى المصرية حتى الجيزة ، وإذا كان ذلك التحول قد حدث فإن الأمور ما لبثت ان تطورت سريعا لصالح لخلافة الفاطمية عندما تمكن الخليفة الحاكم من القضاء على هذه الثورة

فى سنة ٣٩٧هـ (١٠٠٧م) بفضل الجيوش العديدة التى دأب على ارسالها والأموال الكثيرة التى أنفقها فى سبيل ذلك (٢٧٦) . ومن خلال نظرة سريعة الى أمر هذه الثورة يتضح لنا الآتى : -

- ان مسرح العمليات الحربية ، وان اتسع ليشمل معظم اراضى غرب مصر ، بل عمق الديار المصرية حتى اهرامات الجيزة والفيوم وبعض نواحي الصعيد ، الا ان منطقة الواحسات كانت يمتأى عن تطور عمليات القتال .

- ان النجاح الذى احرزه أبو ركة ، فى البداية ، لم يتم له الا بمساعدة غالبية سكان برقة والبحيرة من عرب بنى قسرة وبربر زنانة ولواتة . ويرجع السبب فى انضمام عرب بنى قسرة الى جانب أبى ركة الى حزازات سابقة تربت فى نفوس زعمائهم تجاه الخليفة الحاكم الذى غدر بأعداد منهم وأعدمهم قبيل قيام هذه الثورة (٢٧٧) . بينما عد اشتراك بربر زنانة مع أبى ركة امتدادا طبيعيا لميل هذه القبيلة ذات المشوكة الى معاداة الفاطميين اثناء وجودهم بالمغرب (٢٧٨) . واذا كان السبب واضحا بالنسبة لاشتراك هذين الفريقين الى جانب أبى ركة ، فاننا لم نلاحظ سببا واضحا جعل بربر لواتة يميلون الى معاداة الخلافة الفاطمية فى حربها ضد أبى ركة . ولا نملك الا القول بأنه ربما كان ذلك يرجع ، بجانب كونهم أهل سنة ، الى ان هؤلاء البربر رغبوا فى استغلال هذه الثورة لتحقيق مكاسب شخصية خاصة على حساب سلطان حكومة القاهرة الفاطمية . وكانت هذه - على ما يبدو - اول محاولة من جانب بربر لواتة فى البحيرة وبرقة لاثارة القلاقل فى وجه الخلافة الفاطمية منذ انتقالها الى مصر .

وكانت النتيجة التى ترتبت على اشتراك هذه العناصر من سكان برقة والبحيرة فى ثورة أبى ركة ، ان الحاكم بأمر الله -

رغبة منه في ألا تتجدد الاضطرابات من ناحيتهم — لجأ الى أسلوب أكثر دبلوماسية في التعامل معهم ، وبخاصة العناصر البربرية . فلم تنسب اليه الروايات انه اتخذ اجراء ما بشأنهم عقب هزيمة أبي ركة ، حتى بدا وكأنه سامحهم على ما بدر منهم في حسق الخلافة . غير أنه شرع في ترحيل أكثر العناصر التي أيدت أبا ركة ، من عرب بني قرة ، عن أماكن إقامتهم بالبحيرة الى ناحية برقة مع كبيرهم مختار بن قاسم (٢٧٩) . ثم أقدم الحاكم بأمر الله — في أواخر سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) — على إحالة ناحية برقة الى إشراف نائبه على ولاية إفريقية ، أبي مناد باديس بن أبي الفتح الصنهاجي (٢٨٠) ، كي يضمن — فيما يبدو — بقاء هذا الإقليم تحت رقابة هذه الأسرة البربرية العتيدة (٢٨١) .

وبالفعل بعث أبو مناد باديس قائدا من قبله ، يدعى حميد ابن تموصلت الى برقة ، كي يليها عوضا عن واليها الفاطمي خود الصقلي الذي خرج عن المدينة الى مصر في شهر ذي الحجة سنة ٤٠٤ هـ (يونية ١٠١٤ م) (٢٨٢) . الأمر الذي ترتب عليه خروج إقليم برقة من فلك التبعية المصرية المباشرة منذ ذلك الحين وحتى عصر المستنصر بالله الفاطمي الذي أعاد هذه الناحية الى تبعية مصر من جديد ، كما سيتضح بعد قليل .

وعلى العموم ، فقد غلب الهدوء من جديد على تلك النواحي في أعقاب ثورة أبي ركة ، باستثناء بعض المرات التي شغب فيها عرب بني قرة على الخلافة الفاطمية سنوات ٤٠٥ هـ (١٠١٥/١٤ م) ، و ٤١٥ هـ (١٠٢٥ م) ، وعلى أرض الواحات بعد سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) (٢٨٣) . حتى كان عصر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي حينما بدأت هذه المنطقة تشهد تغيرات هامة كان لها شأنها على تطور الأحداث في عصر ذلك الخليفة ومن تلاه من خلفاء العصر الفاطمي الثاني .

(ج) المفاربة الوافدون :

ارتبطت السياسة التي اتبعها الخلفاء الفاطميون تجاه الوافدين الى مصر من اهل المغرب والأندلس — الى حد كبير — بالظروف التي واجهها الفاطميون بالمغرب ، واستمرت سائدة الى ما بعد انتقالهم الى مصر . ونستطيع ان نوجز تلك الظروف من خلال هذه الحقيقة الهامة :

ان الوجود الفاطمي بالمغرب (٢٩٦ - ٣٦١ هـ / ٩٠٩ - ٩٧٢ م) كان بمثابة مشروع مؤقت صار من الضروري ان يعقبه انتقال الخلفاء الفاطميين الى منطقة اخرى تكون أكثر أمناً من المغرب . ويرجع السبب في ذلك الى شدة مقاومة اهل المغرب للوجود الفاطمي هناك ، واعتصامهم بالمذهب السني المالكى امام المحاولات التي بذلها الخلفاء الفاطميون لنشر عقائدهم المذهبية سواء بالترغيب ام بالترهيب . يضاف الى ذلك المحاولات التي بذلها الأمويون — بالأندلس — من اجل واد الدعوة الفاطمية والاجهاز عليها بشتى الوسائل (٢٨٤) .

معنى ذلك أن نظرة الخلفاء الفاطميين في مصر تجاه أولئك الوافدين استمرت تملؤها الحساسية وتوقع اثاره القلاقل في أية لحظة . غير اننا نلاحظ أن التصاق هؤلاء بالقاعدة العريضة من الشعب المصرى السنى — والذي ظهر من خلال الترحساب الذى قوبلوا به أينما حلوا ، وعبر عن نفسه اثناء دروس العلم التي كانت تعقد في مساجد مصر وقد شارك فيها هؤلاء الوافدون اما علماء واما طلاب علم — كل ذلك جعل حكومة القاهرة الفاطمية في موقف لا تحسد عليه . فالخلفاء الفاطميون — بداهة — لن يستطيعوا ايقاف هذا السيل المتدفق عبر الأراضى المصرية الى النجاس ، كما ان الحاق الضرر باى منهم سيرتب عليه اشارة

الشعور العام السننى فى مصر مما يؤدى الى تكرار تجربة المغرب الاليمة . واخيرا فان حدوث مثل هذا كان سيؤدى بالضرورة الى وحشة تنشأ بين الفاطميين فى مصر وبين المغرب أصل الخلافة الأول .

على أن ذلك لم يمنع الفاطميين من التعامل مع الشخصيات المغربية التى اعتبرت خطرا على السلطة لشعبيتها بين المصريين . مثال ذلك : أسرة بنى مصعب القيروانيين ، التى اختلت أحوال أفرادها الثلاثة المقيمين بالفسطاط فى الفترة التى تلت الفتح الفاطمى لمصر مباشرة (٢٨٥) . وإذا كان ابن حوقل لم يفصح عن أسباب هذا الاختلال ولا عن كيفية حدوثه ، الا اننا نرجح أن المكانة الكريمة التى تمتع بها أفراد هذه الأسرة قبل الفتح والتفاف بعض المصريين من سكان الفسطاط حولهم ، لكرمهم الزائد مع المحتاجين (٢٨٦) ، كان سببا فى تخوف الفاطميين منهم . وربما حاول جوهر الصقلى - قائد جيش الفتح الفاطمى - احتواءهم باسناد بعض الوظائف اليهم ، وان بنى مصعب رفضوا التعاون معه ، فكان ذلك سببا فى تغير جوهر عليهم وسعيه فى انتقاص نفوذهم على النحو الذى اختلت معه أحوالهم . وان يستمر آل مصعب على الرغم من ذلك فى سعة من العيش الى حين وفاتهم - حتى انهم « قبروا مستورين فى آخر نعمهم » (٢٨٧) - لما يؤكد ان جوهر كان معهم أكثر من دبلوماسى ، وذلك بالطبع كى لا يستثير عداء المتعاطفين معهم من المصريين .

ونستطيع ان نتصور ان العلاقة بين الخلفاء الفاطميين فى مصر وبين الوافدين اليها من أهل المغرب والاندلس قد سارت وفق اطار من الرقابة اللصيقة التى فرضها الفاطميون عليهم تحسبا لآية متاعب قد يثيرونها من وراء استمساكهم بعقيدتهم السنية التى

غلب عليها فقه الامام مالك بن انس . ويبدو أن الخلافة الفاطمية نجحت في تطبيق هذه السياسة مع أولئك الوافدين ، خاصة في الفترة الأولى من الوجود الفاطمي في مصر ، بدليل ان الروايات التي اهتمت برصد رحلة هؤلاء الحجاج والدارسين قد خلت من أية اشارة الى قيام احدهم بمناوئة السلطة الفاطمية خلال الفترة التي تلت الفتح الفاطمي مباشرة وحتى خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي .

على أننا نلاحظ من ناحية أخرى أن اصرار هؤلاء العلماء والحجاج على حضور جلسات العلم التي كانت تعقد في المساجد المصرية ، وعدم اكتفاء طلاب العلم منهم بالتلمذ على عالم مصري واحد بل أكثر كل واحد منهم في الاعتماد على اساتذة عديدين ، كل ذلك مما يمكن أن نعتبره نوعاً من المعارضة التي أبدوها هؤلاء الوافدون في وجه السلطة الفاطمية . كذلك حرص هؤلاء الوافدون على كسب زاد الطريق من خلال ممارسة بعض الحرف التي اتقنها كل منهم ، حتى لا يستغل الفاطميون ذلك كنقطة ضعف ينفذوا من خلالها اليهم بالوظائف التي يعرضونها عليهم . حقيقة أن ذلك كله كان نوعاً من المعارضة السلبية ، الا انها أسهمت الى حد كبير في نجاح المذاهب الاسلامية السنية في مصر في الصمود أمام محاولات نشر العقيدة الشيعية في انحاء البلاد . ويبدو لنا أن حرص أصحاب الروايات - التي عالجت موضوع الرحلة هذا - على تدوين سير هؤلاء العلماء والحجاج ، وإيراد تفاصيل دقيقة عن اقامتهم بمصر ومشاركتهم في مجالس العلم المتعددة ، كان نوعاً من التمجيد لأصحاب هذه السير وبيان كيف انهم تجشّموا عناء مزدوجاً في رحلاتهم تلك خلال هذا العصر : فالى جانب متاعب الطريق ، فانهم كانوا عرضة لتقلب أمزجة وسياسات الفاطميين الشيعة اثناء المرور بممتلكاتهم في الأراضي المصرية أو الحجازية .

غير أن أسلوب المعارضة السلبية هذا ما لبث أن تبدل أثناء خلافة الحاكم بأمر الله ، حينما عمد أفراد من هؤلاء الوافدين الى إثارة المتاعب في وجه الخلافة ، وكانت احداها من الخطورة لدرجة انها كادت تعصف بالوجود الفاطمي في مصر نهائيا . وثمة ملاحظات تجدر الإشارة اليها قبل الخوض في تفاصيل هذه التطورات ، منها : -

١ - أن اختصاص عصر الخليفة الحاكم بأمر الله بكي تحدث فيه هذه النقلة ، ربما كان راجعا الى الجهود التي بذلها هذا الخليفة من أجل تنظيم الدعوة الفاطمية في مصر بشكل لم يحدث قبل ذلك في عهود أسلافه (المعز والعزيز) (٢٨٨) .

٢ - أن الأندلسيين كانوا ابرز من تم على أيديهم تنفيذ هذه المهام . ومن المؤكد أن مرد ذلك الى نجاح الأمويين حكام الأندلس في استغلال هؤلاء الوافدين الى مصر كورقة رابحة في توجيهه الضربات المتتالية الى أعدائهم الفاطميين . ولا يفهم من هذا أن باقى الوافدين الى مصر من أهل الشمال الأفريقي - السنة المالكين - كانوا اقل استعدادا من اخوانهم الأندلسيين للعمل الثوري لصالح عقيدتهم السنية ، فقط كانت الخلفية السياسية - والتي تمثلت في الحكومة الأموية السنية التي أيدت هذه الأعمال الثورية وحرضت عليها - في صالح الوافدين الأندلسيين (٢٨٩) .

تشير الروايات الى ان أول حادث في هذا الشأن جرت وقائعه في مسجد عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط ، في يوم ٨ صفر سنة ٣٩١ هـ (يناير ١٠٠١ م) ، واستهدفت محاولة اغتيال قاضى قضاة الدولة الفاطمية أبى عبد الله الحسين بن النعمان . وذلك حينما هجم عليه رجل أندلسي - أثناء جلوسه لتدريس تعاليم المذهب الفاطمي عقب صلاة العصر - « فضربه ضربتين بمنجل وفأس

في وجهه ورأسه « (٢٩٠) . فكانت - اذا - ضربة سننية ضد المذهب الفاطمي ، قصد أهل السنة من الأندلسيين الوافدين الى مصر - أو الحكومة الأموية السنية في الأندلس - التخلص بها من أحد أفراد أسرة النعمان بن حيون المغربية ذات اليد الطولى في مجال الدعوة الفاطمية . الا أن هذه المحاولة باءت بالفشل ، إذ نجى القاضي من القتل ، وأصيب فقط بجرح استلزم إقامته بمنزله عدة أيام حتى برى منه . أما الأندلسي فقد قبض عليه لوقته « وقتل وصلب ، (٢٩١) » .

وعلى أية حال فلم تكن هذه المحاولة لتثنى الحاكم بامر الله عما انتواه بشأن تنظيم أمور الدعوة ، فما إن اطمأن على شفاء الحسين بن علي حتى استدعاه الى القصر وأمر له بإعطيات كثيرة ، ثم زاد في اختصاصاته وولاه الى جانب مناصبه السابقة أمور الدعوة الفاطمية ، وجعل لقبه منذ ذلك الحين : « قاضي القضاة وداعي الدعوة » . وحتى لا يتعرض الحسين بن علي لمثل هذه الاعتداءات أمر الحاكم بامر الله بأن يحرسه عشرون رجلا في غدواته وروحاته ، « فكان اذا صلى ، يصطف خلفه الحرس بالسيوف حتى يفرغ » . ويصلون هم حينئذ ، « وهو بذلك أول قاض تم له مثل هذا الأمر (٢٩٢) » .

ثم كانت المحاولة الثانية التي نجحت بعض الوقت في زعزعة الوجود الفاطمي في مصر لدرجة كبيرة ، حينما ثار أحد الوافدين الأندلسيين ، ويدعى الوليد بن هشام بن المغيرة (من ولد عبد الرحمن الداخل مؤسس البيت الأموي الحاكم بالأندلس) على سيطان الخلافة الفاطمية بناحية برقة ، واستمر يشكل خطرا عظيما على الدولة الفاطمية منذ بداية أمره في منتصف سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) حتى قضي على ثورته تماما في منتصف سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٧ م) .

وقد بدأت أحداث هذه الثورة عندما خرج الوليد بن هشام - وكان يعرف بابي ركة (٢٩٣) - من الأندلس فارا من اضطهاد المنصور محمد بن أبي عامر حاجب الخليفة الأموي المؤيد بالله هشام الثاني بن الحكم المستنصر (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٩ م) . وقد خرج أبو ركة الى المشرق حيث قام برحلة طويلة زار خلالها بلدانا كثيرة ، مثل : القيروان ، وبعض مدن مصر كالاسكندرية والقسطنطينية ونواح متعددة من ريف مصر ، والحجاز ، واليمن ، والشام ، ثم مصر ثانية حيث نزح الى برقة ومنها قام بثورته (٢٩٤) . ويغلب على الظن أن رحلة أبي ركة ، تلك ، كانت بهدف استطلاع مواطن القوة والضعف في ممتلكات الفاطميين ، إذ كانت معظم البقاع التي زارها تقع في حوزتهم . ولم يجد أبو ركة صعوبة تذكر في استمالة عناصر السكان المستقرين في ناحية برقة (من عرب بني قره وبربر زناتة ولواتة) عندما بدأ في الكشف عن حقيقة لوايا المناهضة للخلافة الفاطمية . سيما أن دوافع اشتراك كل منهم كانت متوفرة (٢٩٥) ، ولهذا تخلى سريعا عن فكرة أنه معلم للقرآن (٢٩٦) .

ومنذ شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ (مارس / أبريل ١٠٠٥ م) شرع أبو ركة في الاستيلاء على المدن العامرة التي تقع في نطاق إقليم برقة ، ثم سار نحو مدينة برقة ذاتها . فقاتله جنودها بقيادة الوالي الفاطمي صندل الأسود قتالا شديدا ودفعوه عنها أول الأمر . وهنا ينفرد يحيى بن سعيد بالإشارة الى أن عسكريا من بربر لواتة تحركوا لدفع جموع أبي ركة عن مدينة برقة ، فأسرع أبو ركة لمقاتلتهم واضطربهم الى الانسحاب من أمامه حيث تفرقوا في الشعاب (٢٩٧) . وهي ملاحظة تفيد أن بربر لواتة انقسموا على أنفسهم بشأن أبي ركة ما بين مؤيد ومعارض . وعلى أية حال فقد كانت هذه هي المعارضة الوحيدة التي صادفها أبو ركة

من سكان الاقليم ، اذ غدت المعوقات التي واجهته بعد ذلك تتمثل في الحملات التي شرع الخليفة الحاكم بأمر الله في تسييرها اليه . فكان فريق من بربر لواتة آثر في البداية ألا ينضم الى جانب أبى ركوته خشية أن يجلبوا على أنفسهم - ولأول مرة - غضب الحكومة الفاطمية في القاهرة ، ولهذا قاموا بمحاولتهم ضد أبى ركوته الا أن الهزيمة التي منوا بها أمامه ثم الانتصارات المتتالية التي تحققت لأبى ركوته - بعد ذلك - على قوات الخلافة في اقليم برقة ، كانت كافية لاقتناع هذه العناصر اللواتية بضرورة الانضمام اليه طمعا في المكاسب التي لا ريب مستعود عليهم نتيجة هذا التحالف .

ثم عاد أبو ركوته من جديد الى مدينة برقة محاولا الاستيلاء عليها ، فحاصرها وضيق على أهلها . وأقام على ذلك فترة غير قليلة حتى سمع بقرب وصول جيش الخلافة الذي سيره اليه الحاكم بأمر الله ، تحت قيادة ينال التركي ، استجابة لعامله على برقه صندل الأسود (٢٩٨) . وكما سبق القول فقد كان لاحتواء هذه القوة الفاطمية على اعداد من الكتامين أثره الواضح في الهزيمة التي منيت بها ، ووقوع أكثر جنودها - ربما من الأتراك - في الأسر بما فيهم القائد ينال الذي قتله أبو ركوته . ذلك أن هؤلاء الكتامين تركوا صفوفهم وخرجوا مستامنين الى أبى ركوته نكاية في الحاكم وقائدهم ينال . ترتب على ذلك أن سلم أهل برقة المحاصرون الى أبى ركوته ، في شهر ذى الحجة من سنة ٣٩٥ هـ . (يولية ١٠٠٥ م) ، كما خرج منها رجال الحاكم وواليه صندل عن طريق البحر : فخرج بعضهم الى المغرب ، وبعضهم الى مصر (٢٩٩) . وكان لهذه الانتصارات المتتالية أثرها في أن صار أبو ركوته صاحب الأمر والنهى في اقليم برقة ، فأعلن مذهب السنة بالمنطقة وتسمى بأمر المؤمنين الناصر للمدين والشائر بالله ،

ونقش ذلك على العملة . ثم كانت الخطوة التالية أن بدأت سراياه
تتردد على الصعيد ومختلف ديار مصر (٣:٠) .

وأمام تطور الأمور على هذا النحو الخطير ، شرع الحاتم
بأمر الله في اتخاذ كافة الاجراءات التي تكفل القضاء على هذه
الثورة . من ذلك أنه تخلى عن سياسته المتشددة في التعامل مع
رجال دولته وسائر الرعية (٣٠١) ، كى يضمن تعاون الجميع
معه . كما لجأ الى تسخير امكانيات الدولة المالية في تجهيز الجيوش
العديدة ومحاولة استمالة أنصار أبي ركوه ، حتى بلغ مجموع
ما أنفقه الحاكم في ذلك « ألف ألف دينار ذهباً » (٣٠٢) . ولم يأل
الحاكم جهداً في جعل أبي ركوه يتخلى عن الحرص اللازم أثناء
هجومه المنتظر على عمق الأراضي المصرية ، فأمر وجوه رجاله وقادة
دولته أن يكاتبوا أبا ركوه ويعرفوه أنهم على مذهبه ورأيه (٣٠٣) .
وأعقب ذلك أن توالى الحملات التي أشرف بنفسه على اعدادها .
ونلاحظ في هذا الصدد أن تخاذل الفرقة الكتامية - تحت قيادة
ينال التركي - في قتال أبي ركوه قد دفع بالحاكم لأن يعتمد على
عناصر أخرى متعددة مثل الترك والديلم والسودان ، حتى الأرمن
قليل انه استعان بهم (٣٠٤) . وكذا عرب الشام من قبيلة طيء -
الذين كانوا الى وقت قريب ألد أعداء الخلافة ومصدر خطر دائم على
نفوذها بالشام - استدعاهم الحاكم الى مصر ، فحضرت اعداد منهم
بزعامه المفرج بن دغفل بن الجراح الطائي وأولاده الثلاثة (٣٠٥) .
وعلى الرغم من ذلك فقد وضح احتياج الخلافة لجهود الفرق المغربية
الموالية للدولة - وخاصة الكتامين - اذ استعان الخليفة الحاكم
بالقائد الكتامي علي بن جعفر بن فلاح واستدعاه من جبهة الشام ،
وعهد اليه بالمرابطة في الجزيرة كخط دفاع مباشر عن العاصمة .

وتلا ذلك وقوع معارك عسكرية جديدة بين الجانبين - على
طريق برقة - استغرقت معظم سنة ٣٩٦ هـ (١٠٠٦/٥ م) كان

النصر فيها أيضا لصالح أبي ركو (٣٠٦) . وترتب على هذه الانتصارات الجديدة نتائج مختلفة لكلا الطرفين : فمن ناحية أبي ركو ، أدى ذلك إلى رفع معنوياته حتى أنه بدأ في تقسيم ممتلكات الفاطميين على حلفائه على أساس أن الشام سيكون لعرب بنى قرة ، أما مصر فله ولبن معه من البربر . ومن ثم فقد شرع في توسيع جبهة القتال ضد الفاطميين بحيث شملت أرض البحيرة والجيزة والفيوم (٣٠٧) . بينما صار الحاكم بأمر الله في حال عظيمة من الاضطراب والقلق ، حتى أشارت إحدى الروايات إلى أنه فكر في الهرب إلى الشام ، ونقل خزائنه إلى بلبيس (٣٠٨) . إلا أننا نعتقد أن ذلك لم يتم حيز التنفيذ ، إذ من المعروف أن الحاكم بأمر الله أبدى تماسكا كبيرا في مواجهة هذه المحنة ، وشرع في تجهيز جيش جديد اختار له قائدا نصرانيا من أمراء أبيه العزيز بالله ، هو الفضل بن عبد الله بن صالح (٣٠٩) . وقد بالغ الحاكم في أعداد هذا الجيش والنفقة عليه حتى قيل أن عدد جنوده بلغ حوالي اثني عشر ألف مقاتل بين فارس وراجل ، عدا من انضم إليهم من عرب الشام .

ثم كان الخطأ الذي وقع فيه أبو ركو بتوسيع جبهة القتال على الفاطميين - وهو الأمر الذي نتج عنه بعثرة قواته ما بين تخوم الاسكندرية وأرض الفيوم - هو بعينه السلاح الذي أتاح للقيادة الفاطمية الفرصة كي تقضى على هذه الثورة تماما ، سيما بعد أن أثمت المناوشات الأولية التي دارت بين الفريقين - عند مدينة الفوم - فشل أسلوب المواجهة المباشرة مع قوات أبي ركو لكثرة أعدادها (٣١٠) .

لهذا كانت هزيمة قوات الخلافة بقيادة علي بن جعفر بن فلاح الكاظمي عند مدينة الجيزة ، أمام القوة التي أرسلها أبو ركو

للاستيلاء على هذه المدينة ، ثم الانسحاب - الذى نعتقد انه كان مفتعلا - حتى صحراء الهرم بهدف استدراج هذا الجزء من قوات أبى ركة بعيدا عن جموعه المراقبة أمام الفيوم (٣١١) . هذا فى الوقت الذى كانت فيه القوة الفاطمية الرئيسية بقيادة الفضل بن عبد الله بن صالح قد استعدت لخوض المعركة الفاصلة مع قوات أبى ركة فى موضع رأس البركة من أعمال الفيوم . ورغم الترتيب السابق ، فإن الفضل بن عبد الله لم يتمكن من الانتصار على قوات أبى ركة الا بعد أن استمال الى جانبه أحد رجال أبى ركة ، ويعرف بالماضى وهو من قادة بنى قرة ، ليطلعه على أسرار جيش أبى ركة . وبواسطة المعلومات التى حصل عليها الفضل من الماضى تمكن من احباط خطة أبى ركة فى الهجوم ، وأسفر القتال الذى دار بعد ذلك - فى أواخر شهر ذى القعدة سنة ٣٩٦ هـ (يولية ١٠٠٦ م) عن هزيمة أبى ركة وتشيت أنصاره ما بين أسير أو قتل أو فار الى دياره (٣١٢) . أما أبو ركة ، فلم يجد - بعد أن تخلى عنه بنو قرة وطلبوا منه أن ينجو بنفسه - غير الفرار الى جهة النوبة حيث قبض عليه - ملكها - المدعو روفائيل - وسلمه لنائب الخليفة الذى أرسله بدوره الى القاهرة وعندئذ عرضه الحاكم فى شوارع القاهرة عرضا مزريا ، اذ شرب به على جمل وجعل وراءه قردا يصفعه على رأسه ، ثم قتله وصلبه . وكان ذلك فى شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٧ هـ (فبراير ١٠٠٧ م) (٣١٣) .

ما سبق يتضح لنا أن ثورة أبى ركة كانت قاسما مشتركا بين التيارات المغربية الثلاثة الموجودة بمصر آنذاك : اذ المتسبب فى قيامها يعد ممثلا للوافدين ، ثم كان لانتشار دعوته المناهضة للفاطميين فى برقة وامتدادها لتشمل معظم أرض البحيرة اثره فى أن ظهر واضحا خلالها دور المغاربة المستقرين فى تلك الانحاء .

كذلك وضع لنا الدور الذي لعبته الفرق المغربية الموالية للفاطميين في أحداث هذه الثورة بحيث لا نكون مبالغين في الاعتقاد بأن مسئولية طول أمد هذه الثورة وتفاقم خطرهما على النحو الذي رأيناه إنما يقع على عاتق الكتاميين وحدهم . إذ ساعد تقاعسهم في البداية على اعلاء شأن أبي ركة ، ثم كانت عودتهم الى الطامة والاخلاص في خدمة الدولة ، من خلال الجهود البناءة التي بذلها على بن جعفر بن فلاح ، سببا في اخترام هذه الثورة واستئصالها .

ومن الملاحظ أن ثورة أبي ركة كانت آخر محاولة قام بها أحد الوافدين الأندلسيين الى مصر للثورة على الدولة الفاطمية . ويرجع السبب في ذلك الى أن الخلافة الأموية بالأندلس - والمسئولة عن تدبير مثل هذه الثورات - كانت قد بدأت تدخل في طور الضعف حتى سقطت في سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) وحلت محلها حكومات مفتتة متصارعة شغلت ما عرف بمصر الطوائف في الأندلس (٣١٤) . ومن ثم فقد عاد الأثر الذي أحدثه هؤلاء الوافدون في الحياة السياسية في مصر الفاطمية الى ما كان عليه قبل قيام هذه الثورة ، حتى بدأ وكأنهم قد أدركوا أن خير وسيلة للنيل من الفاطميين الشيعة هي أن يستمروا في مشاركة اخوانهم أهل السنة المصريين في دعم المذاهب السنية في مصر من خلال دروس العلم التي حرصوا على الانتظام فيها إما طلاب علم أو أساتذة .

وما دمننا بصدد الحديث عن الوافدين الى مصر من أهل المغرب والأندلس فيجدر بنا أن نشير الى نوع آخر من الوافدين يمكن أن نطلق عليهم اصطلاحا اسم **اللاجئين السياسيين** . وهم الذين اضطرتهم ظروفهم الخاصة الى اللجوء الى مصر طلبا لحماية السلطة الفاطمية ، أو للاستعانة بنفوذها في أرجاء حقوقهم الضائعة . وتبرز أهمية هذا الصنف من الوافدين من خلال أن

الفاطميين رحبوا بهتدبهم الى مصر ، رغبة في استخدامهم في تنفيذ
المشروعات الخاصة بالخلافة في أرض المغرب ، ومن هؤلاء :

— كتاب ومغنين ابنا زيرو بن مناد الصنهاجي ، اللذان خرجا
من قصر اخيهما أبي الفتوح يوسف بن زيرو حاكم ولاية افريقية من
قبل الخليفة العزيز بالله الفاطمي ، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة
٣٦٩ هـ (سبتمبر ٩٧٩ م) . فقد سلكا طريق مصر حتى وصلا الى
قصر العزيز بالله الذي اكرم وفادتهما وانزلهما عنده وخلع عليهما
ووصلهما « وبقيتا هنالك بقية السنة » . ثم صرفهما العزيز الى أبي
الفتوح في العام التالي وأمره بالعفو عنهما وانه يتمرض لهما فامتل
لأمره (٣١٥) . ونعتقد أن هذا التصرف من جانب العزيز بالله كان
له علاقة بأمر احتياجه لعدد من مشاهير صنهاجة الأشداء كي يجد
فيهم العوض عن بربر كتامة الذين خذلوه اول توليته الخلافة (٣١٦) .

— ومنهم الحسن بن كنون ، أو قنون ، الأدرسي الذي وفد
الى مصر في خلافة العزيز بالله أيضا ، سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م)
واستمر مقيما بها الى سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) . ونرجع أسباب
هذه الزيارة الى رغبة الحسن في الحصول على مساعدة الخليفة
العزيز من أجل استعادة ممتلكاته بنواحي المغرب الأقصى ، التي
استولى عليها الأمويون حكام الأندلس في سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣م) (٣١٧) .
ومن الملاحظ أن انشغال العزيز بالله بشئون الداخلية وبأمر الشام
منعه من أن يقدم مساعدة فعلية للحسن بن كنون ، غير أنه لم يشأ
أن يضيع عن نفسه الفرصة في استعادة هيبة الخلافة الفاطمية
على نواحي المغرب الأقصى ، فأكرم وفادة الحسن وأتباعه — الذين
قارب عددهم سبعمائة رجل — أثناء اقامتهم بمصر . ويبدو أن
العزيز بالله قد استغل النفقة عليهم ، بعد ذلك ، فعمل بمشورة
وزيره ابن كلس وسمح لهم بمغادرة البلاد الى المغرب ، بعد

ان امدهم بالمال اللازم وكتب الى نائبه علي افريقية ابي الفتوح يوسف
(بلكين) بن زيري « بانفاذهم الى المغرب واعانتهم على
ما يحاولونه » (٣١٨) .

— كذلك وفد الى مصر يحيى بن علي بن حمدون الجذامي
الاندلسي خوفا من ان يحاول المصور محمد بن ابي عامر ، حاجب
الدولة الاموية ، قتله بعد ان تخلص من اخيه جعفر بن علي (٣١٩) .
وقد حرص العزيز بالله الفاطمي على الابتلاء علي يحيى في مصر
لاستغلاله كسلاح عند الضرورة . واستمرت اقامة يحيى بن علي
في مصر الى ايام الحاكم بامر الله الذي سببه في سنة ٣٩٠ هـ
(١٠٠٠ م) على رأس حملة عسكرية لاسترداد مدينة طرابلس من
قبضة ابي مناد باديس الصنهاجي حاكم ولاية افريقية ، اذ كان
يحيى بن علي معروفا بعدائه للزييريين . ومن اجل انجاح هذا
المشروع منحه الحاكم مال برقة وامر جماعة من عرب بني قرة
بالسير معه لقتال الزييريين . غير ان يحيى لم يجد اموالا في برقة ،
كما ان عرب بني قرة انسحبوا من معسكره ، ورجعوا الى ديارهم .
فاختلت حاله وفشلت مهمته واضطر الى الرجوع الى مصر . ويشير
المقرئ الى ان الحاكم بامر الله غضب عليه واراد قتله ، ثم عاد
معفا عنه بعد ان تبين له عدم مسئوليته عن ذلك (٣٢٠) .

ومن الملاحظ ان اقامة هذا الصنف من الوافدين في مصر يمكن
اعتبارها هامشية ، وذلك لعدم قيامهم بعمل ما أثناء وجودهم بمصر
سوى متابعة تنفيذ الهدف الذي حضروا من اجله (٣٢١) .

(د) المغاربة في النصف الأول من خلافة المستنصر بالله (٤٢٧ هـ - ٤٦٧ هـ = ١٠٣٦ - ١٠٧٤ م) :

من الثابت أن فترة حكم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ = ١٠٣٦ - ١٠٩٤ م) تعد نقطة تحول للخلافة الفاطمية من مرحلة القوة وسيطرة الخلفاء على شئون الحكم إلى مرحلة الضعف واختفاء شخصية الخلفاء أمام ازدياد نفوذ وزرائهم ، أو ما عرف بعصر الوزراء العظام . وهو العصر الذي تحول فيه الوزراء الفاطميون من مجرد وزراء تنفيذ إلى وزراء تفويض (٣٢٢) ، واستمر حتى نسقوط الخلافة الفاطمية . وترتب على ذلك أن الأوضاع السياسية للتيارات المغربية الثلاثة الموجودة بمصر خلال هذه الفترة - بل مجريات الأمور في مصر عامة - بسدت وتأثر بشخصيات هؤلاء الوزراء ومدى نجاح كل منهم في الانفراد بالحكم .

هذا ، وإذا كان معلوما أن عصر الوزراء الفاطميين العظام لم يبدأ بمصر إلا بعد حضور بدر الجمالي - وإلى عكا - إلى مصر ونجاحه في تجميع كافة السلطات في يده وانفرادة تماما بتدبير أمور البلاد دون الخليفة المستنصر ، وذلك ابتداء من سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤) ، فإن الشواهد التي دلت على قرب حدوث مثل هذا التحول ، وذاك التأثير ، ترجع إلى بدايات حكم المستنصر :

فمنرى الوزير نجيب الدولة أبا القاسم على بن أحمد الجرجرائي (٤١٨ - ٤٣٦ هـ / ١٠٢٧ - ١٠٤٥ م) - الذي أخذ البيعة للمستنصر - قد كفل للدولة بداية هادئة استمرت إلى حين وفاته وهو في منصب الوزارة . وظهر هذا بوضوح منذ اليوم الأول لتولى المستنصر حينما تمكن الجرجرائي من تهدئة نائرة المغاربة والعبيد الذين تجمعوا حول القصر مطالبين بصرف مستحقاتهم المالية ، ووصل به الأمر إلى أن أخرج لهم المال من جيبه الخاص (٣٢٣) .

ويبدو أن الجرجرائي كان قد اتبع سياسة المساواة بين عناصر الدولة جميعها من حيث الحقوق والواجبات ، اذ لم يتكرر مثل هذا التجمهر مرة أخرى اثناء وزارته . وساعده على ذلك انه لم يعط الفرصة لمن سموا بحزب القصر — الممثلين في والدة الخليفة المستنصر وأعوانها أبي سعيد سهل بن هارون التستري متولى ديوانها وأخيه أبي نصر ابراهيم اليهوديين — كي يستبدوا بالأمور دونه (٣٢٤) .

ثم كانت وفاة الجرجرائي (في شهر رمضان سنة ٤٣٦ هـ / مارس ١٠٤٥ م) بمثابة الفرصة التي أتاحت لوالدة الخليفة وأعوانها كي يتدخلوا في شئون الحكم على حساب الوزراء الذين خلفوا الجرجرائي (٣٢٥) . ومن ثم فقد بدأت بين الجانبين سلسلة متصلة من الصراع على السلطة حتى وزارة اليازوري (سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م) . وتخلل ذلك أن صارت الفرق العسكرية المغربية وباقي طوائف الجيش في العاصمة أداة لهذا الصراع . ذلك أن الوزير فخر الملك أبا منصور (أو نصر) صدقة بن يوسف الفلاحى (٤٣٦ - ٤٣٩ هـ / ١٠٤٥ - ١٠٤٧ م) — الذى خلف أبا القاسم الجرجرائي في الوزارة — كره استبداد التستري بالأمور وسيطرته على كل شيء في الدولة ، فحرض عليه طائفة الأتراك . وبالمقابل نجح التستري في استمالة المغاربة والعبيد . مما أدى الى قيام فتنة بين طوائف الجيش مند باب زويلة في شهر ربيع الآخر سنة ٤٣٩ هـ (سبتمبر ١٠٤٧ م) ، راح ضحيتها خلق كثير . ويبدو أن الهزيمة خلالها لحقت بالأتراك بحيث سعوا في الانتقام من التستري ، فقتلوه ومثلوا بجثته (٣٢٦) . فحققت والدة الخليفة على الفلاحى وسعت في عزله عن الوزارة وامتقاله ، ثم دبرت مقتله انتقاما لمصرع التستري رجلها القوى (٣٢٧) .

عند هذا الحد بدأ وكان الأمر قد انتهى ، الا أننا نعتقد انه ثمة نتيجة هامة ترتبت على هذا الحادث ، كانت عميقة الأثر ،

سببها فيما يتعلق بطوائف المغاربة الذين هم في مهجة الخلافة ، إذ نرجح أن ما بدر من الفرق العسكرية المغربية في هذه المرة — مضافاً إليه شغبهم السابق أول خلافة المستنصر — قد كون في ذهن الخليفة المستنصر انطباعاً بأن هذا الجيل القديم من المغاربة قد استنفد طاقاته ، ولم يعد أفرادهم يصلحون للقيام بدورهم كعنصر أول في الدولة (٣٢٨) . فكان رد المستنصر على ذلك أنه سيجلب لعناصر جديدة من بربر مصودة — سكان المغرب الأقصى (٣٢٩) — بالحضور إلى مصر في شكل هجرة جماعية للإقامة بها ، عسى أن يجد فيهم بعض العزاء عن الرفاق القدامى من المغاربة أمثال : الكتامين والباطلية والبرقيين . ومن العجيب أن يكون وفود المصامدة إلى مصر — وهو بعد ما يزال مشروعا تحت التجربة — قد تم بهذه الكثرة التي أشار إليها ناصر خسرو (٣٣٠) . وثمة اعتبارات جعلتنا نحكم على وجود المصامدة في مصر زمن المستنصر بالله بأنه كان مشروعا تحت التجربة ، منها :

١ — أن وجود المصامدة في مصر لم يكن يعنى أن الخلافة الفاطمية قد استغنت تماماً عن خدمات باقى الفرق العسكرية المغربية ، بل استمرت الحاجة اليهم قائمة . يتضح ذلك من إشارة ناصر خسرو إلى أن المصامدة قد شغلوا المرتبة الثالثة بعد الكتامين وفرقة الباطلية ، الذين جاموا على رأس فرق الجيش الفاطمي أثناء الاستعراض العسكري العام الذي أقيم بمناسبة الاحتفال بفتح الخليج (سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م) (٣٣١) .

٢ — أن المقرئ يشير إلى أن خارة المصامدة التي كانت بالقاهرة لم تشيد الا فيما بعد سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) أثناء وزارة المأمون بن البطائحى ، كما سنرى (٣٣٢) . وهذا يعنى أن الخلافة الفاطمية لم تعتبر أن هذا المشروع قد نجح الا حينذاك .

ونخلص من هذا الى ان المستنصر باقداية على جلب المضامدة الى مصر ، رغب لمقط في اثاره هم الفرق العسكرية المغربية الموجودة بمصر ، وهذا بالفعل ما حدث من طائفة مثل الكتامين التي اشارت الروايات الى اشتراكهم في أكثر من مركة هامة لصالح الخلافة ، كما سنرى فيما بعد .

بيد أن الخوف من تكرار الخطأ الناتج عن اعتماد الدولة على العنصر المغربي بمفرده في الجيش ، كان سببا في جعل المستنصر بالله يفتح الباب لعناصر أخرى غير المضامدة للالتحاق بصفوف الجيش الفاطمي . نذكر منها : جماعات البدو من عرب الحجاز الذين وفدوا حديثا الى الاراضي المصرية ، والزنوج (٣٣٣) . وقد أشار د. ماجد الى أن هذه الفرق الجديدة كانت تخدم كعناصر غير نظامية في الجيش الفاطمي ، وكانت تؤلف طلابه (٣٣٤) . كما كان حضور بدر الجمالي الى مصر ايدانا ببدء تغفل العناصر الأرمنية في الجيش الفاطمي حتى صارت أهم فرقه وهو ما سنتبينه فيما بعد . ولهمة حقيقة تستلفت الانتباه ، وهو ان فكرة تعدد العناصر العسكرية التي شرع المستنصر في تنفيذها — آنذاك — كانت فاتحة لأن نجد ، لأول مرة منذ الفتح الفاطمي لمصر ، تشكيلات مقاتلة من بربر لوانة سكان الجانب الغربي لمصر تنتظم في العمل ضمن وحدات الجيش الفاطمي ايضا كعناصر نظامية وغير نظامية ، بتدبير من الحكومة الفاطمية على ما سنرى .

وعلى اية حال فان الاضطرابات التي شهدتها العاصمة عقب وفاة نجيب الدولة أبي القاسم الجرجرائي (رمضان ٤٣٦ هـ / مارس ١٠٤٥ م) ، مالبثت ان انتهت باستيثار أبي محمد الحسن ابن علي بن عبد الرحمن اليازوري ، في السابع من المحرم سنة ٤٤٢ هـ (بناتج يونية ١٠٥٠ م) . ذلك الرجل القوي الذي وصف بأن وجوده في الوزارة بمصر الفاطمية قد أجل كثيرا من وقوع

الاضطرابات التي شهدتها البلاد — بعد ذلك — وأدت الى ما عرف
بالشدة المستنصرية أو العظمى (٣٣٥) . ويرجع السبب في ذلك
الى أن اليازورى كان — قبل أن يلى الوزارة — قد جمع بين اشرافه
على ديوان أم المستنصر وبين توليه منصبى القضاء والدعوة
الفاطمية ، فغدا بذلك الرجل الأول في دولة المستنصر بالله . وقد
استطاع اليازورى أن يسيطر على مجريات الأمور ، وأن يفرض
على الدولة جوا من الهدوء رغم الأحداث الهامة التي تخللت فترة
وزارته . ويمكن تصور أحوال الفرق العسكرية المغربية الموالية
للدولة أثناء ذلك بانهم كانوا في حالة استرخاء . ذلك أن السياسة
الحازمة التي اتبعها هذا الوزير في معالجة الازمات الاقتصادية
التي تعرضت لها البلاد سنوات ٤٤٤ هـ (١٠٥٣ م) ، و ٤٤٦ هـ —
٤٤٨ هـ (١٠٥٤ — ١٠٥٦ م) ، و ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) قد جنتها
الوقوع في خطر الحرب الأهلية (٣٣٦) . كما أن اليازورى لم يعمد
الى اشراك هؤلاء المغاربة — بصفة أساسية — في العمليات الحربية
التي دارت رحاها آنذاك في جبهة المغرب . رغم أن الاضطرابات
التي شهدتها هذه الناحية كانت تستلزم أن تجند الدولة جميع
الامكانيات لردعها .

أما عن قصة تلك الاضطرابات التي شهدتها المغرب ، وكيفية
معالجتها من قبل حكومة القاهرة الفاطمية ، وأثر ذلك على سير
الأحداث في مصر خاصة فيما يتعلق بأراضي الجانب الغربى لمصر ،
فقد تمت على النحو التالى :

حدث فى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) أن شرع أمير أفريقية
أو المغرب الأدنى — المعز بن باديس الصنهاجى (٤٠٦ — ٤٥٤ هـ /
١٠١٦ — ١٠٦٢ م) فى خلع طاعة الخليفة المستنصر بالله ، وقطع
الخطبة له ودعا للخليفة العباسى القائم بأمر الله (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ /

١٠٣٦ - ١٠٧٥ م) (٣٣٧) . فكان رد اليازورى على ذلك أنه اقترح على الخليفة المستنصر تنفيذ ما سبق أن ارتآه الوزير السابق أبو البركات الجرجرائى - ابن أخى الوزير أبى القاسم الجرجرائى (تولى الوزارة فى سنة ٤٣٩ هـ الى سنة ٤٤١ هـ = ١٠٤٧ - ١٠٤٩ م) - بشأن استخدام القبائل العربية النازلة فى الصعيد مصر من بنى هلال وسليم وجشم وفزارة ومعقل وغيرها فى القضاء على حركة المعز بن باديس (٣٣٨) . وكانت خطة اليازورى فى ذلك تهدف الى تحقيق فائدة مزدوجة : ففى حين قصد اليازورى أن يضرب المعز بن باديس بخصم قوى لا يستهان به ، وهو ما عبر عنه فى خطابه الى المعز قائلا : « ... أما بعد ، فقد أرسلنا اليكم خيولا فحولوا ، وحملنا عليها رجالا كهولا ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا » (٣٣٩) . اراد اليازورى أيضا التخلص من هذه الجحافل العربية التى دأبت على إثارة الشغب والفساد فى أرض الصعيد منذ قدومها الى مصر فى أيام الخليفة العزيز بالله الفاطمى (٣٤٠) . أو كما قيل اراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد .

ويبدو أن عدم اعتماد اليازورى على فريق المغاربة العسكريين فى تنفيذ هذا المشروع ، إنما كان بمثابة اعلان رسمى عن أنه لم يكن مقتنعا بإمكان قيامهم بهذا الدور خير قيام ، أو أنه كان مرتابا فى احتمال انضمامهم الى جانب المعز بن باديس على أساس أن أصولهم المغربية قد تفرض عليهم ذلك (٣٤١) .

وبمجرد أن وافق الخليفة المستنصر بالله على هذه الخطة ، شرعت قبائل هلال وسليم وغيرها فى اجتياح نواحي برقة وطرابلس وأفريقية ، وطردت منها سكانها البربر ، وعاثت فيها فسادا وتخريبا . وألحقت بجيوش المعز بن باديس هزيمة ساحقة فى موقعة حيدران - وقيل جندران - من جهة قابس ، فى الثانى عشر من شهر ذى الحجة سنة ٤٤٣ هـ (أبريل ١٠٥٢ م) . واضطر المعز

في أثرها إلى الخروج من القيروان والانتقال إلى مدينة المهدية حيث اتخذها مقرا له . وتقلص ملك بنى زيري ، منذ ذلك الحين ، حتى لم يمهدهم بجوارز جزءا من الساحل يحيط بالمهدية (٣٤٢) .

ولنا أن نقسمنا عن مصير هؤلاء البربر المتصساء سكان المنطقة المتألمة لحدود مصر الغربية ، وحتى مدينة طرابلس ، الذين فروا أمام الهجمات المدمرة التي شنها عرب هلال وسليم على أراضيهم . على أننا قبل الإجابة على هذا التساؤل نلاحظ بعض التطورات التي انتابت نواحي غرب مصر في فترة معاصرة لتحرك هذه القبائل العربية صوب المغرب . إذ فدت هذه المنطقة بمساء بالاضطرابات والقلق طوال فترة وجود اليازوري في الوزارة ، واشتدت بصورة غير طبيعية اثر اقصائه عنها في سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) . وإذا كان عرب بنى قره - من أفخاذ هلال - هم الذين افتتحو سلسلة الاضطرابات هذه ، بثورتهم التي قاموا بها في سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) ، فإن جماعات اللواتيين سكان المنطقة واصلوا المسيرة بشكل لم يسبق له مثيل :

لفي سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) رفض زعماء بنى قره - بناحية البحيرة - الانصياع لسلطة الحكومة الفاطمية وكرهوا الانقياد لأحد الأشخاص ويدعى المقرب ، كان اليازوري قد عينه حاكما عليهم . وتعللوا بتأخر صرف مستحققاتهم المالية عن تلك السنة ، وزاد من خطورة هذه الحركة انضمام العرب الطلحين اليهم (٣٤٣) ، ورغم أن اليازوري تمكن من القضاء على هذه الثورة بواسطة التجريعات العسكرية التي أرسلها إلى أرض البحيرة واستطاع بذلك أن ينهر الأمن في تلك الناحية (٣٤٤) فإن الاضطرابات لم تنقطع عن تلك المنطقة سيما بعد اقضاء اليازوري عن منصب الوزارة (في سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) (٣٤٥) .

وتخلل ذلك الإشارة الى أن الوجود البربرى - وبخاصة بربر
لواتة وهوارة - بدأ يتغلغل فى الحياة العامة بمصر ويعمق أكبر
فى نواحي الدلتا ومصر الوسطى والصعيد ، حتى وصل الأمر الى
أن شراذم من بربر لواتة أصبحت - ولأول مرة منذ الفتح الفاطمى
لمصر - ضمن عناصر الجيش الفاطمى (٣٤٦) .

ويوحى لنا ذلك بأن تحرك عرب هلال وسليم وجشم وفزارة
ومعقل نحو المغرب قد أفرز تحركات مضادة قام بها هؤلاء الفارون
من سكان الصحراء الليبية المتاخمة لخط الحدود مع مصر نحو
الأراضي المصرية بحثا عن الأمان من خطر هجمات العرب
المدمرة (٣٤٧) . وكان أغلب هذه العناصر النازجة من بربر لواتة
وهوارة . وقد اتخذت هجرتهم الى الديار المصرية شكل موجات ذات
طابع سلمى هادى بغرض الاستقرار مع بنى عموميتهم القدامى من
فروع لواتة وهوارة أيضا . إلا أن كثرتهم - على ما يبدو - دفعت
بأولئك القدامى الى النزوح نحو الشرق قليلا حيث تجاوزت أعداد
منهم مجرى النيل واستقرت فى نواح متفرقة من الدلتا والضفة
الشرقية للوادي (٣٤٨) .

وتجدر الإشارة الى أن هذه العناصر البربرية الجديدة قد
شاركوا اخوانهم القدامى فى عدم الانصياع لسلطان الحكومة
الفاطمية . ويرجع السبب فى ذلك الى جانب عقيدتهم السنية ،
انهم أدركوا أن الفاطميين - الذين أرسلوا العرب الى المغرب -
كانوا سببا مباشرا فى هذا الوضع المهين الذى أمسوا فيه . وهو
ما جعلهم مصدر شغب دائم خاصة فى فترات الضعف التى انتابت
الخلافة الفاطمية ، كما سنرى بعد ذلك .

أما عن الأحوال فى العاصمة ، فقد أخطت فى التدهور بشكل
مدهولك منذ أنه أقصى اليازورى عن منصب الوزارة ، فى أول المحرم

بصفة ٤٥٠ هـ (٢٨ فبراير ١٠٥٨ م) (٣٤٩) . ويرجع السبب في ذلك الى رغبة أم الخليفة المستنصر في التدخل في شئون الحكم . وسعيها الدائم من أجل زيادة نفوذ طبقة العبيد السودان في الدولة ، بحيث أدى ذلك الى اثاره الاحقاد بين طوائف الجيش الفاطمي . كما كان لضعف شخصية الوزراء الفاطميين الذين خلفوا اليازورى أثره في قلقلة الأوضاع حينذاك . كذلك أدى التنافس الذي حدث بين قادة الفرق العسكرية ، وبخاصة الأتراك ، الى مزيد من الاضطرابات التي تعرضت لها البلاد . ثم ان قصور النيل سبع سنوات متتالية (منذ سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ — ١٠٦٥ م) وما تلى ذلك من تعرض البلاد لخطر المجاعات والأوبئة ، قد أثر على هذه الفتن وأضاف اليها أبعادا اقتصادية واجتماعية خطيرة . بحيث أسهب المؤرخون في وصف ذلك ، وأطلقوا على هذه الفترة اسم الشدة المستنصرية أو العظمى (٣٥٠) .

وتبدأ أحداث هذه المرحلة الهامة في تاريخ الدولة الفاطمية عندما انتهزت أم المستنصر فرصة إبعاد اليازورى عن الوزارة ، وشرعت في ممارسة هوايتها في الضغط على الوزراء الذين جاءوا بعده ، كي يزيدوا في الاعتماد على طبقة العبيد السودان ، بأن يعهدوا اليهم بوظائف الدولة الهامة ، مع زيادة المخصصات المالية المقررة للعبيد ولو على حساب الطوائف الأخرى (الأتراك والمغاربة) . وكانت استجابة هؤلاء الوزراء لرغبة أم المستنصر — خوفا من سطوتها — دافعا لباقي الفرق الأخرى كي تثور على هذا الوضع الشاذ . بيد أن الأتراك كانوا أسبق في التعبير عن شعورهم بالسخط ازاء ذلك . ونتج عن هذا أن الفتن العسكرية التي بدأت تشهدها البلاد منذ ذلك الحين قد دارت في معظمها بين الأتراك والعبيد السودان . وكان النصر فيها حليفا للأتراك حتى تمكنوا في سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٨/٦٧ م) من اجلاء العبيد نهائيا

عن مراكز تجمعهم في القاهرة وضواحيها : الى صعيد مصر . كما
قضى الأتراك كذلك على كل المحاولات التي بذلتها أم المستنصر من
أجل تقوية مركز العبيد وجعل النصر في صالحهم (٣٥١) . وتجدر
الإشارة الى ان الهزائم المتتالية التي لحقت بطبقة العبيد السودانيين
وانحسار نفوذهم الى صعيد مصر لم يكن يعنى ان وجودهم في ديار
مصر قد تلاشى ، ذلك أنهم استثمروا مقيمين في جنوب مصر فترة
طويلة حاولوا خلالها تعويض الخسائر التي منوا بها بأعمال الشغب
التي شاركوا فيها مع جيرانهم من القبائل العربية الضاربة بتلك
المنطقة . مما كان له أكبر الضرر على سكان المنطقة والمناطق
المجاورة (٣٥٢) .

وبخصوص الفرق العسكرية المغربية الموجودة في الخدمة ،
فإننا نلاحظ أنهم تأخروا عن الاشتراك في الأحداث ، كما أنهم
اتخذوا موقفا مغائرا لكل من العبيد والأتراك . فنراهم منذ
سنة ٤٦١ هـ (٦٨ / ١٠٦٩ م) يحاربون في صف الخلافة قادة
الأتراك الذين سعوا في الاستبداد بالأمر دون المستنصر ، أمثال :
ناصر الدولة أبى على الحسين بن الحسن الحمداني وأخويه (٣٥٣) ،
وتاج الملوك شادى ، وغيرهم (٣٥٤) . ويمكن لنا أن نفسر السر
في تغير موقف قادة المغاربة على هذا النحو بأنه يعزى الى وجود
فرقة المصامدة التي لم يكن هناك شك في أن أفرادها سيعملون
لصالح الخلافة . فلم يشأ هؤلاء القادة أن يسحب البساط من تحت
أقدامهم اذ هم خالفوا هذا الوضع . كما أن تأخرهم الى ذلك الحين
إنما كان انتظارا لأوامر المستنصر ، اذ كانت المصادمات
بين الأتراك والعبيد من قبيل الأمور التي لا دخل للمغاربة فيها .

وقد برزت أهمية الدور الذي لعبته الفرق العسكرية المغربية
خلال هذه الفترة في ان الخليفة المستنصر تمكن بواسطتهم ، وكذا
بواسطة جماعة الأتراك الذين انشقوا على ناصر الدولة بن حمدان ،

وأیضا بإعداد من المتطوعین من عامة المصريين ، من الحاق الهزيمة
بجموع ابن حمدان فی المعركة التي دارت بین الطرفين فی شوارع
القاهرة ، أواخر سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٩ م) . واضطر ناصر الدولة
بعدها الى الفرار الى ناحية البحيرة (٣٥٥) . وظهر أثر اشتراك
المصامدة - هذه المرة - الى جانب الفرق المغربية الأخرى فی الدفاع
عن حقوق الخلافة فی أن طائفة مثل كتامة اضطر أفرادها الى اظهار
مواهبهم فی فنون القتال ضد ناصر الدولة بشكل جعل المستنصر بالله
يعهد الى أحدهم وهو الأمير سنان الدولة بن جابر الکتامي بتأمين
منطقة القسطنطينية ، من خلال منصبه كوال عليها ، ربما أثناء سير
المعركة أو بعد ذلك بقليل (٣٥٦) .

كذلك كان هؤلاء المغاربة سببا فی الحفاظ على نفوذ الخليفة
المستنصر قائما فی حدود العاصمة وضواحيها ، فی وقت تعرض
فيه سلطان الخلافة الفاطمية ككل للخطر فی باقى نواحي مصر ،
اذ كانت « لواتة قد ملكت الريف ، والصعيد بأيدي العبيد » (٣٥٧) .
وتفسیر ذلك ان ناصر الدولة بن حمدان عندما هزمت قواته أمام
التحالف الموالي للمستنصر (أواخر سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م) ،
فر من القاهرة الى ناحية البحيرة واتخذها مركزا جديدا يعاود منه
نشاطه المعادي للخلافة الفاطمية . فكأنه كان على يقين تام بأن
هذه الناحية ، وكافة أراضي الجانب الغربى لمصر ، قد غدت بيئة
مناسبة لتحقيق أهدافه . ولم لا وقد ساعده وجوده بالاسكندرية
سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) - كحاكم على المدينة أيام قیام عرب بنى
قرية بثورتهم على الحكومة الفاطمية (٣٥٨) - على أن يكون على
دراية بأسباب التغير الاجتماعى فی هذه النواحي . اذ لا شك فی
أن ناصر الدولة قد لاحظ آنذاك الكثرة العددية التى بدأت تتضح
بین الجماعات البربرية المستقرة هناك ، كنتيجة طبيعية لبداية
تفوح العناصر اللواتية والهوارية - الفارة من هجوم العرب على

أراضيهم - إلى أراضي تلك الناحية . كما أنه ليس ببعيد أن يكون
نية تقارب في وجهات النظر قد نشأ بين ناصر الدولة والقيادات
اللواتية التي بدأت تلمع منذ ذلك الحين ، مثل سليم اللواتي
الذي لقب فيما بعد * بكبير أهل البحيرة * (٣٥٩) . ويرجع السبب
في حدوث هذا التقارب إلى اشتراك الطرفين في الحق على الخلافة
الفاطمية (٣٦٠) . ومن المؤكد أن التقدم الذي أحرزه الطرفان
بعد ذلك - على حساب الخلافة الفاطمية ، كل بأسلوبه الخاص ،
قد ساعد على استمرار التقارب في وجهات النظر فيما بينهما :

ففي حين تمكن ابن حمدان من تحقيق مركز متقدم في
العاصمة ونجح في فرض آرائه على المستنصر ، على نحو ما رأينا ،
كانت الأمور قد تمهدت كثيرا لهذه الجماعات البربرية - وبخاصة
لواتة - في قطاعات واسعة من أراضي الوجه البحري . وثمة حادث
له دلالة على أن اللواتيين قد صاروا آنذاك قوة لها تأثيرها ، فقد
حدث لأحد الوزراء الفاطميين أثناء فترة الصراع بين الأتراك والعبيد
- وكان يدعى أبا سعد منصور بن أبي اليمن - أن تعرض لشغب
الجند عليه مطالبين بأرزاقهم ، بعد أيام قلائل من توليته الوزارة .
فما كان منه إلا أن خرج فارا من العاصمة تاركا منصب الوزارة إلى
حيث تجمعات اللواتيين ، بحثا عن الأمان لنفسه (٣٦١) . ومن
الأمور التي أعانت اللواتيين على تثبيت أقدامهم في تلك الأنحاء
الجديدة : كثرتهم العددية المضطربة ، واضطرار المستنصر - رغبة
في احتوائهم - إلى الاعتراف بوجودهم كأمر واقع من خلال السماح
لأعداد منهم بالعمل في الجيش الفاطمي كعناصر نظامية أو غير
ذلك ، كما سبق القول .

وليس أدل على حدوث هذا التقارب بين ناصر الدولة وبين
بربر لواتة من الإشارة إلى أن طائفة من اللواتيين كانت ضمن
البقايا الفارة مع ناصر الدولة إلى ناحية البحيرة ، عقب هزيمته في

القاهرة (٣٦٢) : وزبما كان وجود هذه الطائفة اللواتية ضمن جموع ناصر الدولة في العاصمة من الأمور التي شجعتة على أن ينبذ الأتراك عنه ويسعى في التخلص من قاداتهم ، مثلما حاول مع سيف الدولة الدكر (٣٦٣) . بمعنى ان ميل ابن حمدان الى الأتراك ، في ضراعه مع المستنصر ، كان عملية مؤقتة أعقبها التخلي عنهم ، مما جعل الآخرين ينحازون الى صف المستنصر .

وفي ضوء هذه الاعتبارات يمكن القول بأن خروج ناصر الدولة بن حمدان الى البحيرة عقب هزيمته في القاهرة أمام قوات المستنصر ، لم يكن فرارا بل لجوءا الى بربر لواءة خلفائه . ثم انه شرع في استمالة باقى سكان ناحية البحيرة من عرب سنابس وقيس ، فجعل إقامته في أحيائهم وتزوج من بنى سنابس (٣٦٤) .

ثم تلا ذلك قيام ابن حمدان بدور عد من أكبر الصعوبات التي واجهت المستنصر طوال فترة حكمه بعد نجاحه في استخدام اللواتيين - الذين كانوا موالين الى المذهب البسنى - كعنصر ضغط على نفوذ الخلافة الفاطمية في الوجه البحرى . وقد أعرب عن حقيقة نواياه في هذا الصدد عندما يعث في سنة ٤٦٢ هـ (٦٩ / ١٠٧٠ م) الى ألب ارسلان سلطان السلجقة بالعراق (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢ م) رسولا من قبله يسأله ان يرسل اليه عسكريا ليقم الدعوة العباسية في مصر ، على أن تؤول الى ناصر الدولة السيادة على مصر . وقد رحب ألب ارسلان بذلك ، غير انه شغل بمحاربة الروم عن المسير الى مصر (٣٦٥) . هذا في الوقت الذي قام فيه أربعون ألف لواتيا - وقيل خمسون ألفا - تحت قيادة ناصر الدولة بشن هجمات مدمرة على أراضي الوجه البحرى . وقد عدد ساويرس من الفظائع التي ارتكبوها الشيء الكثير ، من ذلك أنهم « ملكوا بلاد الريف كلها الشرقية والغربية ،

ونهبوها وأخربوها ، وقتلوا أهلها وهتكوا الحرم ، وذبحوا الأولاد
على بطون أمهاتهم وعلى ظهور آبائهم » (٣٦٦) .

وقد رد الخليفة المستنصر بالله على ذلك بأن جهز ثلاث
حملات متتالية لمحاربة ناصر الدولة وحلفائه في أرض البحيرة .
وكان طبيعيا أن تتألف هذه الحملات من ذات العناصر التي شاركت
قبل ذلك في دفع ابن حمدان عن القاهرة ، وهي وحدات من الفرق
العسكرية المغربية القائمة في الخدمة ، والأتراك المنشقين على ابن
حمدان ، والمتطوعين المصريين . بيد أننا نلاحظ أن القيادة العليا لهذه
الحملات الثلاث كانت لغير قادة المغاربة الموالين (٣٦٧) .
فكان هؤلاء المغاربة - وهم على ما يبدو كانوا
يشكلون السواد الأعظم بين جنود هذه الحملات -
قد نزلوا على رغبة المستنصر ولم يطالبوا بنصيبهم في القيادة ،
امعانا في الطاعة وحتى لا يكونوا كالتى نقضت غزلها . وبالرغم
من ذلك أوقع ابن حمدان الهزيمة بهذه الحملات الثلاثة وغنم منهم
مغانم كثيرة ، لكثرة جموعه من ناحية ، والانشقاق الذى حدث بين
قادة الحملات من ناحية أخرى بحيث « صار كل واحد منهم لا يتبع
رأى الآخر ، وإن كان فيه الصواب » (٣٦٨) . وقد أسفرت هزيمة
جيوش الخلافة عن مزيد من التدهور في العاصمة وبدأ الخلف يلبس
بين الأتراك والمغاربة ، لاستياء الأخيرين من موقف القادة الأتراك
الذى يبعث على الخزي . بينما تعاظم نفوذ ناصر الدولة حتى أنه
أقام الدعوة للخليفة العباسي القائم بأمر الله ، في الإسكندرية
ودمياط وجميع جهات الوجه البحرى ، وحال دون وصول الأقوات
إلى العاصمة (٣٦٩) . الأمر الذى أدى إلى تفاقم خطر المجاعات وندرة
الأقوات رغم أن النيل قد بلغ حد الوفاء في هذه السنة (٤٦٢ هـ /
١٠٧٠ م) ، واضطر المستنصر معه للنزول على رغبة قادته - من
الأتراك خاصة - في أمر الصلح مع ابن حمدان وقبل شروطه في
ذلك (٣٧٠) .

ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن نجاح هذه السياسة الاقتصادية التي اتبعتها ناصر الدولة ضد الخليفة المستنصر وسكان العاصمة ، إنما يعزى إلى حلفائه اللواتين الذين احتكروا زراعة الغلات في جهات الوجه البحرى ، ومنعوا الزراع المصريين من ذلك . فلم يقدّر أحد (على أن) يزرع فيه غلة ، غيرهم . فحرثوا الغلات وامتنعوا عن بيعها ، إلى أن عدمت من أرض مصر ، (٣٧١) .

وثمة ملايسات اقترنت بأمر الصلح الذى عقد فى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ / ١٠٧١ م) بين الخليفة المستنصر وناصر الدولة ابن حمدان . إذ كان الأتراك - على ما يبدو - أبرز من نادى بذلك ، حتى أشار القرىزى إلى أنهم هم الذين صالحو ناصر الدولة (٣٧٢) . بينما لم تفصح الرواية عن دور قادة الفرق العسكرية المغربية فى هذا الأمر . فلعلهم كانوا يرون ضرورة استئناف القتال ومعارضة فكرة الصلح لأنها فى الحقيقة تعنى الرضوخ والاستسلام لابن حمدان . ثم إن المستنصر مال إلى رأى الأتراك ، رغبة فى احتواء الأزمة فانحسرت بذلك مادة المناقشة فى هذا المجال . ونعتقد أن ميل المستنصر لقبول الصلح قد فت فى عزائم القادة المغاربة بحيث صار طبيعيا أن تتكاسل أعداد منهم عن الاشتراك فى المعارك القادمة التى قد تتطلبها الظروف الراهنة .

وقد أسفر الصلح الذى عقد بين الطرفين على أن يظل ابن حمدان مقيما بالبحيرة ويحمل إليه مبلغ من المال ، ويكون تاج الملوك شادى نائبا عنه فى القاهرة ، فى مقابل تعهده بإرسال الغلال إلى القاهرة والفسطاط (٣٧٣) . وكان على ابن حمدان - كي تصل المؤن والأقوات إلى القاهرة - أن يمارس ضغطا على حلفائه اللواتين حتى يمتنعوا - ولو إلى حين - عن احتكار الزراعة بأراضى الوجه البحرى .

ويبدو أن اللواتيين قبلوا ذلك على مضض ، وصاروا ينظرون الى ناصر الدولة بارتياح على انه يسعى للتدخل في شئونهم الخاصة . الأمر الذي أثر على صفاء العلاقات بين الطرفين ، لاسيما ان الأحداث التالية أكدت هذه النظرة . اذ حدث ان تعرض اللواتيون لأسقف مدينة الاسكندرية ، الذي اتخذه البطريرك خرسطودولوس (١٠٤٦ - ١٠٨٧ م / ٤٣٨ - ٤٨٠ هـ) نائبا له على الكنيسة هناك ، فقبضوا عليه وصادروا أمواله (٣٧٤) . ويشير ساويرس الى أن ناصر الدولة سعى بواسطة كاتبه النصراني أبي الطيب بن يحنس (أو يوانس) الزراوى ، في الشفاعة لدى اللواتيين لاطلاق سراح نائب البطريرك ، مقابل فدية مالية مقدارها ثلاثة آلاف دينار ، يدفعها نصارى المنطقة (٣٧٥) . ولا شك ان ابن حمدان فعل ذلك خوفا من أن يؤدي تصرف حلفائه اللواتيين الى استعداد نصارى مصر ، اذ كان عليه في هذه الفترة أن يستغل هدوء الحال بينه وبين المستنصر ليعيد ترتيب أوراقه ويزيل الآثار الضارة التي أحدثتها هجمات اللواتيين على أرض الوجه البحرى .

وليس أدل على ذلك من اتخاذ ابن حمدان لأبي الطيب النصراني كاتباً له . واذا كان اللواتيون قبلوا وساطة ناصر الدولة وكاتبه ، وأفرجوا عن الأسقف بعد حصولهم من أبي الطيب على ألف دينار وتعهد به بسداد باقى المبلغ (٣٧٦) ، الا أنهم كرموا تدخل أبي الطيب مرة ثانية من أجل العفو عن صادم الدولة بن جابر الكتامى - أخى الأمير سنان الدولة والى القسطنطينية - الذى اعتقله اللواتيون أثناء هجومهم على مدينة طنتتا أو طندتا (طنطا الحالية) (٣٧٧) . ورغم أن أبا الطيب قد ضغط على اللواتيين - هذه المرة - بدافع شخصى لا بصفته كاتب ابن حمدان ، اذ كان يراعى في ذلك حرمة أخيه سنان الدولة الذى عمل أبو الطيب كاتباً له وقت ان كان بالقسطنطينية . ورغم هذا أراد اللواتيون تلقين ناصر الدولة بن حمدان درساً كي لا يتدخل ، هو أو أحد خاصته ، بعد ذلك في شأناهم .

فقتلوا صارم الدولة الكتامى ، ثم انهم فتكوا بأبى الطيب الزراوى
اذ « وثب عليه موسى بن القرن ، أحدهم ، فضربه بسيفه وبأدر
اليه بقيتهم فقطعوه بسيوفهم » (٣٧٨) .

ولا شك ان ناصر الدولة بن حمدان قد أدرك حينئذ صعوبة
العمل مع اللواتيين فى ظل هذه التطورات ، فكان عليه أن يركز
جهوده لتأمين نفوذه بالعاصمة قبل أن يأتى يوم ينقلب عليه
حلفاؤه ، ناهيك عن أن نفوذه بالعاصمة قد تعرض آنذاك للانحيار .
فقد سعى نائبه تاج الملوك شادى فى الانقلاب عليه ، ومنع ارسال
الاموال المقررة اليه ، واستبد بالأمور فى العاصمة . فاستاء ابن
حمدان من ذلك وأخذ فى الاستعداد لشن هجوم على القاهرة - فى
أوائل سنة ٤٦٤ هـ (أواخر ١٠٧١ م) - لقتال المنشقين
عليه (٣٧٩) . ومما يؤكد أن العلاقات بين ناصر الدولة وحلفائه
اللواتيين - آنذاك - لم تكن على ما يرام ، ان الجيش الذى صاحبه
عند مسيره الى القاهرة كان يتألف فى معظمه من عرب قيس وسنبس ،
او كما قال المقرئى : « . . . واتفق هو وجمائع العربان على المسير
الى القاهرة » (٣٨٠) . ولا يعنى هذا ان التحالف بين ناصر الدولة
واللواتيين كان قد انفض عراه ، بل يمكن القول بأن العلاقات
بينهما كانت متوترة بعض الشيء نتيجة شعور كل طرف بفقد الثقة
فى الطرف الآخر .

وفى أرض البجيزة تمكن ابن حمدان من القبض على تاج الملوك
شادى ونفر من أنصاره الأتراك ، ثم وأصل زحفه الى القاهرة عن
طريق الفسطاط . الا انه فقد سيطرته على جنوده الذين أشاعوا
النهب والسلب فى أحياء الفسطاط وأشعلوا فيها النيران (٣٨١) .
ولما استفحل أمرهم عول المستنصر على محاربتهم ، فأنفذ اليهم
فريقا من جنده كان يشتمل على « طائفة لهم قوة وفيهم منعة » حسبما
يقول المقرئى (٣٨٢) . ودارت بين الفريقين عدة معارك انتهت

بهزيمة أتباع ابن حمدان ، وفراره ثانية الى ناحية البحيرة ، حيث
أيقن أنه لا مفر له من الاستعانة بجهود اللواتيين مرة أخرى .
ونرجح أن ابن حمدان تعهد لقيادات لواتة بألا يعارضهم فيما يروونه
مناسبا لأهوائهم حتى يستعيد ثقتهم ثانية . وكان لاشتراكهم معه
أثره في أن يجدد إقامة الدعوة للخليفة العباسي القائم بأمر الله في
أراضي الوجه البحري كما أرسل الى بغداد يلتمس الخلع (٣٨٣) .

ومن المؤكد ان الأنباء التي سمعها ابن حمدان بعد ذلك عن
تدهور الأحوال في العاصمة قد شجعتة على التفكير في المسير اليها
ثانية . اذ حدث في ذلك الوقت (خلال سنة ٤٦٤ هـ / ٧١ —
١٠٧٢ م) أن نشبت الفتنة بين أهم قوتين في جيش المستنصر ،
وهم المغاربة والأتراك (٣٨٤) . وهو ما كان متوقعا بين الطرفين
منذ أن شعر المغاربة بفقدان الثقة في الأتراك اثر وضوح تقاعسهم
عن نصرة الخلافة بشكل جعل المغاربة هم ضحايا حركة ابن حمدان .
فابتداء أدى انشغال القادة الأتراك بالاختلاف فيما بينهم الى هزيمة
الحملة الثلاثية التي سببها المستنصر لقتال ابن حمدان في
البحيرة (سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م) . ثم ان ضغط الأتراك على
المستنصر بشأن عقد الصلح في سنة ٤٦٣ هـ (٧٠ / ١٠٧١ م)
مع ابن حمدان وقبول شروطه في ذلك قد جعل تاج الملوك شاذي
ينوب عن ابن حمدان في الاستبداد بالأمر في العاصمة . وأخيرا
ربما وقع تحت أيدي قادة المغاربة ما يفيد اتصال بعض الأتراك
بإبن حمدان وانهم يدعونه لغزو القاهرة الأمر الذي كان سببا في
حدوث هذه الفتنة بينهم وبين الأتراك . وخلال القتال الذي دار
بين الفريقين في منطقة كوم الريش — المجاورة للقاهرة ، وهي غير
كوم شريك التي في أرض البحيرة — لم يتمكن أي منهما من احراز
النصر على الآخر ، فقط تعرض الجانبان لخسائر جمة حتى قيل
أن مجموع من مات منهم في يوم واحد ١٢ ألف رجلا (٣٨٥) .
وبما فت في غضب الجميع وإدى إلى تدهور جيش المستنصر .

وعندئذ شرع ابن حمدان في المسير على رأس قواته الى القاهرة ، فدخل القسطنطين في شهر شعبان من تلك السنة (٤٦٤ هـ / مايو ١٠٧٢ م) ، وتغلب على حكم المدينة ، ثم انه اثر الانتظار قليلا حتى يتأكد من صحة الانباء التي سمعها . فلما تيقن عجز المستنصر عن مقاومته ، بعد أن انفضت عنه القوى التي كان يعتمد عليها ، قرر دخول القاهرة ، فدخلها خلال ذلك الشهر . ثم كان من الطبيعي أن تتسم تصرفات ابن حمدان تجاه الخليفة المستنصر بالعدوانية المطلقة ، وقطع في ذلك شوطا بعيدا (٣٨٦) . وساعد على ذلك غياب القوى المعارضة له عن الساحة : فقد مال كثير من الأتراك لمصالحته حتى ان شيخهم الدكرز قبل مصاهرته وتزوج ابنته (٣٨٧) . أما المغاربة - لعل الرغم من استحالة أن يكون قد حدث تعاون بينهم وبين ابن حمدان أثناء اقامته بالقاهرة - الا ان خسائرهم أمام الأتراك منعته من القيام بعمل حاسم ضده .

غير أن ابن حمدان لم يهنا بالانفراد بالأمر في القاهرة طويلا ، اذ سرعان ما انقلب عليه قادة الأتراك بتدبير الدكرز ، واتفق الجميع على قتله . وتم ذلك في شهر شعبان من سنة ٤٦٥ هـ (مايو ١٠٧٣ م) وفتكوا بأفراد أسرة بن حمدان في السنة ذاتها (٣٨٨) . وجدير بالذكر ما اشار اليه ابن تغرى بردى - ثانية - عن السكين المغربي المسمى باليافورت عند تصويره لحادث اغتيال ناصر الدولة ابن حمدان ، بقوله : « ... ومشى الدكرز معه ، ثم تأخر عنه وضربه بيافورت كان معه ، وهو سكين مغربي ، في خاصرته . وضربه كمشكين (غلام الدكرز) فقطع رجله . فصاح : فعلتموها ، فحزوا رأسه » (٣٨٩) .

ومن الملاحظ أن الفوضى والاضطرابات التي انتابت البلاد لم تنته بمقتل ناصر الدولة ، بل سرعان ما حل الدكرز محل ناصر الدولة في الاستبداد بالخليفة المستنصر الذي ضاق به وباتباعه

ذرها . وفي غيبة المغاربة - من موالى الدولة - عن الساحة ، آيس
المستنصر من ايجاد حل داخلي حاسم لهذه الازمة . فاضطر في
سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٤ م) الى استدعاء نائبه على مدينة عكا بدر
الجمالى ، الأرمنى الأصل ، وأرسل اليه يطلب منه الحضور ليتولى
تدبير شئون الدولة واصلاح ما فسد منها . وقد اشترط بدر كى
يحضر ، أن يأتى ومعه قواته الخاصة من بنى جلدته الأرمن .
فوافق المستنصر بالله على طلبه (٣٩٠) . وكان ذلك بداية مرحلة
جديدة فى عمر الخلافة الفاطمية ، أو ما عرف بالعصر الفاطمى
الثانى .

الهوامش

- (١) علي مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، طبعة مصورة عن الطبعة الثانية .
الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٨٠ ، ج ١ ، ص ٣١ .
- (٢) المقرئى : اقعاظ الحنفا ، ج ١ (تحقيق د. التسال ، لجنة احياء التراث
الاسلامى ، ١٩٦٧) ، ص ١١١ .
- (٣) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ ، وابن تغرى بردى : النجوم
الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٤٦ . وراجع : د. لقبال : دور قبيلة كتامة ، ص ١١١ .
- (٤) المقرئى : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٥١ .
- (٥) المصدر نفسه : ص ٣٠٧ ، وابن تغرى برسى : ج ٤ ، ص ٤٧ .
- مع ملاحظة أن هناك خلطا بخصوص اصل هذه الفرقة . فالشائع أنهم من
اهل برقة . حتى ان علي مبارك (الخطط التوفيقية الجديدة ، ج ١ ، ص ٢٨ ،
أشار الى أنهم من « قبيلة البرقية » . وقد جائب الصواب هذا الرأى ، لأنه من
الثابت أن اهل برقة كانوا فى شغب دائم على الفاطميين منذ أن سقطت مدينتهم
فى سنة ٣٠١ هـ (٩١٤ م) . فى حين اهتم الفاطميون بالمدينة واتخذوها قاعدة
أمامية كتجمع فيها جيوشهم المتجهة الى مصر . فكانت نرايط ببرقة - وبصرة
دائمة - حامية فاطمية كبيرة العدد . وكان من الطبيعى أن يصطحب القائد جوهر
معه الحامية الموجودة بالمدينة الى مصر ، وهى التى استقرت فى حارة البرقية ونسب
اليهم . كذلك اصطحب المعز لدين الله معه أيضا الفرقة العسكرية المقيمة ببرقة
عند دخوله مصر . فدخلوا من الباب الذى عرف بباب البرقية ، واستقروا مع
سابقهم فى حارة البرقية . وهذا يفسر كثرة عددهم التى أشار إليها ابن تغرى
بردى بقوله : « وكانوا جماعة كثيرة » . وقد استمرت هذه الفرقة الى أخريات
أيام الفاطميين بعد أن تجددت دماؤها بعناصر أخرى أطلق عليها طائفة الأمراء
البرقية التى برز منها ضرغام بن سوار اللخمى ، الذى ولى الوزارة فى مصر ،
كما منرى فى حينه .

(٦) المقرئى : الخطط ج ٢ ، ص ٢٩٤ ، وابن تفرى بردى : النجوم ، ج ٤ ، ص ٣٧ ، ٥٢ .

(٧) وقد زال هذان البابان ، وبني أمير الجيوش بدر الجمال : ٤٦٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٧٤ - ١٠٩٤ م ، بدلها باب زويلة الكبير القائم الى اليوم ، وتسميته العنة ، بوابة المتولى حيث كان يجلس فى مدخله متولى حسبة القاهرة . انظر : (ابن تفرى بردى : ص ٣٧ هامش تحقيق رقم ٦) .

(٨) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ط ١ ، القاهرة ١٩١٤ ، ص ١٩٧ .

(٩) وهم البلغار من عنصر السلاف سكان الأراضى البيزنطية التى خضعت لسلطان الفاطميين مثل صقلية ، وخدموا فى الجيش الفاطمى فى المغرب . عن ذلك انظر : د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، جزآن ، مكتبة الأجلو المصرية ، القاهرة ، ج ١ ، ص ١٩٥ . وراجع : د . على إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقل ، ط ١ ، القاهرة ١٩٣٣ ، ص ١٧ - ٢٢ .

(١٠) المقرئى : الخطط ج ٢ ، ص ٣١١ .

(١١) فتحى حافظ أحمد الحديدى : دراسات فى مدينة القاهرة ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٢٢ .

(١٢) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ . وراجع : د . محمد كامل حسين ، فى أدب مصر الفاطمية ، سلسلة الألف كتاب (عدد ٤٥٥) ، ط ٢ ، دار الفكر العربى بالقاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٤٣ - ١٤٤ ، ود . محمد عبد المولى : القوى السنية فى المغرب ، ج ١ ، ص ٥٣ ، وهامش رقم ٣ ص ٥٣ - ٥٤ ، و ص ٣٢٢ هامش رقم ١ .

(١٣) المقرئى : المصدر السابق والصفحة .

(١٤) نفسه والصفحة .

(١٥) نفسه : ص ٢٩٩ . وهذه الحارة باقية الى اليوم ، وتسميها العامة « الباطنية » ويدل على موقعها شارع الباطنية وحارة الباطنية فى الجنوب الشرقى للجامع الأزهر بقسم الدرب الأحمر . انظر : ابن تفرى بردى : النجوم ، ج ٤ ، ص ٤٦ ، وهامش تحقيق رقم ٣ .

(١٦) المقرئى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .

(١٧) نفسه : ص ٣١٥ . والحمزيون نسبة الى قرية حمزة من أخواز بجاية بالمغرب الأوسط وكانت فى الأصل عبارة عن سوق أسسه حمزة بن سليمان العلوى

هند دخوله المغرب . انظر : (البكري : المغرب ، ص ٦٢ - ٦٥ ، وقد اندرست هذه الحارة . أما حي الحمزاوي الموجود الآن ضمن اقسام منطقة الجمالية بالقاهرة . فينسب الى الخان الذي انشاء حاتم الحمزاوي ، أحد أمراء السلطان سليم العثماني عن ذلك انظر : (فتحي حافظ : دراسات في مدينة القاهرة ، ص ١٤٨) .

(١٨) جعل جوهر في هذا السور ثمانية ابواب ، يوافق بابين في كل ضلع من اضلاعه الأربعة . وقد خلعت فرق الجيش الفاطمي أسماءها على كثير من ابواب السور ، مثل باب البرقية في الضلع الشرقي ، وبابى رويلة في الضلع الجنوبي ، وباب سعادة في الضلع الغربي - على اسم القائد سعادة بن حيان الذي قدم مصر على رأس نجدة عسكرية في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٦٠ هـ (أبريل ٩٧١ م) . عنه انظر : (المقرئى : خطط ، ج ٢ ، ص ٨١) .

- أما باقى ابواب السور فكانت في أيام جوهر الصقل على النحو التالى : بابى الفرج والنصر في الضلع الشمالى ، وباب القراطين في الضلع الشرقى ، وباب القنطرة في الضلع الغربى . عن ذلك انظر : على مبارك : الخطط الجديدة . ج ١ ، ص ٣٦ - ٣٧ ، وفتحي حافظ : دراسات ، ص ١٦ - ١٧ . (١٩) على مبارك : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٧ .

(٢٠) فتحي حافظ : المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٢١) المقرئى : اتعاظ ، ج ١ ، ص ١١١ ، وهامش رقم (١) للمحقق

(٢٢) المصدر نفسه والصفحة .

(٢٣) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٣٤ .

(٢٤) وكان الخندق الشرقى أوله الجبل الأحمر ، والخندق الجنوبى يقع الى الشرق من قبر الامام الشافعى ، والخندق الغربى يشغل مكان شارع الخليج المصرى الآن . انظر : على مبارك : الخطط الجديدة ، ج ١ ، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢٥) المقرئى : اتعاظ ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٢٦) المصدر نفسه والجزء ، ص ١٣٠ .

(٢٧) نفسه ، ص ١٣٢ .

(٢٨) نفسه ، ص ١٤٣ .

(٢٩) نفسه : ص ١٣١ . وراجع : د. سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ،

ج ١ ، في مصر والشام ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٣٠) مناويزن : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، مجلد ٢ ج ٢ .

ص ٨٨ - ٨٩ .

(٣١) المقرئى : اتعاط ، ج ١ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ، - وسيتضح فيما بعد أن هذا الاجراء مع حنزة كان سبباً فى تماديه على السلطة الفاطمية اوائل عصر العزيز بالله .

(٣٢) المصدر نفسه والجزء : ص ١٠٩ .

(٣٣) نفسه : ص ١٢٠ .

(٣٤) ابن خلدون : العبر (طبعة بيروت) ، ج ٦ ، ص ٣٠١ - ٣٠٢ .
وراجع : د . محمد عبد المولى : القوى السنية فى المغرب ، ج ١ ، هامش رقم ٤ ص ١١٧ - ١١٨ .

(٣٥) د . لقبال : دور قبيلة كتامة ، ص ١١١ و ١١٤ .

(٣٦) المرجع السابق : ص ٥٠٦ .

(٣٧) د . لقبال (ص ٥٠١ - ٥٠٤) من خلال عدة استنتاجات وجهته على أن جعفر بن فلاح كان « من بين الرعيل الاول للجيل الذى أشرف على تربيته المعز لدين الله وتكوينه من أبناء كتامة وشبابهم » .

(٣٨) المقرئى : اتعاط ، ج ١ ، ص ١٢٠ و ١٨٦ .

(٣٩) المصدر نفسه والجزء ، ص ١١٨ . مع ملاحظة ان كان لجعفر أبناء آخرون ، مثل : أبى محمد ابراهيم الذى سيرة الخليفة المعز لدين الله الى الشام اثر السحاب القرامطة عن مصر فى شعبان سنة ٣٦٣ هـ (مايو ٩٧٤ م) وصار والياً على مدينة دمشق . (راجع : المقرئى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٠٦ و ص ٢١٠ - ٢١٣ . وقارن : النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٥ ، تحقيق د . محمد جابر عبد العال الحينى ومراجعة د . عبد العزيز الأماوى ، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ حيث جملة ابن تحت القائد جوهر الصقل) . وكذلك أبى الحسن على وأبى تميم سليمان ، اللذين لما أوائل عصر الحاكم بأمر الله ، كما سترى بعد قليل .

(٤٠) د . لقبال : المرجع السابق ، ص ٥٠٢ .

(٤١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٥ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ ، والمقرئى : اتعاط ، ج ١ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

(٤٢) المصدران السابقان والأجزاء والصفحات .

(٤٣) أورد ابن القلائس (ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ م ، ص ٣١ ب ٣٢) ترجمة وافية عن يعقوب بن كنس مؤداها انه يهودى من أهل بغداد ، أقام مدة

بالشام حيث اشتغل بالتجارة في مدينة الرملة وصار وكيلًا للتجار بها . ثم دَخَ مصرَ زمنَ كافور الإخشيدي والتحق بخدمته ، فلما ظهرت كفاءته في نواحي الادابه والمال جعله كافور ينظر في ديوانه الخاص . ثم أعلن ابنُ كلس اسلامه في شعبان سنة ٣٥٦ هـ (يولية ٩٦٧ م) رغبة في المزيد من النفوذ ، فآثار بذلك حقد الوزير ابن الفرات الذي صادر ممتلكاته وحبسَه . ولما أطلق مراح ابن كلس خرج الى المغرب في شوال سنة ٣٥٧ هـ (سبتمبر ٩٦٨ م) ولحق بخدمة المعز لدين الله الفاطمي . فحظي عنده ، وكان من أكبر اسباب تحريض المعز على ارسال جوهري في حملته الى مصر . ثم ان ابن كلس صاحب المعز الى مصر حيث اشرف على الادارة في عهده . وترقت به الحال زمن العزيز بالله الفاطمي حتى صار المسئول الاول عن كافة شئون مصر الى حين وفاته في ذي الحجة سنة ٣٨٠ هـ (مارس ٩٩١ م) . وانظر كذلك : ابن تقي بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٥٨ . والصفحات التالية من هذا الفصل .

(٤٤) نسبه الى دنهاجة . وليل دنهاجة ان دنهاجة من فروع كتامة (راجع : ابن خلدون : العبر (طبعة بيروت) ، ج ٦ ، ص ٣٠١ - ٣٠٢) . وقد ظهر خلال الدور المغربي للخلافة الفاطمية كوال على القيروان في سنة ٣٣٦ هـ (٩٦٧ م) حيث نجح في امتصاص جماس سكان المدينة واستعدادهم للثورة آنذاك . (انظر : د. محمد عبد المولى : القوى البسية ، ج ١ ، ص ٥٣٥ وملمش رقم ١) . وقد انتهت حياته بمأساة جرت له في أيام الحاكم . يأمر الله على ما سبى بعد قليل .

(٤٥) عن ذلك انظر : ابن ميسرة : اخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٢٥٠ وتصحيح هيرى ماسيه ، مطبوعات المعهد العلمي العربي بالقاهرة ، ١٩١٩ ، ص ٤٥ ، والمقرئى : الباط ، ج ١ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٤٦) المقرئى : المصدر (السابق) ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

(٤٧) يوافق يوم العاشر من المحرم ذكرى حزن عند الشيعة . اذ قتل الحسين ابن علي بن ابي طالب في مثل هذا اليوم من سنة ٦١ هـ (اكتوبر ٦٨١ م) في خلافة يزيد الاول بن معاوية (الاول) . عن ذلك انظر : المسعودي : مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٧٠ - ٧١ . بينما يوافق يوم ١٨ ذي الحجة ذكرى فرح عندهم لاعتقادهم ان النبي - صلى الله عليه وسلم - بايع عليا بن ابي طالب بالولاية من بعده ، في ذلك اليوم من سنة ١٠ هـ (مارس ٦٣٢ م) عند غدير خم ، وهو واد بين مكة والمدينة . عن ظروف ذلك اليوم والاسيات التي احاطت به وتثبت عنه ، انظر : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٥١ .

وما بعدها . ود . محمد عبد المولى : القوى الستة : ج ١ ، ص ١٨٥ - ١٨٦
وهامش رقم ٥ .

٤٨) القرامطة من الشيعة الاسماعيلية . انتشروا في بادئ أمرهم في بلاد
ما بين النهرين جنوبي العراق ، وكونوا دولة مستقلة عن الخلافة العباسية ،
في منطقة الاحساء على الخليج العربي ، في فترة معاصرة للقيام الدولة الفاطمية في
المغرب . ومن هناك قاموا بغارات على خراسان واليمن وكذلك على جنوب الشام
الذي كان خاضعا للاخشيديين في مصر . وعن أسباب وتفاصيل هجومهم على المركز
الفاطمي في الشام ومصر ، انظر : التويري : نهاية الأرب ، ج ٢٥ ، ص ٢٢٧ -
٢٢٩ وص ٣٠٤ - ٣١٤ ، والمقرئزي : اتعاظ ، ج ١ ، ص ١٨١ - ١٨٦
وص ٢٣٨ .

٤٩) المقرئزي : اتعاظ ، ج ١ ، ص ١٣١ .

٥٠) المصدر نفسه والجزء ، ص ١٤٣ .

٥١) نفسه : ص ١٤٥ .

٥٢) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٤٥ ، والمقرئزي : اتعاظ ، ج ١ ،
ص ١٤٥ .

٥٣) المصدران السابقان والصفحات .

٥٤) المصدران السابقان والصفحات ، وخط المقرئزي : ج ٢ ، ص ٥٣٨ .
وراجع : د . لقبال : دور قبيلة كتامة ، ص ٥١٢ .

٥٥) وقد حدد ابن دقماق (الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، الجزء الرابع
والخامس في مجلد واحد ، ط ١ ، المطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٩ هـ) أماكن سكنى
مؤلاي المغاربة بالقبسطاط ، مما سيلي الإشارة إليه .

٥٦) ابن ميسر : ص ٤٦ ، والمقرئزي : اتعاظ ، ج ١ ، ص ١٥٠ .

٥٧) المقرئزي : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٣ .

٥٨) عن ظروف جنوب الشام ومنطقة فلسطين آنذاك ومسير حملة جوهر
بما تبع ذلك من مخالفة كتامة له ، انظر : التويري : نهاية الأرب ، ج ٢٥ ،
ص ٣١٤ - ٣١٦ ، والمقرئزي : اتعاظ ، ج ١ ، ص ٢٣٨ - ٢٤٢ . وراجع :
د . لقبال : دور قبيلة كتامة ، ص ٥٠٣ ، ود . محمد عبد المولى : بنو مرزاس
الكلابيون ، ص ١٣ وما بعدها ، وهامش رقم ٣ ص ٤١ .

٥٩) د . لقبال : المرجع السابق ، ص ٥٠٣ .

(٦٠) المقریزی : اتعاط ، ج ١ ، ص ٢٤٢ و ٢٤٤ .

(٦١) د . سرور : الدولة الفاطمية ، ص ١٠٢ ، ود . ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ١٩٦ . وتجدر الإشارة الى أن مصطلح « المشاركة » قد درج أهل المغرب على إطلاقه على كل من دخل في المذهب الشيعي بحسب أن أبا عبد الله الشيعي - داعي الفاطميين بالمغرب - كان من أهل المشرق . عن ذلك انظر : د . محمد عبد المولى : القوى السنية ، ج ١ ، ص ١٢٦ وهامش رقم ٦ .

(٦٢) المقریزی : اتعاط ج ١ ، ص ٢٤٤ .

(٦٣) المصدر نفسه والجزء ، ص ٢٦٩ .

(٦٤) نفسه : ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٦٥) نفسه : ص ٢٤٥ . حيث يشير المقریزی الى أن العزيز قد بلغه « أن الناس من العامة يقولون : ما هذا التركي ! فأمر به فشنر (أى أخرجه في موكب مشهور) في أجمل حال . فلما رجع من تطوافه وهب له مالا جزيلا وخلع عليه وأمر الأولياء بأن يدعوهم الى دورهم . فما منهم الا من أضافه » .

(٦٦) عندما شرع الخليفة العزيز لدين الله في المسير الى مصر - أواخر شهر شوال سنة ٣٦١ هـ (أغسطس ٩٧٢ م) - ترك حكم إفريقية (أو المغرب الأدنى) ليوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي المعروف ببلكين أو بلقين . واستمرت ولاية إفريقية حكما وراثيا في بيت يوسف بن زيري يستمد سلطانه الشرعي من خليفة مصر . حتى انفصل المغرب - بعد مراحل تدريجية - نهائيا عن مصر ، روحا وسياسيا ، سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) زمن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي وحكم المعز بن باديس الصنهاجي على المغرب (٤٠٦ - ٤٥٤ هـ / ١٠١٥ - ١٠٦٢ م) . عن ذلك انظر : ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٢٨ ، و ٢٤١ و ٢٧٧ ، والمقریزی : اتعاط : ج ١ ، ص ٩٩ . وراجع د . العبادي سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، ص ١٩٣ - ٢٢٠ .

(٦٧) ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٨ . وربما أراد المعز بالله كذلك أن يحتفظ بهؤلاء المشاهير من قادة صنهاجة كرهائن عنده في مصر ليضمن حسن ولاء نائبه أبي الفتوح أمير إفريقية ، الذي بدت نواياه في الاستقلال عن سلطان الخلافة الفاطمية تظهر منذ ذلك الحين .

(٦٨) ابن عذاري : ص ٢٣٨ .

(٨٧) ابن حجر العسقلاني : رفع الأمير عن قضاية مصر ، بإمر كتاب الدولة والقضاة للكندي ، تحقيق د. ف. ج. ج. ، ص ٩١٢ . وعلى بن النعمان هذا أحد أفراد أسرة النعمان بن حيون التي احتكرت منصب القضاء والدعوة الفاصية بمصر لأكثر من نصف قرن . كما سبق فيها بعد .

(٨٨) ابن حجر : المصدر السابق ، ص ٥٩١ . وراجع هذه الرواية عند المقرئ (اتعاط ، ج ١ ، ص ٢٤٧) حيث يشير إلى أن ابن أبي المنهال - القاضي على مدينة المنصورة - هو الذي طلب من الخليفة العزيز بالله أن يحضر إلى مصر بأهله وأولاده ، لوافق العزيز على ذلك .

(٨٩) ابن حجر : ص (٩٩ - ٥٩٢) . والجلبولى ربما كانت نسبة إلى داره جلبل من ديار الضباب بنجد ، فيها يواجه ديار فزارة . عن ذلك انظر : يا قوت الحموى : معجم البلدان (طبعة دار صادر ، بيروت) ، المجلد الثاني ، ص ١٥٠ ، وربما كانت صفة بمعنى الجري ، خليف الروح .

(٩٠) ابن حجر المصدر السابق والصفحة .

(٩١) د. سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٣٦ .

(٩٢) يشير المقرئ (اتعاط ، ج ١ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤) إلى وضوح سياسة

بلى زيرى حكام المغرب في الاستقلال عن سلطان الخلافة الفاطمية منذ أيام يوسف ابن زيرى نفسه (٣٦١ - ٣٧٢ هـ / ٩٧٢ - ٩٨٤ م) الذي استنابه الخليفة المعز لدين الله على حكم المغرب ، وأن المعز رد على ذلك بشدة وحرم . وقد تأكد هذا الشعور من جديد أيام الخليفة العزيز بالله ، وإمارة المنصور بن يوسف . وربما كان طلب العزيز احضار ألف من شجعان صنهاجة ، ودويهم - على نحو ما رأيناه - كنوع من ضمان حسن ولاء نائبه المنصور ، إلى جانب أن العزيز لمصد كذلك استنفار همم المغاربة بمصر ، كي يعودوا من جديد لإخلاصهم في طاعة الفاطميين ، مثلما كانوا من قبل . (انظر : ابن عذاري : البيان ، ج ١ ، ص ٢٣٨) .

(٩٣) تدخل ابن كلث في عزل بعض القادة الأتراك عن حكم المدن الشامية الخاضعة للفاطميين ، وولى آخرين عوضا عنهم ، بسبب خصومات شخصية بينه وبينهم . مثال ذلك ما حدث بينه وبين القائد بكجور ، يلتك في مدينة دمشق في شهر رجب سنة ٣٧٣ هـ (ديسمبر ٩٨٣ م) انظر : المقرئ : اتعاط ، ج ١ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ؛ ود. سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ١٤٣ .

(٩٤) المقرئ : المصدر السابق. والجزء ، ص ٢٦٢ .

(٩٥) المصدر نفسه والصفحة .

(٩٦) ابن منجب البصري : الإشارة إلى من تلك الوزارة ، مطبوعات المعهد
العلمي الفرنسي بالقاهرة ، ١٩٢٣ ، ص ٤٣ - ٤٤ : وراجع : د : حمدي المناوي ،
الوزارة والوزراء ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٩٧) المقرئزي : اتعاط ، ج ١ ، ص ١٥٠ .

(٩٨) انظر ما سبق ، ص ١٦٨ وهامش رقم (٥٦) .

(٩٩) ابن منجب البصري : الإشارة ، ص ٢٣ ، وراجع : د : لقبال : دور
قبيلة كتامة ، ص ٥٠٨ .

(١٠٠) ابن حجر : رفع الامر ، ص ٥٩٠ . ولاحظ ان ابن حجر يسميه
« الحسن بن القاسم » .
(١٠١) المصدر نفسه والصفحة .

(١٠٢) المقرئزي : اتعاط ، ج ١ ، ص ٢٦٢ . من ذلك ان ابن كلبي - الج
جانب استعادته لأمواله المصادرة مضافا اليها اعطيات أخرى كثيرة ، وعودة اسمه
إلى الظهور من جديد على الطراز - قد أعطى حق تملك ألف من غلمان المغاربة
وخمسمائة فتى آخرين ، صاروا بمثابة حرس خاص به . وصار يطلق عليهم
طائفة الوزيرية التي زاد عددها إلى أربعة آلاف غلام استعروا إلى ما بعد وفاة
ابن كلبي حيث اعتقهم العزيز بالله كرامة لوزيرهم (انظر في ذلك : المقرئزي :
الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٩) . ويعلق د : المناوي (الوزارة والوزراء ،
ص ١٤٣) على حادثة الافراج عن ابن كلبي وعودته إلى الوزارة بأن العزيز بالله
كان قد ابتعد بصالحه وحسن سياسته للأمور .

(١٠٣) المقرئزي : اتعاط ، ج ١ ، ص ١٤٧ ، وجمعهم ابن منجب (الإشارة ،
ص ٢٣) أربعة باضافة شخص آخر يدعى الحسن بن تأييد الله .

(١٠٤) ابن منجب : ص ٢٤ . وراجع : د : لقبال : المرحم السابق ، ص ٥٠٨ .

(١٠٥) ابن حجر : رفع الامر ، ص ٥٩٣ .

(١٠٦) المصدر نفسه ، ص ٥٩٤ .

(١٠٧) المقرئزي : اتعاط ، ج ١ ، ص ٢٦٨ .

(١٠٨) عن الأشخاص الذين تعاقبوا على رئاسة الدواوين في مصر خلفا لابن
كلبي ، انظر : د : حمدي المناوي : الوزارة والوزراء ، ص ٢٤٢ - ٢٤٤ وملحق
رقم (٣) الخاص بترتيب الوزراء وسنن حكمهم بتسلسل المرحم ، ص ٣٠٥ .

مع ملاحظة أن العزيز بالله لم يعلق على استخدام القتيبة وزيره وإنما له أنسطه .
دلالة على صغر شأنهم بالقياس لابن كلثوم .

(١٠٩) المقرئى : اتعاط ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

(١١٠) المصدر نفسه والصفحة .

(١١١) جعله ابن منجب (الإخبارية ، ص ٢٥) فى دواوين مصر مع آخرين .
بينما جعله ابن القلائس (ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٣) منفردا فى الاشراف على
الدواوين . ورجح د. المناوى (الوزارة والوزراء ، ص ٢٤٤) أن العزيز بالله
أشرك جماعة من المستخدمين فى الاشراف على دواوين مصر وكان الغالب عليهم
عيسى بن نسطورس .

(١١٢) ابن القلائس : المصدر السابق ص ٣٣ . حيث الاشارة الى أن ابن
نسطورس استناب عنه فى الشام يهوديا يدعى منشابن ابراهيم « فسلك مسلكه »
فى التوفر على اليهود ، وعيسى مع النصارى مثله ، وامشولى أهل هاتين الملتين
على الدولة .

(١١٣ ، ١١٤) ابن القلائس : المصدر نفسه والصفحة .

(١١٥) يلاحظ ان ابن عمار - وهو أبو محمد الحسن بن عمار بن علي بن أبي
الحسين الكلبي - ليس كتاميا وإنما هو من قبيلة كلب العربية التى استقرت أعداد
منها فى جزيرة صقلية . وكان منهم بنو أبي الحسين حكام الجزيرة من قبل
الفاطميين . عن ذلك انظر : المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٥١ . ويعلق
د. لقبال (دور قبيلة كتامة ، ص ٥٢١ وهامش رقم ١) على تزعم ابن عمار
لجموع كتامة فى مصر - رغم انه لم يكن كتاميا - بقوله : « انه (أى ابن عمار)
كان يشترك مع الكتاميين فى الانتساب الى المغرب ، وفى وحدة الهدف تجاه عنصر
المشاركة » .

(١١٦) انظر ما سبق : ص ١٦٢ وهامش رقم ٢٦ و ٢٧ .

(١١٧) ابن سعيد : النجوم الزاهرة ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(١١٨) أورد ابن سعيد (النجوم الزاهرة ، ص ١٠٥ - ١٠٦) نص الحوار
الذى دار بين ابن عمار وجوهر . ومؤداه أن جوهر كان قد احتجز بعض الأسرى
الأتراك من الكافورية والاختشيدية الذين قاوموا الفتح الفاطمى ، لحين عرصهم على
المعز لدين الله فور حضوره الى مصر . وقد أبدى المعز إعجابا كبيرا بأحد هؤلاء
الأسرى ، وصرح لجوهر - الذى دهش لمسلوك المعز - بأنه « سيدون لبعض ولدنا
غلام من هذا الجنس ، يتفق له فتوحات عظيمة من بلاد كثيرة ، ويرزقه الله على
يده ما لم يرزقه أحد منا مع غيره » .

(١١٩) تطلب الامن بعض المجاملة من المغاربة: في فور جهابهم: بوفاة المقرين: بالله
رحمهم جميع للتعزية بالقصر: فقام اجد: أبناء الامراء: الكنايين: وسط وجهم
الحاضرين: وأنشد مرثية: مطلعها:

انظر الى العلياء كيف تضام . وماتم الاخساب كيف تقام
خبرتي ركب الركاب ولم يدع . للسفر وجهه ترحل فأقاموا

فاستحسن الحاضرون ذلك: وقاموا: بعد أن عقد السندهم هول الموقف: -
أنشد كل شخص ما عمل من مرثي: وعلق المقرين (انما الحنفا: ج ١ ،
ص ٢٩٩) على ذلك بقوله: « وكان الصبي هو الذريعة الى ايراد ما اردوه ،
وكشف ما نزل به من المهابة والخافة » .

(١٢٠) وهي رتبة في معنى الوزارة: عنها انظر: د: حمدي المناوي:
الوزارة والوزراء: ص ٣٦ .

(١٢١) ابن ميسر: أخبار مصر: ص ٥٣ ، والمقرين: انما: ج ٢
(تحقيق د: محمد حلي محمد) ، ص ٤٠ . وراجع: د: لنبال: دور قبيلة
كتامة: ص ٥١٤ .

(١٢٢) المصادر والمراجع السابقة والصفحات .

(١٢٣) تم الاتفاق على تحديد مبلغ ثمانية دنانير لكل مقرب في كل دفعة .
رؤاد الحاكم على ذلك في أول دفعة فزادت عشرين ديناراً: لكن: على أساس أن
هذا اليوم وافق مناسبة توليه الخلافة ، أو ما عرف « بالفضل » وهو المال الذي
يمنح لرجال الدولة ، وخاصة الجنود في المناسبات: انظر المقرين: المصدر:
والجزء: ص ٤ وهامش رقم (٥) للمحقق .

(١٢٤) ابن ميسر: ص ٥٢ - ٥٣ ، والمقرين: المصدر والجزء: ص ٤ .

(١٢٥) المقرين: ص ٥ - ٦ .

(١٢٦) اختلفت الروايات في تحديد عمر الحاكم بأمر الله عند توليته الخلافة .
اذ قيل انه كان في العاشرة وأشهر (ابن القلائس: ذيل تاريخ دمشق: ص ٤٤ ،
وقيل في الحادية عشرة وأشهر (ابن ميسر: أخبار مصر: ص ٥٣ ، والمقرين:
انما: ج ٢ ، ص ٣) . وقيل في الخامسة عشر (الروزري: ذيل كتاب
تجارب الأمم: ج ٣ ، طبعه: ف: أمروزي: مطبعة النيدن الصناعية ،

القاهرة ١٩١٦ ، من ٢٢٢) . وقد أثبت د. مختار عبد المولى (بنوهر داس ، هامش رقم ٣٧ ص ٤٧ على متن من ١٦ ٢ . أن رواية الزوزري أكثر ضجة ومنطقية .
(١٢٧) ابن منجب الصيرفي : الإشارة ، ص ٢٦ ، وابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٥٣ - ٥٤ ، والمقريزي : اتعاظ ، ج ٢ ، ص ٥ - ٦ ، والخطط ج ٢ ، ص ٣٥١ .

(١٢٨) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٥٤ ، والمقريزي : اتعاظ ، ج ٢ ، ص ٦ .

(١٢٩) المقريزي : المصدر السابق والجزء : ص ٧ . وقد شارك على بن جعفر ابن فلاح أخاه أبا تميم سليمان في قيادة جيش الشام .

(١٣٠) المصدر نفسه والجزء ، ص ٨ - ٩ .

(١٣١) نفسه : ص ٨ ، مع ملاحظة أن ابن منجب الصيرفي (الإشارة ، ص ٢٥ وهامش رقم ٢) يذكر أن الخليفة العزيز بالله هو الذي قتل ابن نسطورس شقيقا على باب القصر . وقد رجع د. المناوي (الوزارة والوزراء ص ٢٤٤ - ٢٤٥) رواية المقريزي السابقة .

(١٣٢) المصدر نفسه والجزء : ص ١٠ - ١١ .

(١٣٣) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣١٢ . وإذا كان الخليفة العاطمي الحاكم بأمر الله قد ولي أبا نصر بن عبدون النصراني وساطته في شهر صفر سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) ولقبه بالكافى ، إلا أنه ما لبث أن عزل في شهر المحرم سنة ٤٠١ هـ (أغسطس ١٠١٠ م) بتحريض من الحسين بن جوه . على نحو ما سنبين فيما بعد .

(١٣٤) المقريزي : اتعاظ ، ج ٢ ، ص ١٢ . وراجع د. لقبال دور قبيلة كتامة ص ٥١٦ .

(١٣٥) يقصد بالمطابخ الخاصة : الأماكن المعدة لأعداد طعام الخليفة والأسطة التي تملأ في الاحتفالات العامة عن ذلك انظر : محمد قنديل البقلى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى للعلفشتندى ، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٣١٣ .

(١٣٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٤٤ - ٤٥ ، ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٥٥ ، المقريزي : اتعاظ ، ج ٢ ، ص ١١ - ١٢ . والخطط ج ٢ ، ص ٣٥٢ . وراجع د. لقبال : ص ٥١٥ - ٥١٦ .

(١٣٧) ابن القلائس : ص ٤٤ • وراجع : ذاك الطاهر اخند الزاوي : تربية
القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٦٠٦ مادة (وزغ) •

(١٣٨) ابن القلائس : ص ٤٤ - ٤٥ حيث يعرفنا ببرجوان على انه خفي
ابيض من الصقالبة ، عمل في القصر الفاطمي منذ ايام العزيز بالله ، ووصل الى
مرتبة استاذ ، اى كبير للمخدم • وظهر طموح برجوان ، فكان اول من مسلم على
الحاكم بالخلافة بعد وفاة العزيز بالله • وقد رد الحاكم تدبير امره الى برجوان
• مربيته وحاضنته • فعهد اليه بأمر الحرم والقصور • ووصفه المقرئى (الخطط
ج ٢ ، ص ٣٠٦ بأنه « كان سقلبيا تأقت نفسه الى الولاية » •

(١٣٩) ابن القلائس : ص ٤٥ •

(١٤٠) نفسه والصفحة •

(١٤١) نفسه : ص ٤٩ • وراجع : د • عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله
الخليفة المقتدى عليه ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣١ •

(١٤٢) ابن القلائس : ص ٤٨ •

(١٤٣) نفسه ، ص ٤٨ - ٤٩ ، والمقرئى : اتعاط ، ج ٢ ، ص ١٢ - ١٣ •

(١٤٤) المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ (تحقيق د • الميالى ، ص ٢٥٦ ،
حيث يشير - فى أحداث الشام سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) - الى أن جيشا بن
الصمصامة قد صار شبه وال على مدينة دمشق بعد خاله ابي محمود ابراهيم
ابن جعفر بن فلاح •

(١٤٥) ابن القلائس : ص ٤٨ • وراجع : د • حمدي المتاوى : الوزارة والوزراء

ص ٤٨ ، ود • لقبال : دور قنينة كتامة ، ص ٥١٧ ، ٥١٩ •

(١٤٦) المصدر نفسه : ص ٤٩ ، والمقرئى : اتعاط ، ج ٢ ، ص ١٢ - ١٣ •

(١٤٧) المصدران السابقان والصفحات •

(١٤٨) بلغت مخصصات ابن عمار اليومية والشهرية - له ولآله وحرمه -
ما مقداره « من اللحم والتوابل والفاكهة خمسمائة دينار فى كل شهر • مع ما كان
له من الفاكهة ، وهو فى كل يوم سلة بدينار ، وعشرة ارطال شمع كل يوم
وحمل ثلج من يومين • انظر : ابن منجب الصيرفى : الاشارة ، ص ٢٦ - ٢٧ •
وابن ميسر : اخبار مصر ، ص ٥٥ ، والمقرئى : اتعاط ، ج ٢ ، ص ١٣ •
والخطط : ج ٢ ، ص ٣٥٢ •

(١٤٩) المقرئى : اتعاط ، ج ٢ ، ص ١٣ •

الفصل الرابع

« المغاربة والأندلسيون في مصر

في العصر الفاطمي الثاني »

(٤٦٧ - ٥٦٧ هـ / ١٠٧٤ - ١١٧١ م)

(أ) في النصف الثاني من خلافة المستنصر بالله ووزارة بدر الجمالي.

(ب) أيام الخليفة المستعلي بالله ووزيره الأفضل .

(ج) أيام الخليفة الأمر ووزرائه .

(د) أيام الخليفة الحافظ ووزرائه .

(هـ) الفترة الأخيرة من عمر الخلافة الفاطمية .

(و) سقوط الخلافة الفاطمية وردود الفعل المفريية .

تمكن بدر الجمالى من الحضور الى مصر بطريق البحر ، فى شهر جمادى الأولى سنة ٤٦٦ هـ (فبراير ١٠٧٤ م) ، ومعه مائة مركب تقل قواته الخاصة . وغور وصولهم الساحل المصرى ، نزلوا بدمياط حيث طلب بدر من تجار المدينة المال اللازم لواصلته سيره الى العاصمة . فكان اول من قدم له يد المساعدة وقام بأمر ضيافته وما يحتاج اليه من المؤن والغلال ، سليم اللواتى « كبير اهل البحيرة واكثرهم مالا واوسعهم حالا » . ولم يكف سليم بذلك بل « أمدّه بالطرقات حتى قدم قليوب ، فنزل بها » (١) .

ولنا على هذا التصرف من جانب سليم اللواتى عدة ملاحظات منها :

— ان سليم اللواتى كان فى ذلك الوقت بمثابة الزعيم الاول لجموع اللواتيين المنتشرين فى الوجه البحرى ، والمستول عن وضع السياسة العامة لاتباعه .

— ان وصفه بأنه كبير اهل البحيرة والشخص الاكثر يسارا فيها ، ثم ظهوره على تلك الحال فى دمياط ، وقيامه بإمداد بسدر الجمالى وجنوده بحاجتهم من الأموال والغلال ، لما يؤكد أنه كان متملكا فعلا — بواسطة أتباعه اللواتيين — لناصرية الأمور فى الوجه البحرى ، شرقه وغربه . وان وسيلتهم فى ذلك كانت تتمثل فى شن الهجمات على أراضي الدلتا الزراعية واحتكار مزارعاتها ، كما سبق أن رأينا .

— ان اللواتيين كانوا يرغبون فى استمرار لعب هذا الدور الذى قاد عليهم بمكانة شخصية لا خسر لها ، وذلك لسنوات

كافة المفسدين ، اذ كان اعتماد بدر الجمالى بـ بالدرجة الاولى -
على جنوده الارمن . مما ترتب عليه أن صار هؤلاء المغاربة منذ ذلك
الحين يحتلون المكانة الثانية بين طوائف الجيش الفاطمى .

وما ان فرغ بدر الجمالى من اعادة الأمور الى نصابها فى
العاصمة ، حتى بدأ يوجه عنايته الى بقية الأقاليم . فاتجه أولا فى
سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥/٧٤ م) نحو الوجه البحرى حيث امضى
تلك السنة والتي تلتها فى مهاجمة مراكز تجمع اللواتيين هناك .
وقد وسع بدر دائرة حروبه فى هذه الجبهة حتى شملت كل أراضى
الوجه البحرى من الاسكندرية والبحيرة الى دمياط والشرقية .
وتمكن خلال هذه الممارك من الحاق هزائم متعددة بجموع
اللواتيين هنا وهناك ، وأسرف فى قتلهم حتى قيل انه « قتل من
أهل البحيرة نحو العشرين ألف انسان ، الى غير ذلك من أهل دمياط
والاسكندرية والغربية والشرقية » . وممن قتل فى هذه الحروب
سليم اللواتى وولده (٤) . واعقب ذلك قيام بدر الجمالى بمصادرة
ما انتزعه اللواتيون من ممتلكات الفلاحين المصريين ، وأعادها الى
أصحابها ، فصلح الحال هنالك (٥) .

وتجدر الإشارة الى أن حملات بدر المظفرة على مراكز تجمع
اللواتيين فى الوجه البحرى لم يكن الغرض منها ابادة هذه العناصر
جميعها ، بل مجرد كسر شوكتهم والقضاء على تسلطهم الذى وضح
فى سلوكهم تجاه الخلافة . لذلك كان من الطبيعى ان يستمر
وجودهم فى ذات الأراضى عقب انصراف بدر الجمالى . ولكن فى
شكل شراذم متفرقة هنا وهناك . والدليل على ذلك استمرار
مشاركتهم فى الأحداث التى تخللت عهود الخلفاء الفاطميين الذين
جاءوا بعد المستنصر . وزاد الأمر أهمية ، ظهور بعض الأفراد
اللواتيين ضمن عليّة القوم فى الفترة الأخيرة من وزارة بدر الجمالى ،
نفسه ، وأيام ابنه الأفضل الذى ولى الوزارة بعده ، كما سنبين .

وبعد أن اطمأن بدر الجمالى على أن الأمور قد أخذت صورتها الطبيعية فى الوجه البحرى سار فى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) الى الصعيد ، حيث كان العبيد السودان وجماعة من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة يواصلون اغاراتهم هناك . فسانقض عليهم وأفنى أكثرهم وغنم منهم مغانم كثيرة . ثم واصل زحفه الى مدينة أسوان وقضى على نفوذ عرب ربيعة (أو الكنوز) المتزايد فى تلك الناحية . وأعاد بذلك هيبة الخلافة الفاطمية على جميع بلاد الوجه القبلى حتى أسوان (٦) .

ولاشك أن بدر الجمالى قد لاحظ - قبل مغادرته مدينة أسوان عائدا الى القاهرة - أن منطقة الواحات بحاجة هى الأخرى الى سياسته الإصلاحية ، كى يتم بذلك جهوده فى تأمين حدود مصر الجنوبية بشكل نهائى . وحقيقة الأمر أن احوال الواحات كانت قد أخذت فى التدهور بشكل واضح قبل ذلك بسنوات ليست بالقليلة . يدلنا على ذلك اشارة البكرى الى تعرض هذه المنطقة لغزوة ناجحة قام بها عرب بنى قرة ، فيما بعد سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) (٧) . وخلال سنوات الشدة العظمى ، يمكن القول بأن اقتصاديات الواحات قد تأثرت كثيراً باغارات العبيد السودان وعرب جهينة والثعالبة والجعافرة على أنحاء الصعيد ، وذلك بحكم قرب المنطقة من الصعيد . هذا فى الوقت الذى أكد فيه ساويرس أن حكم الواحات قد بات معقودا - اثناء الشدة - لأحد المتغلبين على الاقليم من أمراء عرب بنى قرة ، وكان يدعى عدة الدولة مقرب ابن ماضى (٨) . مما يعنى أن تغلب البيوتات اللواتية على حكم الواحات قد انتهى منذ زمن . وإلى جانب ذلك استمرت اغارات عرب سليم - من مناطق سكناهم الجديدة بصحراء برقة وطرابلس - على اقليم الواحات . وهؤلاء كانوا يستغلون نزولهم الى أرض الواحات - فى فصل الصيف على ما يبدو - ويحصلون

عنوة على احتياجاتهم من تمر المنطقة ، كما كانوا يتحكمون في
احمرات المؤدية الى الواحات ، فيقطعون بها الطريق على من ارادها ،
او من خرج منها » (٩) .

كل ذلك يجعلنا نرجح أن بدر الجمالى استغل وجوده
بالقرب من اقليم الواحات ليعمل على اصلاح الأوضاع فيه . وكانت
الوسيلة التى ارتأها بدر - على ما يبدو - مناسبة لذلك أن يجعل
حكم المنطقة تحت التبعية المباشرة للحكومة الفاطمية . ومن المؤكد
أنه ارسل حامية من جنده لترابط فى الواحات ، واختار لها قائداً
من قبله يتصرف فى شئون المنطقة وفقاً للأوامر التى تصدر اليه
من القاهرة . بمعنى ان كافة الشئون الداخلية لاقليم الواحات
صارت منذ ذلك الحين تدار بمعرفة وتدير الوزراء الفاطميين فى
القاهرة . أو كما قال ابن دقماق - فى معرض حديثه عن الواحات -
انها « صارت مضافة الى مصر » بعد أن « كانت فى القديم مملكة
قائمة بنفسها وكان لصاحب مصر على صاحبها قطيعة » (١٠) .
واقرب الأمثلة على ذلك : اهتمام الوزير الفاطمى المأمون بن
البطائحى - الذى سبى الحديث عنه - بإنشاء مسجد كبير
بالواحات ، بعد أن وصلته تقارير عن حاجة المنطقة لمسجد جامع
بها . وقد افتتح هذا المسجد - الذى عرف بجامع الواحات -
للصلاة فى شهر شوال من سنة ٥١٧ هـ (ديسمبر ١١٢٣ م) (١١) .
وسنرى فيما بعد أمثلة أخرى لاستمرار ادارة شئون الحكم فى
الواحات من قبل الحكومة المصرية فى العاصمة خلال عصور
الايوبيين والمماليك .

ولم تلبث جهود بدر الجمالى أن آتت ثمارها بحيث عادت
البلاد - من جديد - تنعم بالهدوء خلال الفترة المتبقية من وزارته .
باستثناء حادث شغب قام به عرب قيس وسليم وفزارة ، فى شهر
رجب من سنة ٤٦٩ هـ (يناير ١٠٧٧ م) بناحية البحيرة ، مستغلين

غيا ب بدر فى أسوان . وقد تمكن بدر الجمالى من معالجة أمرهم « وقتلهم وطردهم باقيهم الى برقة » (١٢) . كذلك حاول الأوحـد — الابن الأكبر لبدر الجمالى — الخروج على أبيه بمدينة الاسكندرية فى سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٤ م) . وربما كان انتزاع الأوحـد بناحية الاسكندرية مدعاة للقول بأنه حاول اجتذاب العناصر الساخطة من بربر لواتة ومن على شاكلتهم ، المقيمين بجوار المدينة ، معتمدا على انهم سينضمون اليه رغبة فى الانتقام لما حل بهم على يد والده . الا أن بقاءه بمدينة الاسكندرية وتحصنه داخل أسوارها ، وعدم الإشارة الى امتداد ثورته خارج نطاقها يدل على انهم لم ينضموا اليه بسبب حاجتهم لفرصة يلتقطون فيها أنفاسهم . وعلى أية حال ، فان أمير الجيوش — وهو أحد الألقاب العديدة التى نعت الخليفة المستنصر بها وزيره بدر — تمكن من القضاء على ثورة ابنه فى ذات السنة ، وعاقب أهل المدينة بغرامات مالية سخرها لبناء الجامع المعروف فى الاسكندرية بجامع العطارين (١٣) .

واستمر بدر الجمالى قابضا على السلطة بيد من حديد الى حين وفاته فى شهر ذى القعدة من سنة ٤٨٧ هـ (نوفمبر ١٠٩٤ م) ، فخلفه ابنه الأفضـل فى منصب الوزارة والهيمنة على شئون الدولة من دون الخليفة المستنصر . وتكفى الإشارة الى أن الأفضـل انتهز فرصة وفاة المستنصر فى ١٨ ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ (ديسمبر ١٠٩٤) وأقدم على تحويل الخلافة الى أصغر أبناء المستنصر ، أبى القاسم أحمد ، ولقبه بالمستعلى بالله (٤٨٧ هـ / ٤٩٥ هـ / ١٠٩٤ - ١١٠١ م) بدلا من نزار الابن الأكبر للمستنصر . الأمر الذى أدى الى انقسام اتباع المذهب الفاطمى الشيعى الى نزارية يؤيدون نزار ، ومستعلية يؤيدون المستعلى الخليفة القائم فى الحكم (١٤) .

وفيما يختص بآثر هذه الخطوة على تطور الأحداث فى مصر ، فان نزار لم يعترف بسياسة الأمر الواقع التى فرضها الأفضـل

عليه وعلى باقى أفراد أسرة المستنصر . وخرج مغاضبا ، هو وأخوه الأمير عبد الله ، الى الاسكندرية حيث استملا واليها ناصر الدولة أفتكين التركى أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالى .

وان يكون النصير الاول لنزار بن المستنصر أمام سسلطان الافضل فى القاهرة وقت صدور قرار تولية المستعلى ، وثالث الثلاثة فى رحلة الذهاب الى الاسكندرية ، واكبر الأعوان ساعة المواجهة ضد قوات الافضل على أبواب المدينة حتى اشتداد المحنة على نزار ووضوح مدى الخطر فى استمرار التعنت والمقاومة : هو الأمير اللواتى محمود بن مصال اللكى ، الذى ترجع أصوله الى قرية لك من أعمال برقة (١٥) ، كل ذلك لما يتطلب القضاء الضوء على هذا التطور الجديد من نوعه فى تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر .

يقول ابن ميسر فى وصف ذلك : « ... فاجتمع الأفضل بعد موت المستنصر والأمراء والخواص ، وخوفهم من نزار وأشار عليهم بولاية أخيه الصغير أبى القاسم أحمد (بن المستنصر) . فرضوا بذلك ما خلا محمود بن مصال الملكى (وهو خطأ والصحيح الملكى كما فى باقى الروايات) ، فان نزار وعده بالوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل . فلما علم ابن مصال الحال ، اعلم نزارا بما تقدم . وبادر الأفضل باخراج أبى القاسم أحمد وبإيعه بالخلافة . . وبادر نزار وأخوه عبد الله وابن مصال الملكى (اللكى) الى الاسكندرية . وكان الوالى بها ناصر الدولة أفتكين التركى أحد مماليك أمير الجيوش بدر ، وعرفوه الحال ووعدوه بالوزارة ، فبايعه هو وأهل الاسكندرية » (١٦) .

— وأول ما يلفت الانتباه أن محمود بن مصال كان معروفا ضمن الأمراء والخواص قبيل وفاة المستنصر ، وبرزت أهميته من خلال حضوره اجتماع الأفضل بكبار رجال الدولة . فلعله كان

يمثل بعض العناصر اللواتية من المغامرين الذين اتبعت لهم الفرصة
فتسللوا الى العاصمة طمعاً في شغل بعض المناصب التي تدر عليهم
عائداً ثابتاً ، وذلك بموجب قرار المستنصر الخاص بالسماح
للواتيين بالعمل في الجيش الفاطمي (١٧) .

— ثم أن رفض ابن مصال قرار الأفضل بتنحية
نزار بن المستنصر عن الخلافة فور سماعه له ، واسراعه بتببيع نزار
بمضمون الاجتماع ، يدل على وجسود تفاهم مسبق بين نزار
وابن مصال قبيل وفاة المستنصر . وهو ما تأكد من خلال الإشارة
الى الوعد الذي كان نزار قد أعطاه لابن مصال بأن يجعله في الوزارة
وامرة الجيوش بدلا من الأفضل عند صيرورة الخلافة الى نزار .
ويبدو ان خلفية هذا التقارب بين الاثنين ترجع الى وقت وفاة
بدر الجمالي حينما ظهر بوضوح ميل القادة الأرمن للاستبداد
بالأمر ، ووصل الحال الى أنهم ضغطوا على المستنصر بالله كي يتم
تعيين الأفضل في الوزارة تنفيذاً لرغبة سيدهم بدر الجمالي .
وكانت الوسيلة التي اتبعوها لأرغام المستنصر على ذلك من الجراة
بحيث أثارت الشعور بالاستياء واضطر المستنصر معها للاذعان
لطلبهم (١٨) . ولا شك ان نزارا — وهو لم يزل بعد وليا للعهد —
قد أدرك حينئذ أن الأرمن أشد خطراً على الدولة من العناصر
الأخرى ، وصار ينظر الى الأفضل باعتباره مفروضا على الخلافة ،
وعبر في أكثر من مناسبة عن كراهيته له (١٩) . والجديد في
هذا ان اختيار نزار للعناصر التي ستصلح — في اعتقاده الخاص —
بديلا عن الأرمن ومقدمهم الأفضل بن بدر الجمالي ، لم يكن منصبا
على قادة الفرق العسكرية من المغاربة الباقين في الخدمة ، بل اقتصر
هذا الاختيار على الشخصيات اللواتية الموجودة في العاصمة . ولهذا
كان الاتفاق الذي أبرمه مع محمود بن مصال ، على أن يتولى الأخير
الوزارة اذ ما تم لنزار الأمر وصار خليفة بعده أيه .

وقد كان ما رأيناه من مبادرة الأفضل بتنحية نزار عن الخلافة ، وقرار الأخير هو وإخوه الأمير عبد الله ومحمود بن مصال اللكى الى ناحية الاسكندرية ، حيث استمالوا واليها ناصر الدولة أفتكين الى جانبهم . ولم يلبث الأفضل أن خرج على رأس جنوده فى شهر المحرم من سنة ٤٨٨ هـ (يناير ١٠٩٥ م) لقتالهم . الا ان الهزيمة سرعان ما لحقت به وبجنوده ، فاضطر الى الانسحاب عائداً الى القاهرة (٢٠) . ولا شك ان النصر الذى أحرزه نزار جعل حركته مطمعا لكل مغامر يريد الكسب السريع . وهنا برز دور ابن مصال فى جذب أعداد - وصفت بانها لا حصر لها - من اللواتيين المنتشرين حول الاسكندرية ، هذا الى جانب من انضم اليهم من طوائف العربان والسودان . حتى قيل ان عدة جيش نزار زادت على ثلاثين ألف فارس وراجل (٢١) . وتشجع نزار على التقدم بجموعه تلك نحو العاصمة ، ووصلوا الى المكان المعروف بكوم الريش - القريب من القاهرة - « وهم مصرون على الفساد مستمرون على البغى والفساد » . وذلك حسبما وصفهم كاتب الوثيقة الرسمية التى أرخت لهذه الحركة بلسان حال الخليفة المستعلى الفاطمى (٢٢) .

على اننا نلاحظ ان هذه الوثيقة قد أغفلت ذكر اسم محمود بن مصال اللكى ضمن قادة هذه الحملة ، وأشارت الى أن نزار وناصر الدولة أفتكين هما اللذان شرعا فى مهاجمة القاهرة (٢٣) . ونستنتج من هذا ان الاتفاق بين الزعماء الثلاثة جرى على أن يتولى نزار وأفتكين قيادة الحملة ، بينما يبقى ابن مصال فى الاسكندرية ليحمى ظهريهما ويحافظ على استمرار وصول الامدادات لهما ويؤمن انسحابهما وعودتهما الى الاسكندرية فى حالة الفشل .

وعلى الجانب الآخر شرع الأفضل فى إعادة ترتيب صفوفه ، اثر انسحابه من الاسكندرية . ومن المؤكد انه فكر - آنذاك -

الشعور كان صادقا ، حتى ان ابن مصل عندما عاد الى القاهرة بعد ذلك كان كل الذى ناله من عقاب انه « لزم داره مدة » ثم رضى عنه الأفضل وكرمه « (٢٦) . كذلك نلاحظ ان الخليفة المستعلى لم يعمد الى التصريح باسم ابن مصل ضمن القادة الثائرين مع نزار ، وذلك فى السجلين الرسميين اللذين امر بكتابتهم تخليدا لذكرى انتصار الخلافة على هذه الفتنة ، وما ذلك الا حرصا منه على ما يبدو — على عدم ذیوع اسم ابن مصل فى الأفق على انه حاص للخلافة (٢٧) .

فربما كان ذلك تعبيرا عن شعور الادارة الفاطمية بإمكان حدوث تعاون مثير بينها وبين هذه العناصر اللواتية . وعلى أية حال ، فان هذا الجو الودى الذى اختص به محمود بن مصل اللكى ، قد ساعد على اشتهاار أسماء بعض أفراد أسرته فى الفترة التى تلت خلافة المستعلى بالله ، كما سنرى .

واذا كان الأمر قد تم على هذا النحو مع ابن مصل ، فعلى النقيض من ذلك أقدم الأفضل على نفى أسرة مغربية — عربية — شهيرة عارض أفرادها فى مسألة تنحية نزار بن المستنصر عن الخلافة ، وهى أسرة بنى عبد القوى التى ينتهى نسبها الى ذرية بنى الأغلب التميميين حكام ولاية إفريقية قبل قيام الدولة الفاطمية . وكان أفراد هذه الأسرة قد احتكروا العمل فى مجال الدعوة الفاطمية وجمع التبرعات للمذهب أو ما عرف بالنجاوى . وجالس كثير منهم الخلفاء الفاطميين حتى صاروا يعرفون ببني الجليس . فانتقل بعضهم الى الأندلس ، وأقام البعض الآخر فى المغرب (٢٨) .

ولا يعنى هذا ان الأفضل تنكر للجماعات المغربية العاملة فى خدمة الدولة ، فقد رأينا انه اشرك أعدادا منهم فى القضاء على ثورة نزار . كما أن المقرئى يشير الى اتخاذ الأفضل أعدادا من المصامدة كحرس خاص لأحد أبواب القصر الفاطمى المعروف بباب

الخوخة(٢٩) . ويبدو أنه حرص على توحيد العناصر المغربية جميعها بما فيهم اللواتيين — حديثي العهد في الخدمة — تحت قيادته ، مع تطهير الجبهة الداخلية من المناوئين ، حتى يتمكن من تسخير كافة طاقات الدولة لصد الخطر الصليبي الداهم في ارض الشام . وقد أكد ابن الأثير على أن الأفضل نجح كذلك في استمالة بعض المغاربة الوافدين الى مصر في طريق الحج — للاشتراك في الحملات التي أعدها لقتال الصليبيين بالشام . وأشار في ذلك الى اشتراك أحد أمراء المرابطين (الذين قامت دولتهم بالمغرب الأقصى في سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) في الوقعة التي جرت بين الجيش المصري والصليبيين عند مدينة عسقلان في شهر رمضان من سنة ٤٩٢ هـ (يولية / أغسطس ١٠٩٩ م) (٣٠) .

واستمر الأفضل قابضا على زمام الأمور حتى وفاة الخليفة المستعلى بالله في شهر صفر سنة ٤٩٥ هـ (نوفمبر ١١٠١ م) ، فتولى اخذ البيعة لأبى على المنصور بن المستعلى ، وهو حينئذ طفل صغير (٥ سنوات) ونعته بالأمر بأحكام الله (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ ١١٠١ — ١١٣٠ م) . مما ساعد الأفضل على أن يستمر في الاستبداد بشئون الدولة الى حين وفاته ، قتيلا في آخر شهر رمضان سنة ٥١٥ هـ (ديسمبر ١٠٢١ م) بأيدي جماعة من النزارية ، وقيل أن الخليفة الأمر رتب له من قتله (٣١) .

ولا يخفى علينا أن فترة حكم الخليفة الأمر ووزارة الأفضل هي التي شهدت تحول جماعات الحجاج والدارسين المغربية والاندلسيين بهصر الى أسلوب المعارضة الايجابية في تعاملهم مع السلطة الفاطمية . وهو ما تجلى في الدور الذي قام به العالم الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (نزيل الاسكندرية منذ سنة ٤٩٥ هـ حتى وفاته في سنة ٥٢٠ هـ / ١١٠٢ — ١١٢٦ م)

الذى جاهر بمعارضة الفاطميين في أدق تفاصيل المذهب الفاطمى وفى نظم الحكم الخاصة بهم ، كما سنبين فيما يتقد (٣٢) . وأوضح كذلك فى ممارسات بعض تلاميذه ومعاصريه ، وعلى رأسهم الخليفة التستوسى أبو عبد الله محمد بن تومرت المعروف بالمهذى (٨٥٠ - ٥٩٤ هـ / ١٠٩٢ - ١١٣٠ م) صاحب الباغ الطويل فى إقامة دولة الموحدين فى نواحي المغرب الأقصى منذ سنة ٥١٥ هـ (١٢٢١ م) (٣٣) . اذ تصادف وجوده فى الاسكندرية حوالى سنة ٥١٠ هـ (١١١٧/١٦ م) فى ختام رحلته العلمية قبل أن يرجع الى موطنه اقليم السوس فى جبال اطلس . فأقام بالمدينة وحرص على بحضور مجلس علم أبى بكر الطرطوشى . ولا شك أن هذه اللقاءات ساعدت على فضج الشعور الثورى فى داخل ابن تومرت ، اذ نحن المعروف عنه أنه نصب من نفسه مدافعا عن حقوق الاسلام التى رأى انها على وشك الضياع فى المشرق - فى ظل الخلافتين الهرميتين العباسية والفاطمية - وفى المغرب فى ظل حكم المرابطين (٣٤) . وأدى ذلك الى ان ابن تومرت شرع فى مهاجمة الاوضاع السائدة فى مدينة الاسكندرية بكل شدة وعنف « وجرت له بها وقائع فى معنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، انضت به الى أن نفاه متولى الاسكندرية عن البلاد ، فركب البحر » (٣٥) . بيد أن ابن تومرت لم يخرج من مصر - فى شهر ذى الحجة من سنة ٥١١ هـ (مارس ١١١٨ م) - عائداً الى المغرب (٣٦) ، الا بعد أن ترك بها جماعة من أنصاره ومعتقى مبادئه . وقد قدر البيهقى عددهم بواحد وخمسين رجلا ، وذكر أسماءهم فرداً فرداً (٣٧) .

وعلى الرغم من أن هؤلاء الأعوان لم يكونوا جميعا من المغاربة - كما يتضح من أسمائهم التى حددها البيهقى - الا أن تأثيرهم الشديد بأفكار استاذهم ابن تومرت جعلهم مصدر قلق للدولة الفاطمية فى اخريات أيامها ، بما روجوه عن قرب استيلاء الموحدين

— بعد أن قامت دولتهم بالمغرب الأقصى في سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) —
على مصر . لدرجة جعلت الوزير الفاطمي الصالح طلائع بن رزيك
— الذي وُزر من سنة ٥٤٩ هـ إلى سنة ٥٥٦ هـ (١١٥٤ —
١١٦١ م) — « يتوقع أن يأخذ ابن عبد المؤمن (الخليفة الموحدى)
البلاد من يديه » (٣٨) . وجدير بالذكر أن هذه العصابة من أنصار
ابن تومرت بالديار المصرية استمروا مصدر قلق فى مصر إلى
ما بعد قيام الدولة الأيوبية فى الحكم كما سنرى فى حينه .

وعقب مقتل الأفضل بن بدر الجمالى ، تولى المأمون بن
البطائحي الوزارة للخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله . ويمكن القول
بأن المأمون — خلال فترة وزارته (٥١٥ — ٥١٩ هـ / ١١٢١ —
١١٢٥ م) — قد انتهج سياسة متوازنة تجاه الأفراد والجماعات
التي تشكل من مجموعها التيارات المغربية الثلاثة الموجودة بمصر .
ومما يذكر له فى هذا الصدد . . موقفه المعتدل من جماعات العلماء
وطلاب العلم والحجاج الوافدين إلى مصر من أهل المغرب
والأندلس ، وخاصة الفقيه أبى بكر الطرطوشى . مما ساعد على
اشتهار أسماء أخرى لبعضهم ، لمعت فى الحياة العلمية بمصر أثناء
وجوده فى الوزارة (٣٩) .

ويذكر للمأمون كذلك أنه سعى فى تعزيز وجود الطوائف المغربية
من موالى الدولة ، فأقدم فى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) على تعيين
واحد منهم — هو أبو الحجاج يوسف بن أيوب بن اسماعيل
المغربى — فى منصب قاضى قضاة الديار المصرية ، وكلفه بالاشراف
على شئون القضاء والخطابة والصلاة وديوان الاحباس ودور
الضرب بسائر أعمال المملكة . ونعته بالقاضى جلال الملك تاج
الاحكام ، بعد أن كان فى قضاء الغربية (٤٠) . بيد أن اختصاص
الوزير المأمون بطائفة المصامدة كان أكبر ، إذ يشير المقرئى إلى

أن المأمون أصطفى مقدمهم عبد الله المصمودي « فقدمه ، ونسوه
بذكره ، وسلم اليه ابوابه للمبيت عليها . واطاف اليه جماعه من
أصحابه » . ثم انه أمر بإنشاء حارة للمصامدة ، وعهد الى اخذ
قادتهم ، المدعو أبو بكر المصمودي بمتابعة ذلك ، وسير معه
المهندسين وعدد البناء (٤١) . ورغم انه لم يرد تاريخاً محدداً
للبدء بإنشاء هذه الحارة ، بل اقتصر القول على انها اُخُنِطت « بعد
سنة خمس عشرة وخمسمائة (١١٢١ م) » (٤٢) . الا اننا نرجح
أن ذلك حدث في خلال شهور سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) ، كرد فعل
لما بدر من بربر لواتة بناحية البحيرة في تلك السنة . اذ شغبت
طائفة منهم في هذه الناحية وامتد شغبهم — آنذاك — الى مدينة
الاسكندرية وأعمالها . فسير المأمون لقتالهم جيشاً بقيادة اخيه
نظام الدين أبي تراب حيدرة الملقب بالمؤتمن « فكسرهم ، وقتل منهم
خلقاً كثيراً ، وكسب خيولهم وأموالهم » ، وأجبر زعماءهم على
الاستسلام ، وألزمهم بدفع مبلغ ٣٠ ألف دينار مقابل العفو
عنهم (٤٣) . واذا كان هذا سبباً كافياً لإبعاد الشخصيات اللواتية
الموجودة بالعاصمة عن دائرة اصطفاء المأمون ، فاننا — في
الحقيقة — لا ندري السر وراء اختصاص المصامدة دون باقي
الرفاق القدامى أمثال الكتامين والبرقيين بهذه المكانة التي صارت
لهم أيام المأمون . ويمكن القول بأن المأمون ربما اختارهم ليكونوا
فرقة خاصة به ، يأترون بأمره ، ويكونون عوناً له وقت الحاجة ،
لا سيما وأنه سعى في الاستبداد بالحكم دون الخليفة الأمر ، ونسبت
اليه في هذا المجال أمور كثيرة (٤٤) .

وقد رد الخليفة الأمر بأحكام الله على ذلك بأن قبض على وزيره
المأمون ، وجماعة من أهله وخواصه ، واعتقلهم في أوائل شهر
رمضان سنة ٥١٩ هـ (أكتوبر ١١٢٥ م) ، وبأشهر شئون الحكم
بنفسه بمساعدة بعض الموظفين . واستمر الأمر بغير وزراء

حتى وفاته قتيلا بأيدي جماعة من النزارية ، في شهر ذي القعدة
سنة ٥٢٤ هـ (أكتوبر ١١٣٠ م) . فتولى الخلافة من بعده الأمير
أبو الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر ، وتلقب
بالحافظ لدين الله (٥٢٤ هـ - ٥٤٤ هـ / ١١٣٠ - ١١٤٩ م) (٤٥) .

تميزت خلافة الحافظ بأنها كانت عبارة عن صراع متصل
فيما بينه وبين وزرائه ، نتيجة لمباغتتهم في الاستبداد بشئون الحكم ،
في حين سعى الحافظ في تقوية قبضته على حسابهم . فقد حدث
هذا الصدام مع أبي علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي ،
المعروف بكتيفات (الذي تولى الوزارة من ١٥ ذي القعدة سنة
٥٢٤ هـ إلى ١٦ محرم سنة ٥٢٦ هـ = أكتوبر ١١٣٠ - ديسمبر
١١٣١ م) (٤٦) وأبي الفتح يانس الأرمني (وزير عقب مقتل كتيفات
واستمر حتى ٢٦ ذي الحجة سنة ٥٢٦ هـ - نوفمبر ١١٣٢ م) (٤٧) .
ثم تكرر مع رضوان بن الولخشى (تولى الوزارة في ١١ جمادى
الأولى سنة ٥٣١ هـ واستمر حتى ١٤ شوال ٥٣٣ هـ - فبراير
١١٣٧ - يونية ١١٣٩ م) (٤٨) . ولم يستثن من ذلك إلا بهرام
الأرمني (وزير في ١١ جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ هـ حتى خلع رضوان
ابن الولخشى في ١١ جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ - أبريل ١١٣٥ -
فبراير ١١٣٧ م) الذي لم يؤخذ عليه شيء غير كونه نصرانيا
فقط (٤٩) .

أما عن الوجود المغربي في مصر - بصفة عامة - فقد
عبر عن نفسه في أحداث هذه الفترة من خلال عدة ملاحظات ،
نجلها فيما يلي :

١ - أن الفرق المغربية - من موالى الدولة - قد استمرت
على الطاعة لشخص الخليفة الحافظ أثناء صراعه مع وزرائه .
وبرز في هذا المجال الجنود الكتاميون ، حتى أن ابن خلدون يشير
إلى أنهم كانوا أساس التحالف المعادي - الذي تزعمه أبو الفتح

وحدث في سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ان تمكن رضوان بن الولخشى - الوزير المخلوع - من الفرار من حبسه بالقصر ، بعد ان يقب الجدر ، وعبر النيل الى ارض الجيزة . وهناك استطاع ان يضم اليه فرقة لاباس بها من « لواتة وعدة من الأجناد » . ثم عاد بهم الى القاهرة حيث انتصر على جيش أعده له الخليفة الحافظ عند جامع ابن طولون ، وشرع في حصار القصر . وارسل رضوان الى الحافظ يطلب منه الأموال كي ينفق فيمن معه . وهنا يشير ابن الاثير الى ان معظم اتباع رضوان انفصوا عنه بمجرد حصولهم على نصيبهم من الأموال (٥٨) . بمعنى ان مساعدة اللواتيين له انما كانت للحصول على الأموال فقط . فسهل ذلك على الخليفة الحافظ ان يدس عليه من قتله . ويلاحظ ان الحافظ قد استعان في ذلك ببعض الجنود السودان ، مما يوحي بأنه قد أدرك أن استعانة رضوان بالمغاربة من بربر لواتة ، قد قطع عليه - أى على الحافظ - الفرصة في الاستعانة بفريق المغاربة الموالين للدولة في تنفيذ هذا الأمر ، على أساس استحالة أنهم سيخلصون في حرب بنى عمومتهم . وعلى أية حال فان فتنة رضوان أخذت بمقتله في ذات السنة (٥٩) .

وفي أعقاب ذلك مباشرة ، وبالتحديد في شهر صفر من سنة ٥٤٣ هـ (يونية ١١٤٨ م) ، حدثت ثورة في أرض البحيرة وبرقة نتيجة انضمام اللواتيين لأحد المطالبين بعرش الخلافة الفاطمية ، وكان قد قدم الى هذه الناحية من المغرب « وادعى انه ابن نزار » . فسير الحافظ حملة للقضاء عليه وعلى حلفائه ، الا أن الدائرة دارت على جيش الخلافة . ولم يجد الحافظ غير استخدام سلاح المال للايقاع بين هذا الثائر واللواتيين حلفائه ، فسير اليهم عسكرياً ثانياً ، ودس الى مقدمى لواتة مالا جزيلاً ليقتلوا ابن نزار ، فقبلوا المال وقتلوا المذكور ، وبعثوا برأسه الى الحافظ . وذلك في صفر .

وعادت العساكر في ثانی ربيع الاول (من تلك السنة / يونية —
يولية ١١٤٨ م) « (٦٠) .

ومما يلفت الانتباه أن الفترة التي كثف اللواتيون خلالها
نشاطهم على حساب الدولة الفاطمية ، هي ذاتها التي شهدت
سطوع نجم بعض القادة اللواتيين في سماء العاصمة ، حتى صار
أحدهم وزيرا . فهل كان ذلك تعبيرا عن ثقة هذه العناصر المشاغبة
في إمكان سكوت الحكومة الفاطمية عن أحداث الشغب التي
راحوا يشيرونها ، فضلا عن تعاونها معهم ، بعد أن قلب عليها
أفراد من بني جلدتهم ؟ وقد يدعو إلى إثبات هذه العلاقة بين الطرفين
أن الخليفة الحافظ صرف نجم الدين بن مصال عن الوزارة ،
في أعقاب القضاء على فتنة رضوان نهائيا سنة ٥٤٢ هـ
(١١٤٧ م) (٦١) .

غير أننا في الحقيقة لا نجد ما يدعو لعقد هذه المقارنة ، ويمكن
احتساب ذلك من قبيل المصادفة . على أساس تباعد ما بين
وجهتي النظر اللواتيتين : فقد ظهر القادة اللواتيون العاملون في
الخدمة في صورة الحريصين على الدولة والنظام ، بينما ظهر
الطرف الآخر على النقيض من ذلك . أما صرف ابن مصال عن
الوزارة — في أعقاب مقتل رضوان — فإن ذلك كان متعلقا بما عاناه
الخليفة الحافظ من وزرائه جملة ، بحيث صار على يقين من ضرورة
أن يباشر شئون الحكم بمفرده دون الاعتماد على وزراء
آخرين ، وهو ما حدث فعلا إلى آخر خلافته . والدليل على ذلك
أن ذكرى ابن مصال استمرت طيبة في نفس الخليفة الحافظ ،
حتى أنه أوصى قبل وفاته بتعيينه في الوزارة ، كما سنرى بعد
قليل .

٣ — وفيما يتعلق بالوافدين إلى مصر من أهل المغرب
والأندلس ومشباركتهم في الأحداث أثناء خلافة الحافظ لدين الله ،

وثانيهما : سنيته التي جعلته لا يقيم للدولة الفاطمية ولا لخليفتهما وزنا (٧٧) . ومع وضوح الصورة في مخيلة عباس — على هذا النحو — تأكد له ان الخليفة الظافر يتآمر عليه محاولا الاستعانة في ذلك بابنته نصر (٧٨) . فكان عليه أن يبادر بالتخلص من هذا الند القوي وأعنى به الظافر ، بصرف النظر عن كونه خليفة . وقد كان ما حدث .

وظن عباس أن الأمر قد صفا له ، الا أن فعلته أثارت شعورا عاما بالاستياء والسخط بين المصريين جميعا ، فشارك بعضهم في الهجوم على اتباع الوزير في الطرقات ، وصاروا يرمونهم بالحجارة من نوافذ دورهم وانبعثت قوى المعارضة من داخل القصر ومن بين صفوف الجيش الفاطمي .

ففى داخل القصر ، أخذ رجال الحاشية في أعمال الحيلة على عباس وتحريض الجند عليه . وكثر نحيب نساء الخليفة وعويلهن ، وشرعن فى قص شعورهن وارسلنها مع رسائل استغاثة لأحد الولاة الفاطميين الأقوياء بناحية الصعيد ، وهو الوالى أبو الغارات طلائع بن رزيك — شريك عباس السابق فى العمل لصالح ابن السلار ضد ابن مصال اللكى ، وحاكم الأشمونين والبهنسا ، وقيل متولى عمل منية ابن خصيب ، مدينة المنيا الآن (٧٩) . ويلاحظ ان الذى تولى صياغة رسائل الاستغاثة الصادرة من القصر الفاطمي فى شكل قصائد شغرية ألهمت حماس ابن رزيك وحثته على الاسراع بالحضور لنجدة الخلافة ، شخصية مغربية من كبار رجال الحاشية الفاطمية ، هو القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الجباب ، الأغلبى السعدى التميمى ، نديم الخليفة الراحل (٨٠) . ويهنا ما جاء فى إحدى هذه القصائد من وصف عباس بالبربرى الجاهل ، وذلك فى قوله :

شاباً صغيراً (١١٠) . فأسقط في يد - ضرغام ، ولم تسعفه قواته
في صد هجوم شاور والجيش الشامي وانتهى الأمر بهزيمة ومقتله
في آخر شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ (مايو ١١٦٤) ، بعد أن
قضى في الوزارة ٩ أشهر فقط . وصار شاور بذلك وزيراً للمرة
الثانية (١١١) .

وقد شهدت وزارة شاور - هذه المرة ، والتي استمرت
٢ سنوات وثمانية أشهر حتى مقتله في ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ
(يناير ١١٦٩ م) - أحداثاً هامة ، خاصة فيما يتعلق بالوجود
المغربي الذي عبر عن نفسه - من خلال تياراته الثلاثة - بطريقة
مختلفة عما سبق ، إزاء التطورات التي تخللت هذه الفترة .

وابتداء نرى شاور ، وقد كشف القناع عن حقيقة نواياه
الاستبدادية ورغبته في التمكن لنفسه ولأولاده ، سواء بالوسائل
المشروعة أم غير المشروعة . ويقول عمارة في ذلك : « وفيها (أى في
وزارة شاور الثانية) تكشفت صفحاته وأحرقت لفحاته ، وأغرقت
نفحاته » . فأطلق أيدي أولاده في العبث بمراكز القادة والامتداع
على ممتلكاتهم حتى قيل : « ولم يرب أحد رجال الدولة مثلاً رباهم
الصالح (طلائع) ، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام ، ولا أتلّف أموالهم
مثل آل شاور » (١١٢) . والأهم من ذلك أنه سعى في نقض تحالفه
مع نور الدين محمود ، وطرد القوة الشامية الموجودة بمصر
وقائديها شيركوه وصلاح الدين واستبدل شاور بهم الصليبيين
في بيت المقدس مما أدى إلى حدوث تنافس بين القوتين على
امتلاك مصر . ونشبت من ثم عدة معارك في الأراضي المصرية انتهت
كما هو معروف بنجاح شيركوه قائد جيوش نور الدين ، وابن أخيه
صلاح الدين في كسب السباق ، ومقتل شاور ثم تولى شيركوه .
ومن بعده صلاح الدين ، الوزارة للخليفة الفاطمي العاضد (١١٣) :

للسكندريين - أثناء اجتيازهما أرض الفيوم والبحيرة في الطريق
الى الاسكندرية .

وكذلك قدر لشخصية مغربية ثالثة ان تشارك أهل
الاسكندرية في مقاومة شاور والترحيب بشيركوه . ذلك هو قاضى
المدينة الأشرف أبو المكارم الحسن بن عبد الله بن الجباب ،
المعروف بالأشرف بن الجباب من أسرة بنى الجليس الأغلبية ،
العربية ، الأصل (١٢٢) والتي سبق الحديث عن أحد أفرادها
المدعو القاضى الجليس أبى المعالى عبد العزيز بن الجباب صاحب
القصائد الشعرية التى الهبت حماس ابن رزيك ضد الوزير
السابق عباس الصنهاجى .

حدثت الاسكندرية بذلك ممهدة لاستقبال شيركوه وابن أخيه
صلاح الدين فسارا إليها عبر أراضي الفيوم والبحيرة ، وسقط
مظاهر التأييد التى عبر عنها سكان هذه النواحي فى شكل مؤن
للجنود ومعلومات عن تحركات جيش شاور والصليبيين . حتى
وصلاها فى أواخر شهر جمادى الآخرة سنة ٥٦٢ هـ (إبريل
١١٦٧ م) وذلك بهدف اتخاذها قاعدة لهما فى مصر (١٢٣) . ثم
ان شيركوه أدرك الخطأ فى ان يقيم بكامل جنوده فى الاسكندرية
فيسهل ذلك على شاور والصليبيين ان يحصروه داخل المدينة ،
فأمر ابن أخيه صلاح الدين بالبقاء فيها وترك معه جزءا صغيرا من
جيشه وخرج شيركوه بباقي الجيش قاصدا طريق الصعيد حتى
يعطى لنفسه الفرصة فى المناورة بكامل حريته . وقد حدث ما توقعه
شيركوه اذ حضرت قوات الصليبيين وجنود شاور لحصار
المدينة ، بعد خروجه بقليل (١٢٤) .

وخلال مدة الحصار - التى بلغت ثلاثة أشهر - قدر
لصلاح الدين ان يرى عن قرب اصدق ملاحم الصمود التى قام بها

ما فعلوا . وبينما سكنت الجميع ، انبرى الفقيه أبو القاسم بن جارة في الحديث بشكل اثار إعجاب الحاضرين ، فثائلا : « نحن نقاتل كل من جاء تحت الصليب ، كائنا من كان » . ولا شك أن هذه الإجابة كانت تعنى الإشارة الصريحة الى شاور ، ورغم انها تفيد استعداد هذه الجماعات المجاهدة دائما لقتاله ، الا أن شاور سكنت عن الإجابة وأكرمهم بعد ذلك اليوم (١٢٩) .

ثم تلا ذلك حدوث الجولة الأخيرة من الصراع بين نور الدين محمود بالشام ، والصليبيين ، ببيت المقدس ، على امتلاك مصر . وهي المرة التي نجح فيها شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، قادة الحملة النورية على مصر ، في طرد الصليبيين من البلاد ، وقتل شاور ، وتولى بدله شيركوه الوزارة للخليفة العاضد الفاطمي ، وتلقب بالملك المنصور أمير الجيوش . وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ (يناير ١١٦٩ م) (١٣٠) . وسار شيركوه في عمله الجديد على سنة الوزراء الفاطميين السابقين ، فاستبد بالأمر دون العاضد وراح يستعمل أصحابه وثقاته على الأعمال ، وأقطع البلاد لمساكره . حتى مات فجأة بعد شهرين من توليه الوزارة (في شهر جمادى الآخرة / مارس) . فتولى بعده ابن أخيه صلاح الدين يوسف الوزارة ، وتلقب بالملك الناصر ، وذلك في يوم الثلاثاء الموافق ٢٥ جمادى الآخرة (١٣١) . وكان ذلك بتدبير الخليفة العاضد ، الذي اعتقد أن فرصته في الحكم ستكون أفصل مع هذا الوزير صغير السن . غير أن اعتقاده خاب بفضل المهمة الكبيرة التي أيدأها صلاح الدين في التوطيد لنفسه ولا تباعه على حساب العناصر الموالية للدولة الفاطمية ، وعلى حساب الخلافة ذاتها . فحينئذ عندما جاء الوقت لإعلان سقوطها من على منابر المساجد في أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١ م) ، تم الأمر في هدوء .

وأهم ما نلاحظه في الفترة التي تولى خلالها صلاح الدين الوزارة وشرع في اتخاذ كافة الإجراءات التي تمهد له ولعصبيته في حكم البلاد ، أن حاشية الخليفة العاضد — وجلهم من العبيد السودان — هم الذين نقموا على صلاح الدين ، وتآمروا على الاطاحة به ، مستعينين في ذلك بالصلبيين ببית المقدس . وتزعم ثورتهم الأستاذ صنيعة الملك مؤتمن الخلافة جوهر المشرف العام على شئون القصر الفاطمي . وقد انتهى الأمر بفشل مخططات العبيد ، بل نجح صلاح الدين في كسر شوكتهم تماما ، وطاردتهم قواته حتى الجيزة ، ثم عبر اليهم شمس الدولة توران شاه ، أخو صلاح الدين وأبادهم بالسيف (١٣٢) . وهو ما يعنى أن الطوائف المغربية — من موالى الدولة — لم يعد لها وجود كقوة مؤثرة . هذا على الرغم من اشارة ابن تغرى بردى الى أن مخططات الخليفة العاضد في التخلص من وزيره صلاح الدين ، كانت تعتمد الى حد كبير على من عنده « من العساكر الكتامية » (١٣٣) .

وإذا كان ابن تغرى بردى يجعل هذه الرواية ضمن أحداث سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢/٧١ م) والتي اسقط صلاح الدين في أول جمعة منها. الخطبة للخليفة العاضد فانه ربما اراد التنويه بذلك الى أن العاضد — لما ثقلت عليه وطأة صلاح الدين وبان له عزمه الجدى على اضعاف الدولة والقضاء عليها نهائيا — صار يبحث حوله عن العناصر التي ستكون عوناً له عند اقدامه على طرد صلاح الدين وعصبته . وأن يرد في ذهن العاضد اسم الكتاميين على وجه التحديد لما يدل على أنه لم يجد حوله القوة التي سسيكون عليها المعول في ذلك . فعاش فترة من أحلام اليقظة عن عودة الكتاميين مرة أخرى الى سابق عهدهم . وأنهم سيعيئون للخلافة أمجادها ، تماما كما كان عليه الحال في الأيام الأولى لنشأة الدولة الفاطمية في المغرب ، وبعد انتقالها الى مصر .

١١. وتعتقد ، إذا ما صحت رواية ابن تغرى بردى ، أن العاضد تصور حينئذ أن هذا الشتات من الكتامين - الذين تكالبوا منذ زمن على رعاية مصالحهم الخاصة في الضياع التي منحت لهم في أراضي الريف ، وتعجب د. لقبال من تركها في نواحي محافظة الغربية (١٣٤) ، تاركين الفرصة لآخوانهم المصامدة. ومن بعدهم اللواتيين الذين انتظمتهم طائفة الأمراء البرقية ، في شغل الفراغ الذي نشأ في الدولة نتيجة لغيابهم - (ان العاضد تصور أنهم) هم الذين سيصنع بهم المعجزة . وعلى أية حال ، فلم يقدر للعاضد أن يرى أفكاره تخرج الى حيز التنفيذ ، إذ سرعان ما سقط فريسة لمرض الموت . حتى انه لم يعلم نبأ حذف اسمه من الخطبة والدعاء بدله للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ = ١١٧٠ - ١١٨٠ م) . وآثر أهل القصر إلا يزعموه بهذا الخبر حتى لا يعجل بوفاته . فبات بعد ذلك بيومين في مساء الأحد ٩ محرم سنة ٥٦٧ هـ (١٢ سبتمبر ١١٧١ م) وطويت بموته صفحة الدولة الفاطمية (١٣٥) .

وبعد ، فماذا كان أثر هذه الخطوة الهامة التي اتخذها صلاح الدين الأيوبي باعلانه سقوط الدولة ، وقيام أسرته الأيوبية في حكم مصر ، على الأفراد والجماعات التي تشكلت من مجموعهم التيارات المغربية الثلاثة الموجودة بمصر ؟ او بمعنى آخر : ماذا كانت ردود الفعل الخاصة بأفراد وجماعات كل تيار من التيارات المغربية الثلاثة - الموجودة بمصر - ازاء اعلان سقوط الدولة الفاطمية وقيام الأيوبيين في حكم مصر ؟

كان من الطبيعي أن تختلف ردود الفعل بالنسبة لأفراد وجماعات كل تيار - من هذه التيارات المغربية الثلاثة - على حدة أمام هذا الحدث الهام . وذلك طبقا لاختلاف الأساليب التي اتبعوها

— ان الجماعات المغربية المنتشرة في صحراء مصر الغربية ومعظمهم من بربر لواتة قد أيدوا كذلك سياسة صلاح الدين الرامية الى القضاء على الدولة الفاطمية ، وذلك بحكم التماثل للمذهب السننى . وقد رجحنا انهم هبروا عن ذلك من خلال ثورتهم التى قاموا بها ، وعرب قيس ، ضد شاور . كذلك فى عدم اعتراضهم مسير شيركوه وصلاح الدين الى الاسكندرية عبر اراضيهم ، وامدادهما وجنودهما بالمؤن والأخبار عن تحركات جيش شاور والصليبيين . أما عن صدق مزاعم هؤلاء القلب دائما فانها تحتاج لادلة أكثر من ذلك ، لا تتوفر الا بالقاء مزيد من الضوء على احوالهم اثناء العصر الايوبى وسياستهم فى التعامل مع صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين .

— هذا فى حين كان من الطبيعى أن يمثل أفراد وجماعات التيار المغربى الآخر ، واعنى بهم الفرق العسكرية المغربية من موالى الدولة بجانب الصمود والتصدى لمحاولة صلاح الدين اسقاط الخلافة الفاطمية ، وذلك بحكم كونهم أساس الوجود الفاطمى وعمود سنامه فى مصر . بيد أن عوامل الزمن ابت — كما رأينا — الا ان يقوم بذلك طوائف أخرى غيرهم ممن كانوا على شاكلتهم فى الانتفاع من وراء الفاطميين . وقد رأينا أن حركة المعارضة الوحيدة التى قامت فى وجه صلاح الدين — اثناء توليه الوزارة — قام بها العبيد السودان الذين فشلوا فى تحقيق مأربهم . نفس الشئ نلاحظه بالنسبة للمؤامرة التى حيكمت ضد صلاح الدين سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤/٧٣ م) وقصد القائمون بها القضاء على حكم صلاح الدين وأسرته ، وارجاع الأمر لأبناء العاصد الفاطمى . فقيادات هذه الفتنة — فى معظمهم — لم يكونوا من الشخصيات المغربية باستثناء الجليس بن عبد القوى ، سليل أسرة بنى الجليس المغربية الذى كان — قبل أن يعزله صلاح الدين — قاضيا للقضاة وداعيا للدعاة

أيام الخليفة العاضد . وحتى في هذا ، فان تصارييف القدر . حكمت بأن تكون نهاية هذه المؤامرة التي حاكها هؤلاء المنتفعون . ، على أيدي جماعة كان منهم الأمير نجم الدين بن مصال الصديق الوفي للنظام الجديد منذ حصار شاور للاسكندرية ، والذي يمكن القول بأنه كان منتصيا في يوم ما الى الدولة الفاطمية (١٤٠) . ولا شك في أن هذا كله يعنى أن نفوذ الاقصاد والجماعات من المغاربة الذين انلارجوا تحت لواء الفاطميين كان قد تلاشى منذ زمن ، ثم كان بسقوط الدولة الفاطمية وقيام حكم الأيوبيين في مصر بمثابة القضاء نهائيا على فرص عودتهم كتنوى مؤثرة ، او حتى غير مؤثرة . اذ من الطبيعي أن آية نظام جديد لا بد وان يقوم انصاره على حساب المؤيدين للنظام السابق .

الهوامش

- (١) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٢٤ ، المقرئى : اتعاط ، ج ٢ ، ص ٣١٢ ، والخطوط ، ج ٢ ، ص ٨٠ .
- (٢) المقرئى : اتعاط ، ج ٢ ، ص ٣١١ - حيث الإشارة الى الآثار المعدنية المرتفعة التى كرتبت على هذه المغامرة البحرية الجريئة التى قام بها بدر الجمالى .
- (٣) المقرئى : اتعاط ، ج ٢ ، ص ٣١٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٢ .
- (٤) السجلات المستنصرية : سجل رقم ٥٦ ، ص ١٨٣ - ١٨٥ ، ورقم ٥٧ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ ، ابن منجب : الإشارة ، ص ٥٥ - ٥٦ ، ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٢٤ المقرئى : اتعاط ، ج ٢ ، ص ٣١٤ ، والخطوط ، ج ٢ ، ص ٨٠ - ٨١ و ٣٤٤ ، وابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٥ ، ص ٢٢ - ٢٣ .
- (٥) ابن تغرى بردى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣ .
- (٦) المقرئى : اتعاط ، ج ٢ ، ص ٣١٦ . وراجع : د. سرور : الدولة الفاطمية ، ص ١٠٩ ، ود. الفوصى : تاريخ دولة الكنوز ، ص ٥٨ - ٥٩ .
- (٧) البكرى : المغرب ، ص ١٥ - ١٦ .
- (٨) ساويرس : تاريخ بطارقة الكنيسة ، مجلد ٢ ج ٣ ، ص ١٨٤ .
- (٩) انظر فى ذلك المؤلف مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار ، نشر وتعليق د. سعد زغلول عيىء الحميد ، مطبوعات جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ ، ص ١٥٠ . وقارن : ابن دقماق : الانتصار ، ج ٥ ، ص ١٣ .

(١٤٠) راجع تفاصيل هذه المؤامرة التي كان ضمن قادتها ، الى جانب المجلس
ابن عبد القوي : عمارة اليمنى ، والقاضى النضر بن كامل ، والعوريس متولى
النظر ، وعبد الصمد الكاتب . عند : (ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٦١ -
١٦٢ ، وابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ صفحة ٢٢٠ وابن خلدون : العبر .
ج ٤ ص ٨٠ - ٨١) مع ملاحظة ان ابن مصلح - الذى قيل عنه انه شارك ،
ضمن جماعة آخرين ، فى كشف سر المؤامرة واطلاع صلاح الدين على تفاصيلها -
هو ذاته الذى كان حاكما على مدينة الاسكندرية وقت وجود صلاح الدين بها ،
وقام بجهد لا بأس به فى مقاومة حصار شاور والصليبيين للمدينة .

فهرست عام للجزء الأول من كتاب :

المقاربة والاندلسيون في مصر الاسلامية
من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي
(٢١ - ٥٦٧ هـ / ٦٤٢ - ١١٧١ م)

الجزء الأول : الدراسة السياسية

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
— المقدمة	٧ — ٣٤
— المدخل	٣٥ — ٥٨
القسم الأول : الدراسة السياسية	٥٩ — ٣٧١

— الباب الأول :

من عصر الولاة حتى نهاية الحكم	
الاخشيدى	٦١ — ١٥٢

الفصل الأول :

في عصر الولاة	٦٣ — ١٠٠
---------------	----------

الفصل الثانى :

في عصر الدولتين الطولونية والاخشيدية	١٠١ — ١٥٢
--------------------------------------	-----------

